رواية



رجال غسان كنفاني

عمرو العادلي

مكتبة الدار العربية للكتاب

العادلي، عمرو.
رجال غسان كنفاني: رواية / عمرو العادلي .- ط1.-
القاهرة: مكتبة الدار العربية للكتاب، 2020.
336 ص؛ 20 سم.
تدمك: 9 - 763 - 293 - 977 - 978
1- القصص العربية.
أ- كنفاني، غسان، 1936-1972.
ب- العنوان. 813
رقم الإيداع: 1541 /2020

مكتبة الدار العربية للكتاب
16 عبد الخالق ثروت القاهرة.
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + - ص. ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www. almasriah.com

الطبعة الأولى:2020م

تصميم الغلاف الفنان: محمد هشام

تنويه: أي تشابه بين هذا العمل وكتابات غسان كنفاني هو مقصود.

رواية

رجال غسان كنفاني

عمرو العادلي

مكتبة الدار العربية للكتاب

إلى صنع الله إبراهيم

وِلِمَ لا أقول الحقيقة؟ أنا لا أخشاها،

ولكني أيضًا لا أعرفها.

كزانتزاكيس

(تقرير إلى غريكو)

القاهرة1981

للأقمشــة أسـماء كثيرة، فمنها الجبردين والتِّرجال وغزل المحلة، أغلاهـا الصوف الإنجليزي وأرخصها الدمُّـور المصري، لا يفرق كل ذلك معي، فأنا أكرهها جميعًا.

طالما تعثرتُ في أكوام الأقمشـة والكُلَف والقياطين، فوق رأسـي سـندرة مُكدَّسـة بـكل ما يمكـن أن تتنازل عنـه للزبَّال صاحـب القُفَّة، أشـرطة حريرية منذ أيام الملك، ولفائف بطانة أكلها الزمن، لكن أبي، ولشيءٍ في نفســه، يرفض أن يرمي قشَّة، لا أعرف لماذا يُخزنها بشكلٍ دائم؟ لا يمل القول بأنه ورثها عن جدي الذي وقف هنا ذات يوم.

كانت الشـمس تأكل رأس أبي عندما يخرج لشـراء البضاعة، يعود لاهثًا وهو يحمل أثواب القماش وبكرات الخيط، لا أعرف سببًا حتى الآن لعـدم بحثه عن صنعةٍ أخرى طيلة السـنوات الفائتة، وأنا، لا أريد تعلُّـم هـذه المهنة المُملَّة التي يعمل بها، فمـا أصعب تمرير خيط رفيع في إبرة تقع من يدي باستمرار، ثم تختبئ في مكانٍ لا يعرفه أحد! كما أن أشـغال الرَّفِي والسَّـراجة تُحطم كل محاولات اسـتمتاعي بالحياة،

أما تركيب آلاف الأزرار بثقوب أصغر من عين الكتكوت، فهي أشغال شاقة لا تنتهي إلا بانتهاء العمر.

لا أرغب في أن أرث "أزياء الشرق" مثلما فعل نيابة عن أبيه.

خلال الأيام الفائتة انشغل أبي في أمرٍ آخر غير هموم الدُّكان، فقد حطَّ في شارعنا شيخ غريب الهيئة والأطوار، كان نحيفًا جدًّا، يمكنه أن يتقوس بسهولة حتى يصير مثل هلال، صنع لنفسه منامة بجوار الرصيف، كرتونة كبيرة يغطس فيها فلا يظهر منه إلا غطاء يتقلب أثناء الليل، وبالنهار، ينتظر ما ستُلقي به أيادي الإحسان الصباحية، يأكل ما يجود به المارة، ويضع إلى جواره زجاجة مياه تغطيها غلالة من خيش، لا يترك قاربه الكرتوني إلا لقضاء حاجته في حمَّام المسجد الصغير، ثم يعود إلى منامته الدائمة كما كان.

من زجاج الدكان رأيت أبي يُنزل حمولة الأقمشة بالقرب من كرتونة الشيخ، دار بينهما حوار في البعيد، صَعُبَ عليَّ التقاط تفاصيله، أود لو أسمع كل كلمة يقولها، فقد كانت للرجل الغريب قصص ممتعة، أُحب سماعها كلما جلستُ بالقرب منه، وأبي يوبخني عندما يراني أتسكَّع بجواره، فاستماعي إلى حكايات الشيخ ليس له إلا نتيجة واحدة، سيتراكم عليَّ عمل يوم كامل لا يتحمله الغد.

حاولت إرهاف السمع فلم يصل صوتهما إليَّ، ترددتُ قليلًا قبل إغلاق باب الدكان الزجاجي والتوجُّه إليهما، قلتُ في نفسي، سأفعل ما أريد وليحدث ما يحدث، علقتُ لافتة "مُغلق" وخرجت.

من الخلف، رأيت الشيخ يدسُّ في قاربه الكرتوني قطعًا كبيرة من المشمع.

"هذه الأكياس الشفافة لن تمنع عنك الأمطار عندما يدخل الشتاء".

قال أبي للشيخ الذي كان منشغلًا في إفراغ كيس صغير من بيضتين مسلوقتين، وأخذ يقيسه في رأسه، لمَّا أُعجب بحبكته تركه ولم يخلعه، اقتربتُ منه وأنا أتأمل شعره الأبيض الدخاني داخل الكيس، كأنه وضع فوق رأسه لبدة من سحاب.

يُميِّل أبي فمه بالقرب من الشيخ.

"لماذا لا تترك كرتونتك هذه وتعمل معنا في الدكان؟ لا يوجد إلا أنا والولد عبد الله".

أسند كوعه على حافة قاربه الكرتوني فمال أحد أضلاعه بسهولة.

"وما الذي سيُغريني في دكان خيَّاط؟ ليته كان بقالة".

يُلقي مارٌّ بفطيرة ملفوفة في ورقة، تتلقفها يد الشيخ وهو ينظر برُكن عينه تجاهي:

"عبد الله!"

يلتفت أبي إليَّ ويُعاتبني بنظرة جانبية على ترك الدكان، لكنه لم يتكلم، فاقتربت منهما.

"نعم يا شيخ عبد الرحمن".

قال وهو يتحسس لفافة الفطيرة:

"بسببك فقط لم أشد الرحال إلى شارع آخر حتى الآن، فالأرض يُرحَل عنها لكنها لا ترحل".

شمس الخريف حامية هذا الصباح، خلعت طاقيتي وكبستها في رأسه، كان منظرها مضحكًا وأطراف الكيس الشفاف تتدلى من تحتها وتغطي أذنيه، ، ابتسم الشيخ عبد الرحمن، نزع الكيس من تحت الطاقية فتمزق وطار، أبقى فقط على هديتي، كانت أصغر من رأسه، فبان من تحتها شعره الأبيض الطويل.

"هذه الشمس لا تتناسب مع شهر أكتوبر، حامية وتُذكِّرني بالخزان".

كان دائمًا يتحدث عن أشياء لا أعرفها، يُلقي في حواره بكلمة غير مفهومة، ليُكوِّن منها حكاية جديدة في الصباح التالي.

"ها. ما رأيك في تلك الصفقة يا شيخ عبد الرحمن؟ لقد قلت لي من قبل إنك تجيد السراجة وفتح العراوي، وأصابعك في طعن الإبرة بالكستبان طيَّارة. ما رأيك؟ نعمل معًا والرزق على مَن لا تنقطع موارده. الولد عبد الله لا يريد تعلم المهنة، وأنا أحتاج في الدكان إلى شريك لديه خبرة".

قال أبي ثم اتكأ بكوعه على ثوب قماش أقصر منه قليلًا، جاءت الإجابة كالعادة، غير مفهومة بالنسبة لي.

"حياتي أثقلتها الديون، ولا سبيل للسداد سوى الموت يا أبا عبد الله".

تدل نظرة أبي على أنه فهم هذه الألغاز، يهز رأسه ويمط شفتيه.

يتأمل الشيخ السماء عندما يسمع وشيشًا يعلو، رفع ذراعيه مهللًا كالطفل حين تأخذه جلالة الخيال، كانت أسراب طائرات صغيرة تطوف فوق رءوسنا، تتبعها ذيول من دخان أبيض، تتسلل بين السحب وترسم خطوطًا ثعبانية، ثم تتحول إلى بقع بيضاء وتتلاشى، ابتلّت حواف طاقيتي على رأسه بالعرق، وسبح الشيخ في ضباب، كانت نظراته غائمة، كأنه يتضرع لكائناتٍ غير مرئية، ظل ساكتًا يوزع نظراته بين ملامحي والعروض البهلوانية التي تُجربها الطائرات في الأفق.

"هل تعرف يا عبد الله؟ لو توجهتُ هذه الطائرات إلى قيسارية لتغيَّر الحال، كنتُ سأتبع ذيولها البيضاء، أطيرُ معها وأحط هناك في لمح البصر".

يعود للألغاز من جديد، ويقول أبي:

"أنا متأكد من أن لديك ما يستحق الإنصات. لكن ألا يمكن أن نتبادل الحديث ونستمع إلى أسرارك ونحن نعمل معًا؟"

يُخلِّل الشيخ لحيته بأطراف أصابعه ويسرح.

"لا أسرار لديَّ، ما هي إلا بعض حكايات لا تستحق شيئًا، مجرد ذكريات علقت في رأسي، رويتُها كثيرًا على المقاهي، ولم أنَلْ

إلا التهكم والسخرية، كان الزبائن يُسلطون عليَّ الباعة المتشردين، ليقذفوني بالحصى أو يلقوا بعمامتي على الأرض".

ضرب أبي يده في سيالته وأخرج قطعة مضغة، كوَّرها ودسَّها في فمه.

"ما حدث في حياتي يا أبا عبد الله كان شيئًا غريبًا، لم يستطع السيد فيلبس نفسه التنبؤ به".

تبادلنا نظرة الارتباك أنا وأبي.

كنتُ ألفُّ ماسورة ثوب القماش في الهواء، فقال أبي: "لكنك يا شيخ، لا تؤاخذني، تُقطِّع حكايتك دائمًا بكلام غريب لا أفهمه".

يتمطَّى في الكرتونة فتخرخش كومة من الأكياس عندما يُمدد عظامه، يبتسم بجانب فمه.

"لم يمر حدث كبير على هذه الحياة الرتيبة، عندما يحدث ذلك سأحكي لك كل شيء يا أبا عبد الله".

يرص أبي ثلاثة أثواب صغيرة ويجلس فوقها.

"يمر حدث كبير؟ لا أفهمك أيضًا".

تعرَضُّ ابتسامة الشيخ.

"ليس مهمًّا أن تفهم، المهم ألا أموت وفي جوفي ما أود قوله".

"ألست صغيرًا على هذا الكلام؟"

"ومنذ متى كان الزمن يُحسب بما مرَّ من أعوام؟"

تعودت ذلك الغموض من الشيخ عبد الرحمن الدكش، لا أعرف من أين جاء باسم أبيه المضحك هذا؟ "الدُّكش" كان يجذب انتباهي بكلامه غير المُكتمل، فيعطي الفرصة لخيالي أن يعمل بطاقته القصوى، فقط بعض كلمات كانت تُحشَر في حديثه لا أعرف شيئًا عن معانيها، وهو من جانبه لا يسعى لتفسيرها، فمَن تكون قيسارية هذه، هل هي حبيبته، امرأة من لحم ودم مثل بدرية وحسنية؟ ومَن يكون زكريا الذي كرَّر اسمه كثيرًا؟ كان أحيانًا يُباغتنا في منتصف الحكاية وتنفلت منه ضحكة، دون سبب معلوم.

عادت الطائرات الصغيرة التي ترسم ذيولًا من دخان تعبر الأفق فوق رءوسنا، والعيال يجرون في الشارع ويهللون، لا يُنزل الشيخ عينه عن السماء إلا عندما تختفي الطائرات، فينتظر أن يبدأ سرب جديد في العبور، لكن سربًا آخر لم يعبر.

هبَّ نسيم طيَّر شعر الشيخ من تحت الطاقية، كان يتأمل المارة وملامحه تطرح أسئلة لا ينطق بها لسانه. قبل أن أُكمل تأملاتي في ملامح الشيخ عبد الرحمن انطلقتْ هيصة كبيرة في الشارع، المارة يروحون ويجيئون بسرعة ولا سبب واضحًا لذلك، أطفال حفاة يجرون ونساء يصرخن، مكَّن أبي يده جيدًا فوق قماشِه وخرج الشيخ مذعورًا من قاربه الكرتوني، اقترب منَّا رجل سمين لا أعرفه، وفحَّ بصوت مشروخ.

"قتلوا السادات".

ترك الشيخ عبد الرحمن منامته، ابتعد حتى منتصف الشارع ووقف يرقب مسيرة السحب في السماء، اختفت أصوات الطائرات، فتهدج صوته وغامت نظرته قبل أن يقول:

"مات الملك عاش الملك".

لم نفهم أيضًا لا أنا ولا أبي ماذا يقصد، أخذ يلف حول الكرتونة بخطى سريعة وهو حافٍ، ثم توقف بعد أن غمر العرق وجهه:

"مات مَن مَدَّ يده في طريق الموت الكبير".

"ماذا تعني؟"

قال أبي، فرد الشيخ وهو يمط رقبته:

"هل سيكون الثالث خيرًا من سَلَفَيْه؟"

وقال أبي:

"لا أعرف، لا أفهم ما تقول".

"هذا موضوع شرحه يطول".

وقف أبي وترك أثواب الأقمشة، أصبح وجهًا لوجه أمام الشيخ:

"سنعمل معًا، وعندئذ، سيكون في مقدورك أن تشرح لي كل شيء يا شيخ عبد الرحمن".

بحث الشيخ عن مداسه داخل الكرتونة، نفضه من الأتربة والطين وألقى به أمام قدميه.

"لا أريد أن أبدأ الحكاية بكذبة".

"كذبة؟"

"نعم، فأنا اسمي مروان".

يُحملق فيه أبي مليًا:

"ومَن يكون الشيخ عبد الرحمن الدُّكش هذا؟"

"اسم مستعار، اخترعته وأنا أبحث عن مقهى يسمعني رواده دون أن يسخروا مني، وَقَرَ الاسم في نفسي عندما كدتُ أنسى اسمي الذي اختارته أمي منذ ثلاثة وثلاثين عامًا".

قلتُ بصوت لا أعرف كيف غادر حلقي:

"شيخ مروان؟"

كان اسمًا يليق على ملامحه أكثر من اسمه المُخترع المُضحك.

لملم أغراضه من الكرتونة، دسَّ قدميه في نعليه وسار أمامنا، حملتُ مع أبي ثوبين ورفع هو فوق كتفه ما تبقى من الأقمشة، ساعدنا الرجل السمين الذي أنبأنا بمقتل الرئيس، كان يكنس الشارع بمقشة لها يد طويلة. قميصه مشبوك في بنطلونه، قطعة واحدة زرقاء، تفوح منه رائحة جلد محترق وجبن عفن، كانت قدم الشيخ مروان تزحف في الأرض، كأنه يتدرب حديثًا على المشي، التفت إلينا عندما اقتربنا من باب الدكان، ابتسم وهو يرفع طاقيتي عن رأسه:

"الآن صار بوسع الحكاية أن تبدأ".

صحراء الكويت1967

1

كأني بالأمس فقط أبصرتُ نفسي هناك.

كنـا ثلاثـة، ورابعنا أبـو الخيزران، نبحـث عن ثغرةٍ لننفـذ منها إلى البراح الكبير.

أسعد وأبو قيس وأنا.

قال رابعنا: "عن طريقي، وعَبْرَ سيارتي فقط، ستَصِلون إلى الكويت بسلام، ثم تغرقون في الخير بعد ذلك".

كان يُردد مثل هذه الكلمات كلما فتح فمه.

قفـز فوق حَجَـر وأخذ يخطب فينا: "أنا أحسـن سـائق للسـيارات الكبيرة يمكنكم أن تعثروا عليه".

"أنت تعرف يا أبا الخيزران، الشمس تتضاعف درجة حرارتها في الصحراء، فهل درستَ الطريق جيدًا؟"

عندما سألتُه أخذَته العزة، نزل من فوق الحجر واقترب مني واضعًا يده في جيبه، ابتسم بركن فمه ثم ضحك:

"درست؟! كلمة تصلح للتلاميذ، لا تخف يا مروان، قيادة المُصفَّحات لعبتي".

ضاقت المسافة بيننا، فشممت رائحة ملابسه الملبدة بعرق الصحراء وغبار الطريق، لم يغيرها منذ سنة، ولم يستحم منذ ألف عام، أبو الخيزران، اسم على مسمى، رجل طويل القامة ونحيل، كان بوسعه أن يقوس نفسه، فيضع رأسه بين قدميه دون أن يسبب ذلك أي إزعاج لعموده الفقري.

قفز مرة أخرى فوق الحجر: "اطمئنوا يا رفاق، فأنا لن أفعل مثل المهربين وأترككم تذوبون في الصحراء مثل فص الملح، لكن يجب أن تبحبحوا أيديكم، فالمبلغ قليل جدًّا، هذا الثمن كان يصلح قبل أن تُزف حواء إلى آدم".

يضحك مرة أخرى، كأن الضحك يحرره من تضارب العواطف، ونضحك معه، فقد كانت لدينا جميعًا عواطف متضاربة.

"ها. ماذا قرر الرجال؟"

تصنع رءوسنا دائرة صغيرة ونتشاور، عندما طال انتظار أبي الخيزران اقترب منَّا: "يا رفاق، الأفكار لا تنزل من السماء، ماذا قررتم بخصوص الصفقة؟"

قـال ثم انطلق بعيـدًا دون أن ينتظر ردنا، ركب سـيارته ودار حولنا فـي حلقـات واسـعة، طـارت الرمال فـي الجـو كالطحيـن، كان يُرينا مهارتـه ويسـتعرض قدراته في القيـادة، عندما تغبَّرت لحيـة أبي قيس قال: "لا مهرب من قدَر الله إلَّا إليه، لقد قررتُ السـفر مع ذلك الرجل الطيب، فأنا أريد شراء عرق زيتون أو عرقين، وعندما أعود من الكويت سأُعلِّم قيسًا القراءة والحساب، وربما يصبح باستطاعتي أن أبني غرفة وأسقفها بفلوق النخل".

وقال أسعد الذي كان كلامه قليلًا: "وأنا معكم أينما ذهبتم".

نظر إليَّ الاثنان وكان يجب أن أُحدد موقفي بسـرعة، فاتجهت إلى السيارة بصحبتهما:

"وأنا أيضًا".

وافقنا على خـوض المغامرة مع ذلك النحيف المجنون، ثم غصنا جميعًا في سـكوتٍ تام، الصحراء أمامنا وأبو الخيزران خلفنا، بشـكلٍ ما، أصبح رجل المرحلة.

فتح لنا الخزان الذي تحمله السيارة فوق ظهرها، انزلقنا واحدًا بعد آخر، أغلق علينا الباب وسمعنا صوت قدميه تنزلان الدرج الحديدي، عندما شعرنا باهتزاز الصندوق أدركنا أن السيارة تحركتْ، وأن الرحلة قد بدأت.

شـقَّ العالـمُ الصغيـر الذي يسـير علـى أربـع عجـلات طريقه في الصحراء، ونحن الثلاثة نتلظى داخل الخزان، الحر والخوف وهمجية

الحياة، فرشت قميصي فوق رأسي وطويت ساقيَّ إلى فخذيَّ، تكفَّلت الشمس المتسربة عبر الصاج بعملية شواء مكتملة الأركان.

توزعتْ أفكارنا وتاهت في الطريق، مضت السيارة بنا فوق الأرض الملتهبة، شقَّت الصحراء مثل قطرة زيت ثقيلة فوق صفيحة قصدير متوهجة.

سمعت صراخًا مكتومًا خلف قفاي: "المقلاة.. المقلاة".

ترددت الأصوات في عمق الخزان، كأنها صدى بعيد لشيءٍ حدث من قبل، كانت السيارة تلتهم الطريق، تخيلتُ كيف يمكن أن يهجس كل منَّا بما تُمليه عليه خِلقته، مؤكد يفكر أسعد بأن سطح الخزان الذي نختبئ فيه يمكنه شواء دجاجة في أقل من ربع ساعة، وأنا، كنتُ أتخيل أيضًا، بإمكان البيض أن يصير عِجَّة خلال ثلاث دقائق من شدة الحر، أما أبو قيس فوقف عند أعلى درجة من السلم، رفع الباب الحديدي بكتفه فدخلتْ طاقة صغيرة من النور، لم يتكلم، كان يزوم كأن كائنًا يعوي بداخله، توحي ملامحه المنقبضة باختلاط الأفكار عليه، ذاب مُخه وفَقَدَ ارتباطات التفكير التي تصنع خيط الكلام.

كنت أعرف أن الطريق يمتلئ بالدوريات، لكن مَن ذا الذي يُمكنه أن يُغامر بالاستطلاع في مثل هذا القيظ؟ أفكارنا داخل الخزان الصدئ متوهجة ما زالت، تسيل من رأس إلى رأس، سبع دقائق يا رجال ونعبر الدورية الأخيرة. ثم بعدها هوب، نكون قد وصلنا. ويصبح لكم

الحق في الخروج والرقص. وأنا سأذبح دجاجتين، صوت يُهلل، أبو الخيزران يُحدثكم من كابينة القيادة.

وبالفعل، بعد قليل يتوقف هدير المحرك، مؤكد سينزل أبو الخيزران وتحت إبطه أوراقه الصُفر، سيتجه إلى نقطة التفتيش متثاقلًا، كان وقع خطواته على الأسفلت بطيئًا، كأن قدميه تجران أكياسًا مليئة بالرمال، خفت الدبيب حتى غاب تمامًا، ورغم بعدنا بأمتار كافية عن نقطة التفتيش فإن أحدًا منَّا لم يتكلم، أبو قيس كأنه نائم، وأسعد يحاول تسلق سلم الخزان ليظفر بشهقة هواء تُنعشه من شق الباب، أسمع يده وهي تفرك الصدأ، لكنها تتوقف عن التسلق ولا تُكمل الصعود، وأنا، لا أحاول فعل شيء، كل ما يشغلني أن أظل أتنفس داخل هذه المجمرة، في معصمي ساعة ولا يمكنني بسبب الظلام معرفة الوقت، من دون وعي أوشك أن أصيح، قيود الظلام منعتني من النهوض والصراخ، ضاع صوتي وسط هدير الخوف.

دقائق طويلة مرت، لم يحاول أحد فتح باب الخزان، وفي لحظة مباغتة توقف صدر أبي قيس عن الصعود والهبوط، تحسستُ ناصيته الباردة وكذَّبتُ ما يمكن أن يعنيه ذلك، كان جسده طيعًا في الظلام، سائبًا من بعضه مثل رضيع، أما أسعد، فتكوَّم بجوار السلم الداخلي وفَقَدَ هو الآخر أنفاسه، تغيرتْ رائحة الخزان، صرخت فيهما وسمعت صدى صوتي يُرد إليَّ، يا رجال، أين ذهبتما وتركتما لي جثتين تنوبان عنكما؟

حين تأكدتُ من أنني أصبحت وحدي في الخزان تضاعف خوفي، كدت أموت في جلدي، خفقان ولُهاث لم أشعر بهما من قبل، ثم خُيِّل إليَّ بأن جسـدي يسـقط أرضًا وأنا في كامل وعيي، وقعتُ بجوارهما، أشـعر بـأن أنفاسـي ما تـزال تدخـل وتخـرج، لم يعُـد أحد يسـتهلك الأوكسجين غيري، ورغم ذلك حدث الانقباض الكبير الذي حاولت الهروب منه، كأن عمري بأكمله يُعرض عبر شريط وامض في الظلام، لهجـتُ وخرج رغاء من فمي، "ابتعد" صرخت فيه، فلم يبتعد، طُوِيَت الحيـاة كلها كالصحيفة أمامي، في لمحةٍ كالبرق لم أجد نفسـي، غبتُ عن الدنيا، أو غابت عني، ولم أعُد أسمع شيئًا من هذا العالم.

بعد مدة لم أسـتطع تحديدها، أيقظتني روائح كريهة عندما سمعت صريـرًا، باب الخزان يتوارب، عصا من الضوء تضرب عيني، وأسـمع صوتًا أعرفه: "يا أبا قيس، يا أسعد"، عندما نطق الصوت باسمي وقال: "يـا مـروان"، كدت أنهض وأرد: "هـا أنا. مروان. مـا زلتُ على قيد الحيـاة"، لكنني سـرعان ما تنبهت ورجعت إلى نفسـي "يـا مُغفل، من المؤكـد أنه أحد رجـال الدورية يُقلد صوت أبـي الخيزران"، فلم أرد، بعد قليل أُغلق الباب واختفى الصوت والضوء الشحيح، وعاد الظلام يُغيِّب كل شيء.

تحسسـت يدي بيـدي الأخرى، وجهي وقدمـي، أنا موجود، حي، وعندمـا حاولـت أن أعرف الوقت مـررتُ أصابعي على سـاعة يدي، أحسسـت زجاجهـا المدور قد اسـتحال إلى شـقوق صغيـرة مضلعة،

والساعة لا وقت فيها، تسلَّقت السلم وحاولتُ دفع الباب بطرف قميصي، كانت الفوهة محكمة الإغلاق من الخارج، تقوَّس ظهري المبتل من العرق، وبأقوى عزم في حبالي الصوتية صحتُ، لكن لم يسمعني أحد، ولم أتأكد تمامًا من أن صوتي قد غادر حلقي بالفعل.

بعد قليل شعرت بنفسي محمولًا فوق كتف شخص ما، يصعد السلالم بي من الظلمات إلى النور، قدماي تتدليان في الهواء، صرت فوق قمة الخزان، فلمحت أبا قيس وأسعد متكومين في الأسفل، عند جناح السيارة، وقبل أن يُلقي بي فوقهما الشخص الذي يحملني انتبهت، انزلقتُ بسرعة عن كتفه ورجعتُ إلى الخلف، ثم دفعته أمامي بأقوى ما فيَّ من عزم، فطار من أعلى الخزان ووقع بعيدًا بسبب خفة وزنه، سمعتُ صوت ارتطامه بالرمال كالزكيبة، تكوم ولم يستطع النهوض، أمسك بركبته وابتعد زاحفًا إلى الخلف، نزلت السلم بسرعة، دبَّت فيَّ همة كبيرة، عندما وصلتُ إليه كان لا يزال يجرجر نفسه بعيدًا عن السيارة.

"كن عاقلًا يا مروان، كن عاقلًا، فأنتم يا ولدي مَنْ أخطأتم. ولستُ أنا الذي أتحمل الوزر وحدي، لماذا لم تصرخوا عندما تأخرتُ في نقطة التفتيش؟ لماذا لم تدقوا جدران الخزان لتحافظوا على حياتكم؟"

كل خطوة أقتربُ منه يبتعد خطوتين، كان من خلفه منحدر ينزلق إلى هوَّة يغطيها السحاب، عندما شعر بالخطورة توقف عن الزحف.

"قلت لنا سبع دقائق، فلماذا غبت كل هذا الوقت؟"

"واللـه غضبًـا عنـي، كل ما أرجوه أن تصدقني، فأنا رجل شـهم، وإلا لمـاذا رضيـت بمغامرة خطرة مـن أجلكم، مؤكد أنك تعرف، هه! هل يُعرِّض أحد حياته للهلاك من أجل خمسة دنانير؟"

أبـو الخيزران ما زال يرتعـد أمامي، فإن اقتربتُ منـه خطوة واحدة ودفعته سيسقط في الهوة المنخفضة ويموت، توقفت في مكاني.

"لقد مات رفيقيَّ بسببك".

"ليس بسببي، والله ليس بسببي، الراقصة هي السبب".

كنت أتأمل ضعفه وخوفه، يستجير بنظراته ولا يستطيع الرجوع إلى الخلف نصّف خطوة.

"راقصة! أي راقصة يا أبا الخيزران؟"

"كوكب".

"كوكب؟"

"كان رئيس النقطة يسألني عنها، فقد قال له الحاج رضا صاحب السيارة إنني أسهر عندها كل ليلة حتى الفجر".

كنت متأكدًا من أنه يراوغني فقط لينجو، اقتربت منه خطوة وتأملتُ ملامحه، بدأ ضعفه يستحيل إلى تشبث وخوف.

"أرجـوك يا مروان صدقني، فلم تكن لي يد فيما حدث، بشـرفي هذه هي الحقيقة".

"الأمور تمضي بشكلٍ أفضل حين لا يُقسم المرء بشرفه".

قلت له وأنا أنظر إلى الجثتين المتكومتين فوق الرمال.

وقفت في حيرة من أمر هذا الرجل، بدفعة واحدة للخلف يمكنني أن أقضي عليه، ترددتُ ولا أعرف لماذا، الصحراء والوحدة، وقفتُ أمامه فاقد التركيز، أشعر بصداعٍ شديد.

"فشلت في تهريبنا وتسببت في موت رجلين".

لم يعُد لديه كلام يمكن أن يقوله، فمد يده بساعتي ونقود رفيقيّ.

"خذهم يا مروان، أنا لا أحتاج إلى شيء، اتركني فقط أنجو بحياتي ولك ما تريد، كلنا ضعفاء يا ولدي ولا منجي لنا إلا الكلام، فلم يعد لديَّ ما يصلح للراقصة كوكب أو لغيرها من نساء الأرض، لا أريد أن أتذكر ذلك اليوم الأسود، في حرب 48، يوم أن انفجرت بين ساقيَّ قنبلة، وبوم، طار كل شيء، يكفي ما حرمتني منه القنبلة، فلا تحرمني أنت من الحياة، أنا مثل أبيك، رجل كبير ومصاب في ركبتي بسبب دَفعتك القوية لي من فوق الخزان".

أمسكت برأسي وأنا أقاوم دوارًا شديدًا، وكأنني بالفعل استيقظت من غفوة موت، وجهي مُترب وعيناي حمراوان ورأسي يدق فيه الطبل، رأيت الرعب في نظرات أحسن سائق للسيارات الكبيرة، لا أعرف ما الذي قاله حينما سرحتُ منه؟ لكن من المؤكد أنه قال كلامًا.

أعطاني ساعتي ونقود رفيقيَّ بدافع الجُبن، كان يريد فقط أن يهرب بجلده، فقد عطَّلتْ عودتي للحياة سريان الدم في دماغه، فَقَدَ أبو الخيزران كل الكلام دفعة واحدة، ومدَّ يده يطلب المساعدة، اقتربت

منـه بحرص، ما إن تلاقت يدانا حتـى جذبني بكل قوته ليحتل مكاني، ويجعلني أحتل مكانه، وقعتُ بدلًا منه عند الهوة التي يغطيها السحاب، تشبثتُ بصخرة وجدتها تحت أصابعي، انزلقتْ يدي وكادت أن تفلت، رأيته وهو يتجه صوب سـيارته جريًا، كانت قدماه سـليمتين ولا إصابة فـي ركبته، سـمعت هدير المحرك وأنا أتأمـل الجثتين، معلق بين حياة محتملة في يديَّ، وموت مؤكد أسفل قدميَّ.

تجاسرت وتشـبثت بالصخرة، حاولتُ تسلقها وأنا أفكر في زكريا وأبي، وأمي وصفية، وأشـباه بشر ربما رأيتهم ذات مرة، عندما أمكنني الابتعـاد عـن خطر السـقوط، وقفـت أقلب النقـود وأتفقَّـد الزمن في ساعتي.

ابتعـدت عـن رفيقي الرحلـة، كانت سـيارة أبي الخيـزران الكبيرة لا تـزال مرئية، ركضت خلفها بما تبقى لديَّ مـن جهد، قبل أن يبتلعها الثعبان الأسفلتي ركعت رافعًا رأسي، محاولًا فهم ما يحدث، انزلقت السيارة أمامي كنقطة زيت تذوب فوق سطح ساخن.

تأملت الجثتين لمدة أطول من اللازم، سحبتهما بعيدًا عن مخلفات الطريق، قررت أن أتركهما وأهرب بجلدي، لم تعجبني الفكرة بعد أن تصورتها، أجسـاد الرفاق، الجوارح، هياكل بيضاء ملقاة فوق الرمال، تسـرب الإرهـاق إلـى عظامـي، والخدر فـكك أوصالـي، قوافل نمل نشـطة انتشرت تحت جلدي، كانت لا تزال لديَّ بعض الهمة رغم كل ما حدث.

تذكرتُ مقولة الأستاذ سليم، الأرض يُرحل عنها لكنها لا ترحل.

2

ذبح أبو الخيزران دجاجتين كما وعدنا، وبقيتُ أنا.

بيديَّ العاريتين بدأت أحفر في الرمال، كانت الشمس على وشك المغيب عندما انتهيت من صنع الحفرة، وقبل أن أُهيل الرمال فوق الرفيقين صمتُّ تمامًا، أرهفت السمع ربما ألتقط نَفَسًا أو حشرجة، هُيئ إليَّ أنني سمعت همسًا، صفير الصحراء يعلو، ورائحة غريبة تنتشر بسبب الحر، كنت حريصًا على أن أؤخر ردم الوجهين.

بعد أن انتهيت من مهمتي التفتُّ إلى الطريق، مسحت وجهي من العرق والغبار، كنت أحاذي حافة الأسفلت، لا أعرف لماذا منحت الشريط الأسود كل تلك الثقة؟ تأملت حدود الرمال وكأنني أبحث عن يدٍ ستخرق الأرض وتمتد إليَّ بالعون، خوَذ صدئة ومِزق أقمشة تلعب بها الريح، خِرق ترف مثل رايات الاستسلام، قذفتُ كل ما قابلني ببوز حذائي، رجعت إلى الوراء خطوة، ثم نظرت خلفي ووقفتُ أقيس ما قطعته من الطريق، عندما لم أستطع حساب المسافة أكملت المسير.

بقايا أفكار غير مكتملة كانت تسير ورائي، تكاد تعطلني عن المشي، في البدء تجاهلتها، ثم استسلمت لها في النهاية، فكرت قليلًا ثم تلفتُّ يمينًا ويسارًا، قلت كلامًا بصوتٍ خفيض، لست أذكر شيئًا من الذي قلت، ضربت صدري بقبضتي وصرخت حتى جُرح زوري، كأن مسًّا أصابني.

"أنا مروان يمّا".

هدأت قليلًا قبل أن تعاود الاستغاثة الخروج من جوفي.

"لماذا اقتربتُ من هذا الحد؟ هل لعنة ترك الأرض بدأت تطاردني؟"

تعثرت قدماي وفقدت الطريق.

"لا بد أن تكون أكبر من رجل وأكثر من شجاع".

لا أعرف كم قطعتُ من الطريق سيرًا، فالسماء أفق ممتد دائمًا، والصحراء تشبه بعضها بعضًا، كأنني أسير لأعلى أو لأسفل، لكنني لا أتقدم خطوة واحدة للأمام، عندما هدني التعب وأصبحت بالكاد أرى تمددت فوق الرمال الساخنة، انزلق قرص الشمس ببطء كشعلة أرجوانية خلف الجبل، أغمضتُ عيني ووضعت كفي فوق صدري للتأكد من انتظام التنفس، فتحت عيني فتقافزت أمامي ألوان فاقعة وأصابت جفوني رقّة سريعة، وجوه أعرفها تكبر وتصغر أمامي، صور تُستعاد فتُشكل صورًا جديدة، فيما أخذ الظلام لسببٍ ما، يشتد.

لم تعبر سيارة واحدة الطريق، وكأن الأسفلت ليس حقيقيًا، مزيف مثل كل شيء يحدث من حولي، في البعيد، شُبّه لي أنني رأيتُ سيارة تقترب، بالكاد رفعت ذراعي أمامها، لم تهدئ من سرعتها، توقعت ألّا يعيرني السائقون أي اهتمام، فقد سمعت أبي كثيرًا يقول، عندما يتوغل الظلام ويجن الليل يكثر قطاع الطرق وحاملو القنابل، وينتشر في الصحراء المقاتلون الليليون، كائنات تقف بين الحقائق والخيالات،

فبعد أن يفجروا هدفهم يتحولون إلى أشباح، يقتسمون الغنائم بين بندقية عثمانلية ومرتينة فرنسية، يتكلمون بهدوء عن البارود والقنابل والأشلاء، وكأن القتل فعل اعتيادي، بل ومطلوب لتستمر الحياة.

هدَّني التعب تمامًا ولم يعد لديَّ ما أخسره، فمَن ذا الذي سينشغل بشخص هرب من مصيره المكتوب سلفًا؟ عيني مُجهدة، لا أرى أمامي إلا نبتًا شيطانيًا قصيرًا تهزه الريح، ذقته، كان مُرًا، بصقته وبصقت معه رغبتي في الطعام، تأملت شيئًا آخر أهم، نفيرًا يأتي من بعيد، هل تكون سيارة حقيقية هذه المرَّة؟ عينان مضيئتان عند ذيل شريط الأسفلت، هل سيتشجع سائقها ويقف رغم المخاطر؟ أشرت له، كانت أذناي مملوتين، ما زالتا، بدوي الخزان المكتوم، وصوت أبي قيس المرتجف.

توقفت السيارة التي رفعتُ ذراعي أمامها، نظرت إليها بإمعان، كانت أصغر قليلًا من سيارة أبي الخيزران، صندوقها مفتوح ومرصوص فيه براميل خشبية كثيرة الأضلاع.

طل من الشباك رأس، تأملته في غبشة الليل.

"ألا تأخذني معك إلى الكويت؟"

سمعتُ صوتًا يخرج من الرأس: "هذا ليس طريق الكويت، أنا ذاهب إلى الأردن".

غيرتُ وجهتي سريعًا، وقفت عند مقدمة السيارة.

"ألا تأخذني معك إلى أي مكان؟"

رد الرجل بعد أن ميَّل رأسه قليلًا خارج الشباك: "وهل تملك ثمن المغامرة؟"

ضربتُ يدي في جيبي وأخرجتُ ما به، النقود لا تزال محتفظة برائحة أبي الخيزران الذي لم يستحم منذ ألف عام. مددت ذراعيَّ في وجه الرجل بالساعة والنقود، ثم سحبتُ يدي بسرعة.

"أركبُ أولًا ".

قلت له فابتسم وضربتْ يده المقود، تأملتُ ملامحه الحجرية التي شققتها ريح الصحراء.

"لا ركوب قبل الدفع".

شُبه لي أن السيارة تتحرك، فأخذتُ أدق بكفي على جناحها.

"توقف، توقف، موافق".

مُدت يدي مرة أخرى، فابتلع الرأس النقود فقط وردّ الساعة.

"لا آخذ رهونات، فقط العُملة، اركب".

كانت واجهة السيارة مغبرة بما فيه الكفاية، حتى إن أقل لمسة للصاج تصنع خطوطًا ورسومًا، فتحتُ الباب وأدخلتُ رأسي أولًا، ثم رميت بما تبقى من جسدي الخَدِر فوق كرسي مهترئ الحشية، أبحث عن موطئ لقدمي بين زجاجات كثيرة فارغة ملقاة أسفل التابلوه،

الرأس الذي كان يكلمني نبت له جسـد متكـور ومنكفئ على المقود، ملتصـق بـه كأنه صار جزءًا منه، قال لي وهـو يضع النقود في صدريته: "هل هذا هو كل ما معك؟"

وأرد بسرعة: "والله كل ما معي".

ينتبـه الرجل إلى الطريـق، يضغط أكثر على دواسـة البنزين، فيعلو صوت المحرك، نظر إليَّ يتأملني، كان قد تخلى عن شيء من ريبته.

غيَّب الليل كل شـيء، كشافا السيارة الغابشان يضربان في الشريط الأسود فتعلوه لمعة مُخيفة، وعدا ذلك ظلام في ظلام، وأنا ما أزال بين الصحو وانقطاعات الأحلام، كل بضع دقائق أرى أسـعد وهو يحاول تسـلق جدران الخزان، وأسـمع أبا قيس يصرخ، المقـلاة المقلاة، في اللحظات التي كنتُ أسـتيقظ فيها قررتُ شـيئًا، الحي أبقى من الميت، والمِنَح الكبيرة لا تأتي مرتين.

أخذت السـيارة تترجرج حتى انفلق الظلام وبانت حدود الصحراء ومعالـم الأشـياء، وضحت تعرجات شـريط الأسـفلت كثعبان يتلوى في محيط أصفر، وأنا لسـتُ أعرف كم مرة استيقظت وكم مرة نمت، فـي آخـر مرة رف فيهـا جفناي رأيتها، لمـاذا تعلقين هذه السلسـلة في عنقـكِ دائمًـا يـا أمـي؟ لأتذكـر. لتتذكـري مـاذا؟ فـي نهاية السلسـلة رصاصـة مثقوبـة، أبوك لم يطلـق غيرها، تخيل، هل تتذكـر يا مروان؟ يوم أن استعار المرتينة من الريس حامد، اشتركتَ أنت وهو في إطلاق رصاصة واحدة، خلعتُ الفارغ عن جذع الزيتونة وثقبته بسِـن سكين، ورغم مرور السـنوات، فإن السلسـلة تجعلني أتحلى بالشـجاعة التي

أصبحتْ مطلوبة كل يوم، بل كل ساعة وكل دقيقة، توقفتْ عند نافذة صغيرة مفتوحة في الجدار، أخرجت السلسلة من رأسها وعلقتها في عنقي كالتميمة. خُذ، البسها اليوم، وعُد آخر النهار قُل لي ماذا تغير في يومك.

تبدل الصوت الذي كان يخرج مني بصوت آخر يدخل إليَّ. أنت غير مرئي يا مروان بعيون الكثيرين، إلا أمك، كانت ذات عينين واسعتين، ولديها شجاعة نادرة، وأنت مثلها يا ولد، لك عينان واسعتان، لكن الشجاعة لا تُورَّث.

لم أدرِ إلا ويد تهز كتفي، فتحتُ عيني وانتبهت إلى ثبات الطريق.

"هل تعطلت السيارة يا شيخ؟"

بدا السائق كالعالِم بجميع الأمور، ابتسم ابتسامة مهمومة ثم فتح باب السيارة، وقبل أن أفكر طويلًا قال لي: "لقد اقتربنا من نقطة التفتيش، يجب أن تختبئ في الصندوق، ستجد براميل كثيرة، اختر واحدًا، افتحه وادخل، لا تُحكم غلقه بعد أن تنزلق في قعره، شَرِّع غطاءه بكفك لتستطيع التنفس".

تركتُ مقعدي ولم أسأل كثيرًا، فقط تابعتُ انفعالات السائق ودققتُ جيدًا في كلامه.

"ثلاث دقائق ونجتاز الدورية، تحمَّل الرائحة وإلا فقدك أهلك للأبد، عندما نتوقف أمام نقطة التفتيش لا تهتز في البرميل، فأقل

عقاب سيصادرون السيارة، على أي حال، الرائحة بالداخل شهية، فسفينة الصحراء الحديدية هذه".

وجعل يضرب على المقود قبل أن يُكمل: "هي المسؤولة عن توريد المواد الغذائية إلى محلات الحاج سليم في الكويت، وحظك هذه المرة جاء مع براميل كانت منذ ساعات معبأة بالتوابل".

عندما نطق بكلمة "الكويت" قفز أخي زكريا إلى رأسي.

تقبّلتُ التعليمات وأنا سارح، لم أفكر كثيرًا في حل ألغاز الحياة، نفذتُ أوامر السائق كما يليق بهارب جبان، ماذا لو اكتشف رجال الدورية وجودي، كنتُ أفكر وأنا أكور نفسي على شكل جنين استعدادًا لدخول البرميل، أحيانًا يكون حضور الشر المتوقع أرحم من تأجيله.

بعد دقائق من عبور نقطة التفتيش توقفت السيارة مرة أخرى، خرج السائق من كابينة القيادة وأخذ ينادي: "افتح يا سمسم".

كررها ثلاثًا وهو يضرب على البراميل بكفه، رفعتُ الغطاء برأسي حتى تمكنتُ من رؤية الطريق.

"لماذا تأخرت في الخروج، هل أعجبتك الرائحة في بطن البرميل؟"

ضحك السائق فبانت أسنانه الصفراء، أخذ بيدي حتى قفزتُ من الصندوق إلى الأسفلت.

"لقد ناديت عليك ثلاث مرات، لماذا لم ترد؟"

رفعتُ ذيل قميصي ومسحت شيئًا علق في أذني.

"لم أسمع شيئًا".

"كان صوتي عاليًا، افتح يا سمسم، افتح يا سمسم".

قال السائق ثم عاود الضحك.

"ألا تعرف هذه القصة؟"

شعرت برغبة في حك جلدي.

"لا، لا أعرفها".

عدنا إلى الكابينة مرة أخرى، ودار المحرك..

"لا تتهرش كثيرًا، سيحمر جلدك وتقب فيه بثور تؤلمك عندما تتعرض للشمس".

امتثلتُ للتعليمات بشكل آلي.

"لم تقل لي حتى الآن، ما اسمك؟"

"أنا مروان".

بدأ يطمئن إليَّ بعدما عرف اسمي.

"من أين أنت يا مروان؟"

"أنا فلسطيني، فرَّ أجدادي من قريتهم قيسارية بعد أن أخذها اليهود في 48، ذهبوا إلى القرية التي ولدتُ فيها، جسر الزرقا، ثم فروا مرة أخرى إلى مخيم اسمه الوحدات على حدود الأردن، وأنت يا عم؟"

"اسـمي منصـور، أعمـل لـدى الحاج سـليم الكويتـي منذ ثلاث سـنوات، أنقـل للمحلات فـي البراميل كل مسـتلزمات الطعـام، بدءًا بمـا يمسـك الرمق، وحتى مـا يتخم البطـون، ألم تسـمع عن محلات الحاج سليم الكويتي من قبل؟"

سـرحتُ في الأسـفلت الذي يكر واللون الأصفر الـذي لا ينتهي: "لا، لم أسمع عنها، فقد كنت طالبًا في المدرسة منذ شهر واحد فقط، لا أعرف الكثير عن أمور الحياة، لا في الكويت ولا في الأردن ولا في أي مـكان، لا أعرف سـوى اللعب بالأعشـاب البحرية التـي يلقي بها الموج إلى الشـاطئ، يقول أبي إن بلدتنا ابتلعها البحر قديمًا، وابتلعتها إسـرائيل حديثًـا، وذات صباح جاءت كرَّاكة في حجـم القرش، قلَّبت المياه وأخرجتْ منها أشـياء عجيبة، قال الأسـتاذ سليم إن اسمها آثار، تُحـف مصنوعة من عاج إفريقي ورأس فسـقية منحوتة من رخام نادر، وتماثيـل حجريـة تلمع في الليـل على ضـوء النجوم، هكـذا قال لي، وعندمـا أنهى الحفارون عملهم تسـربوا واحدًا إثر آخر، اختفوا تمامًا، ثم ظهر خلف الكراكة مساومون جدد يلبسون البرنيطة والفراك".

كلما توغلت السـيارة في الطريق كان السـائق يتأملني أكثر، التفتُّ إليـه وقلـت دون ترتيب للكلام: "أنا أحب الحياة يا عم منصور، ولكن يبدو أن الحياة لا تحبني".

أخـذ السـائق المتدرب يضرب علـى المقود بكلتا يديه، يبتسـم ثم تتزحزح ابتسـامته قليلًا عن شفتيه.

"أنت تتكلم فوق ما تفقهه سِنك".

إجابة فلسفية في غير موضعها، تركت التركيز في ملامحه وبدأت اسرح.

"لقد صورتُ حياتي كما رأيتها في أحلامي، ترجمة للحظات جميلة لا تستمر طويلًا في دماغي، لكن أحلامي دائمًا لا تلامس المعنى الذي أنتظره يا عم منصور".

أنعشتْ نسمات الفجر شيئًا ما في خيال السائق، أخذ يضرب على مجلة القيادة بكفه، فلانت ملامحه الجامدة، التفت إليَّ وزاوية عينه تتابع الطريق.

"لديك عقل تفتَّح بالمدارس يا ولد، ويبدو أنك ستتعبني".

بدأت السيارة تتخذ سرعتها وتصنع الرحلة، شقَّت مساحات متسعة من الرمال، سهول ووهاد مفروشة بالصبار، شجيرات رمادية تغطي المنحدرات عند قوس الأرض البعيد، تستريح السيارة كل بضع ساعات في تعاريج جانبية مغطاة بالبازلت، كأنها كانت محطات قديمة للقوافل.

"وما الذي رماك في هذا الطريق المقطوع؟"

صوت السائق يبدد صمت الصحراء.

"حاولنا الهرب من البصرة".

تعبر السيارة منحدرًا طويلًا، صارت مثل ريشة وهي تنزلق، يحاول السائق السيطرة بالتشبث في المقود.

"وهل أنتم من العراق؟"

"لا، نحن من فلسطين. لكننا ذهبنا إلى البصرة لنتسلل منها إلى الكويت".

"ولماذا تركتم فلسطين؟"

لا أدري لماذا نظرت خلفي قبل أن أقول: "لنرتزق، مؤكد أنك تعرف ما يحدث هناك هذه الأيام".

ثم عاودت النظر إلى الخلف مرة أخرى.

"كنا ثلاثة، أبا قيس وأسعد وأنا، لم يبقَ إلا أنا".

تأمل السائق ملامحي جيدًا ومط رقبته: "هل قتلهما قاطعو الطريق؟"

"لا".

"هل افترستهما الكواسر؟"

"لا".

يوزع نظراته بين ملامحي والطريق: "هل حدثت خيانة؟"

"لا".

"كيف مات رفيقاك إذن؟"

"ماتوا بالخزان، كوكب قتلتهم".

حكَّ عمامته وشرد، كانت جبهته تتجعد كلما تأمل الطريق: "ومَن تكون كوكب هذه؟"

لستُ أدري، هل سيصدقني السائق إن قلت له إن رجلين قُتلا بسبب سيرة راقصة؟ صمتُّ ولم أرد، ثم أخذتُ أهذي فلا أذكر ماذا كنت أقول، لكني سمعتُ صوت السائق جيدًا: "يبدو أنك متعب من دوار الصحراء وقلة النوم، يجب أن ترتاح، بعد أن نصل لا تذهب إلى أي مكان، في مخزن البضاعة سأجعلك تنام نصف يوم، ثم بعد ذلك اذهب أينما شئت، فسأكون في طريقي إلى مصر".

كنت أفكر في أشياء غير مترابطة، ليس لها علاقة بكلام السائق، لكنني انتبهت فجأة وعلقت بذهني الكلمة الأخيرة التي نطق بها، ملبتها على جميع الأوجه "مصر" لقد جَرَت الكلمة كثيرًا على لسان الأستاذ سليم الذي كان مهووسًا بالجغرافيا، سمعتها منه عندما جلس بهرس الجبن بالطماطم في حوش المدرسة، كانت مهمتي تنحصر في إحضار الخبز المحمص الذي يُفضله الأستاذ سليم، فيرفع يده بقعر الرغيف ويسألني، هل تعرف هذه الخريطة؟ أتأمل اللقمة الجافة ولا أرد، يقول، هذه خريطة إفريقيا، إذا نسيتها فتذكر رأس الثور، أما هكذا، وجعل يقضم من قعر الرغيف، فقد أصبحت إيطاليا، إذا نسيتها فتذكر شكل الحذاء، ويظل الرغيف في يده يقلبه بين بلدان الكرة الأرضية كيفما يشاء، حتى قضم لي ذات مرة خريطة مصر، وقال، إذا نسيتها فتذكر الحنين.

بدأتُ أشعر بالأمان لأول مرة منذ بدأت الرحلة مع أبي الخيزران.

"وهل تعرف مصر يا عم منصور؟"

رفَّ جفناه وهو سارح في الملكوت.

"أعرفها؟ مصر هي بلدي يا مروان".

"أنت محظوظ، فأنا أسمع فقط عنها، ولكني أريد أن أعرفها، بالأدق، أتمنى ذلك".

التفت السائق إليَّ: "تأكدتُ من أنك لا تعرف شيئًا عن مصر حين لم تفهم حكاية علي بابا والأربعين حرامي".

"وأين تسكن في مصر يا عم منصور؟"

"في بولاق".

أخرج كيسًا من تحت الكرسي.

"التمر سُنة عن النبي، خذ".

رمى في حجري ملء كفه.

"غيّر ريقك، لكن لا تُكثر منه، ستعطش وليس لدينا ما يكفي من ماء".

أخذ واحدة ووضعها في فمه، ثم قال وهو يُخرج النواة دون أن أسأله: "نصف قرن أتمه فوق هذه الأرض بعد أيام، يا هووه، هل تتخيل؟!"

ارتبكت والتمرة في فمي.

"وأنا تسعة عشر".

التفت إليَّ الرجل، تأمل ملامحي ولم يرد، ألقيتُ نظرة للخلف لا معنى لها، كأنني أودع حياة انفلتت مني دون قصد، وأستقبل حياة أخرى لا أعرف عنها شيئًا.

"وأين تقع بولاق هذه؟"

توقفت يده عن دس التمر في فمه.

"في القاهرة يا ولدي، ألم أقل لك إنك ستتعبني؟"

بين الفلق والشروق أخذت نسمات باردة تتسلل إلى مفاصلي، وعم منصور يقود سيارته بشكل شبه آلي، لا يتحرك فيه سوى عينين تنفتحان وتنغلقان حسب اتجاه الريح وتقلبات الطريق، أخذ يدب فخذه السمينة بيده ليستفيق.

أصبح ضرب فخذه بكفه كالخلفية الموسيقية، تساعدني على الخدر والاسترخاء، فرُحتُ في نوم غير الذي أعرفه، فُتِحتْ نافذة تدور فيها أحداث رأيتها من قبل..

اجرِ يا مروان، طارد الثعلب، حاضر يا أمي، وإن لحقت به ماذا أفعل بعد ذلك؟ يا ولد، الثعلب خطف الدجاجة وجرى إلى طريق الزيتون، كانت تقص عشبًا بالمقص الياباني الحامي، يا أمي طريق الزيتون هو طريق السلامة، لا يا مروان، هو طريق موت وليس طريق سلام، والثعلب يحاول دائمًا خداعنا، دم ضحاياه يجري على أغصان الزيتون، ويريد منَّا أن نصدق مزاعمه، يأكل الدجاج الضعيف، لكنه يخاف من صوت الإنسان صاحب الحق، وهل أنا إنسان يا أمي؟ تشد

الحـزام جيـدًا على وسـطها وتُجـري أصابعها فوق رأسـي، وهل أنت عفريـت يا ولدي؟ عينـاك أطيب من عين عنزة وليـدة، خُذ حذرك، إن رفـع أمامـك غصن زيتـون لا تنخدع، فهـو في جميع الأحـوال مجرد ثعلـب، اجرِ، اجرِ. وأجري، أتابع أي شـيء يتحـرك، لا أرى إلا أوراقًا جافـة تخلق لها الريـح أقدامًا فتتنقل بخفة بين جذوع الأشـجار، أعود إلى أمي المنشغلة في حبس ما بقي من دجاج حتى أقبض على السفاح الذي يخاف من الإنسان، لم أجد يا أمي إلا كلبًا صغيرًا، أذنيه طويلتين وذيلـه من الفرو، يا عبيط هذا هو الثعلب، لكنه لم يكن يأكل دجاجتنا، بيدهـا التي تقبض على جناحي فرخ صغير ضربتني برفق على ظهري، مـا لونـه؟ أحمر وفمه أبيـض يا أمي، تضـع الدجاجة في القـن وتُغلقه جيدًا، تحشـر خشـبة في الرزة وتختبر متانتها فتدقُّها بحجر، والمقص اليابانـي لا يطاوعها في قص العشـب، تلومه أولًا ثم تكيل له السـباب وتُلقـه بجـوار القن، تنتبـه إليَّ، أريدك أن تعرف شـيئًا مهمًّـا يا مروان، رغم أن العِرسـة تمشـي والحدأة تطير فغرضهما واحد، سرقة طيورنا، هـذه هي الحقيقة، مهما كذبوا، وأنت تقول كلامًا غريبًا، فالذي خطف دجاجتنا لم يكن ثعلبًا أحمر، بل كان بلون الصحراء، تسحب مقشة بيد طويلة من سباط النخل، تحملها على كتفها وتمشي أمامي كالمغاوير، أتبعهـا وأنا أفكر في قـدرات الثعلب الأحمر، منـذ دقائق كانت جميع الثعالب تتسـاوى لديَّ، ماذا سنفعل لو هرب من حقل الزيتون يا أمي؟ سـنتعقبه في الأغوار، فكلما شـعر بأننا نطارده سـيبتعد، ولن يعود مرة أخـرى، هل سـنطارد الثعلب الأحمـر أم الآخر الذي بلـون الصحراء يا أمـي؟ تـدب الأرض فيغـوص حذاؤهـا فـي الطيـن، فـي فلسـطين

يا مروان اختلطت علينا الثعالب، مَن يهينك أو يقلل من كرامتك اقطع رأسه ولا تفكر كثيرًا، عندما نصلُ إلى الحقل ترفع أمي المقشة في الهواء، اذهب إلى هناك يا مروان، وأنا سأتابع مروره من هنا، إن رأيت شيئًا يتحرك اصرخ، ستجدني أمامك مستعدة لشطر أي شيء إلى نصفين، وأتحسس الأرض الندية، أقدم خطوة وأؤخر خطوتين، ثم أصرخ، فأرى المقشة فوق رأسي، تلتقط أمي أنفاسها عندما تسمع صوتي، وجدت الدجاجة، لم يأكلها الثعلب يا أمي، وقبل أن أكمل الجملة هجم علينا قطيع من الثعالب الحمراء، كل منها يحمل فرعًا من الزيتون في فمه، الفخ يا مروان، اجرِ، اجرِ. وأجري فلا أجد للحقل نهاية، الشجر يكر من أمامي كالخيط ولا يأتي سور البيت أبدًا، اجرِ. اجرِ.

وأستيقظ فلا أعرف في أي عالم أنا..

مرة أخرى يغيب السائق والطريق، وأذهب سريعًا إلى هناك، يوم أن اجتمعنا كالعصابة فوق مقعد الأسمنت الكبير، ورسم لنا أبو الخيزران خطة الهروب كاملة، عندما أقسم بشرفه إنه صادق في كلامه، فقلت له إن الأمور تمضي بشكل أفضل حين لا يُقسم المرء بشرفه، وسألته لكي أطمئن، هل أنت متأكد، لا توجد مياه في الخزان الذي ستُهربنا فيه؟ انفجر النحيف ضاحكًا وضرب فخذه التي تشبه الماسورة بكفه، ماذا تعتقد؟ هل أنا مُهرب أم مُعلم سباحة؟ لا تقلق، فالخطة في رأسي جاهزة لنصل إلى الكويت بسلام، ويهدد أبا قيس بإلغاء الصفقة، وأقول له، يا عم، الشرط أخو الرضا، والاتفاق يلزمه صبر، بعد قليل

يهـدأ الجميع، يسـتعيد كل من أفـراد العصابة مكانـه ومكانته، تتراجع الذكورة المُلحَّة، فيعلو صوت الفِصال وتشتد المساومة، ونعود لرسم الخطة من جديد.

العالم كله أصبح مليئًا بالخطط.

3

رفَّ جفنـاي عندمـا توقفـت السـيارة، غامـت رؤيتي قليـلًا، ولمَّا وضحـت الأشـياء فـي عينـي لم أجـد السـائق بجـواري، رأيـتُ بيوتًا محدودة تحيط بالسـيارة مـن كل اتجاه، وكأننا صرنـا في قلب ميدان، التفتُّ خلفي فلمحت عم منصور ينزل البراميل الخشـبية عن صندوق السيارة، هرولتُ باتجاهه: "هل هذه هي مصر؟"

ابتسم وهو يرفع عباءته التي كان يضعها بجواره.

"نحن في الأردن يا ولدي، هل تريد أن تبتلع دولتين مرة واحدة؟ هذا هو مخزن سيارات محلات الحاج سليم، هيَّا".

قال ثم أخذ يطبل على كروش البراميل الفارغة.

"احملها معي وأدخلها".

لم تكن البراميل ثقيلة كما يتوهم مَن يرى شكلها الضخم، دحرجتها إلى مخزن كبير له قبة عالية من الصاج المعرج.

بعـد أن تمـم على الاثني عشـر برميلًا جلس معي حـول طاولة في مقهى صغير خلف المخزن.

"هل زرت بلدانًا من قبل غير بلدك يا مروان؟"

نقرت الطاولة الألومنيوم بأظافري.

"حتـى بلـدي لم أعرفه، فقـط البيت والمدرسـة والجلوس قرب البحر".

صفق عم منصور وطلب شايًا.

"هل تريد أن تعمل بالسواقة؟"

فاجأني بالسؤال فلم أجد ردًا: "وهل يمكن أن أعمل بالسواقة أطال الله عمرك؟"

"يمكنك إن أردت ذلك".

يتذوق الشاي ويحدد الطعم، يهرش تحت عمامته البيضاء.

"لا تتعجل، في مثل سِنك كنتُ أريد أن ألفَّ العالم كله حول إصبعي، ستعرف كل شيء في حينه".

تراخيتُ في الكرسي، وأحسست بثقل فوق جفني، أفقت عندما أمسك بكفي وسحبني خارج المقهى الصغير.

"حصيرة الصيف واسعة، الآن لا بد أن تأخذ حصة وافرة من النوم، فلدينا غدًا سفر طويل".

"إلى أين سنذهب؟"

نظر تجاه سيارته.

"إلى البيت".

سبقته إلى السيارة.

"هل سنذهب إلى مصر؟"

يهندم عباءته فوق كتفيه ويتأكد من وجود محفظته في جيبه.

"يا ولدي هذا موعد إجازتي، عشـرة أيام كل شهر، وفجر السبت بعد القادم سنعود إلى عملنا".

سحبت يدي من يده.

"هل قلت سنعود؟"

أخرج علبة دخانه وأشعل منها واحدة.

"ألا تريد أن تعمل معي يا مروان؟ لقد أرسلك الله لي، أنبتك في الصحراء من أجلي".

اقترب مني وأراح ذراعه فوق كتفي في أبوّة.

"أنـت منحـة من السـماء جاءت فـي الوقت المناسـب يا ولدي، خذ".

صـوت النقـود المعدنية فـوق الطاولـة الألومنيوم له وقـع معلوم، وفوق المعدن بعض الفلوس الورقية.

"ما هذا يا عم منصور؟"

"نقودك التي أعطيتها لي ثمنًا للتوصيل، فقد تغيرت الصفقة بيننا، سـأعلمك قيادة السيارات لتسـاعدني، وصنعة في اليد تحميك من مد يدك لخلق الله".

أخذت أبحث عن رد مناسب.

"وماذا ستستفيد أنت عندما تُعلمني قيادة السيارات؟"

أسند يده الكبيرة فوق كتفي مرة أخرى.

"سأربح مساعدًا لا يتركني أبدًا مثلما يفعل أولاد الحرام".

فكرتُ في الكلام دون أن تقرب أصابعي النقود، وزنتُ الأمر بيني وبين نفسي، ما الذي يجعلني أفكر في العودة؟ فبسبب نقاط التفتيش الممتدة عبر كل الحدود ربما لا أصل سالمًا إلى قريتي، ما المانع إذن؟ لأجرب ورزقي على مَن لا تنقطع موارده.

"موافق يا عم منصور ولكنني لن آخذ النقود".

رفع العُملة المعدنية وأسقطها فوق الطاولة الألومنيوم، كان الصوت يغريه لاستكمال الحديث.

"هذا شرطي يا مروان".

مددتُ يدي ببطء وجمعت الأوراق النقدية والقطع المعدنية، لوحت وهي في قبضتي.

"وأنا أيضًا لي شرط".

ألقى عم منصور بعقب سيجارته تحت قدمه ودهسه.

"تشترط عليَّ وقد انتشلتك من أنياب الذئاب وسيوف قُطَّاع الطرق؟"

جعلت ألفُّ حوله وأنا أنظر إلى الأرض: "يمكنك أن تعتبره مطلبًا وحيدًا، عندما أتعلم القيادة تتركني أعود إلى قريتي وقتما أشاء، أرجو ألا تغضب، فلا أحد يشعر بنفسه الحقيقية إلا في مسقط رأسه، كانت أمي تقول إن لكل إنسان علاقة كبيرة مع المكان الذي سقط فيه رأسه".

أشـعل سـيجارة أخرى، فكر في العقبة التي وضعتهـا أمامه، فربما لم تكن هذه هي الخطة كما رتبها في رأسـه، لكنه قَبِلَ الشـرط على أي حال.

قضيتُ ليلتي كأنـي نصف ميـت، غائب عـن الدنيا، أتجـادل مع شـخصيات كثيرة وأرى مواقف مشتتة، بدني هامد عن الحركة ومخي لا يستطيع ربط الأحداث أو التفكير.

بعد أن فرشـت الشـمس نورها ونارهـا، وعند الخـط الفاصل بين حـدود العَمار وبدايـة الصحراء، عبّأ عم منصور شـنطة كبيـرة بالمؤن الغذائيـة، ومـلأ جميـع الزجاجات الفارغـة بالماء النظيـف، وزجاجة واحدة بالبنزين، عندما سألته عنها قال: "هذه أهم زجاجة، فدائمًا نفكر في المولوتوف عندما تنشـق الأرض عن قطاع الطرق، نشـعلها ونلقي بها فتنفجر".

عادت السيارة تغوص في شريط الأسفلت الذي لا ينتهي.

كان المحرك يتوقف عن الدوران عندما تمتلئ مثانة أحدنا أو كلينا، وذات نزول، وقف كل منَّا خلف تل رملي وفك سرواله، بعد أن انتهى عم منصور من إفراغ مثانته لم يجدني، بحث عني خلف التلال القريبة، كنتُ أراه ولا أسـتطيع الكلام، وقف بالقرب من سـيارته وظل يعوي: "مرواان، أين ذهبت يا ولد؟"

سمعته جيدًا ولكني لم أسـتطع تحريك لساني، شيء داخل حلقي ربطه.

قفز في صندوق السيارة، ثم اعتلى الكابينة وأخذ ينظر إلى الأفق رافعًا كفه فوق ناصيته.

كنتُ قد انتهيت قبله فتركته وابتعدت قليلًا، انشغلت بتفقد جبَّانة نصف مهدمة، ألواح كثيرة منقوشة تفرش الأرض، مكتوب عليها بحَفر غائر معلومات عن المتوفى وأهله، كنتُ أقرأ الكلمات باهتمام كأنني واقع تحت تأثير سحر، إسطفان بتريك ذو الشعر الأصفر، وعلى حجر آخر، توفيت جوليا كونيرس في المهجر بعد أن أخذوا قصرها وزوجها، وعلى حجر آخر، صعد بمجد الروح القدس سعيد يوحنا، عندما مددت بصري لمحتُ أطلال بيت قديم، داخله حجارة صوّان وخارجه رمال ولا شيء غير ذلك.

وصل إليَّ عم منصور في الوقت المناسب، قال إن لديه معرفة مسبقة بنداهة الصحراء، تأكد من أنها كادت تسحبني عندما رأى عيني حمراء وشفتي جافتين ولساني متلعثمًا يخلط الكلام.

"ماذا حدث لك يا مروان؟ انطق يا ولد".

لم أرد، فاقترب مني وأخذ يربت كتفي.

"احمد الله يا ولدي، فلو لم أمد إليك يدي في اللحظة المناسبة، كانت الرمال ستسحبك بعيدًا عن العَمار وتتوه في الوديان، تمامًا مثل الأربعين نبيًّا الذين غاصوا بين ممرات الجبال أربعين سنة ولم يُعثر لهم على أثر".

ركبنا السيارة وبدأ المحرك في الدوران من جديد، حكى عم منصور بحكم العادة عن مغامرات الطريق، رحلاته الطويلة التي قطعها عبر الصحراء، وسيارته التي دهست ذئابًا وجرابيع وسناجب، سألته هربًا من التصورات التي لا تنقطع.

"كم سيستغرق الطريق؟"

"أقل من يومين ونصبح على مشارف القاهرة".

بدأت أطمئن وأستسلم لخيالات الليل، حكت لي أمي ذات حصاد زيتوني أن خالها كان صاحب تجارة يعيش في القاهرة أيام الخديوِ، ينقل اللبان والبخور والصموغ والتوابل من غزة إلى شرق المتوسط، وأن رحلاته كانت تقطع الطريق الغربي حتى يصل إلى كازابلانكا.

"أين تقع كازابلانكا هذه يا عم منصور؟"

ينتبه القائد من سرحانه المتقطع.

"لا أعرف يا ولدي، فبلاد الله أوسع من الخيال".

متاعب الطريق كلها حلَّت في لحظة، الجلوس في الكابينة لعشرات الساعات فكك أوصالي، كنت أرى شريط الأسفلت كحبل أسود يتلوى في الهواء صاعدًا إلى السحاب، أغمض عيني كل بضع دقائق وأروح في دنيا غير الدنيا، ذات غفلة أطبقت علينا الأشباح، وقبل أن أفتح عيني رمت عصابة متدربة جذع شجرة أمام السيارة، قطعوا علينا الطريق ثم قفز أفرادها مبتعدين عن شريط الأسفلت، أنبت

الظلام رجالًا لا تتضح أعدادهم أو أحجامهم، هددونا بما يحملون من سيوف يلعب بها الضوء الضعيف، نزل عم منصور رافعًا يديه، وأثناء تركيزه في تحديد المهاجمين وتدبير خطة للهروب، أشعلتُ النار في فتيلة المولوتوف وألقيت بها أمام حملة السيوف، وقعت الزجاجة على الأرض وانفجرت، ارتبك أفراد العصابة وتوقف الجزء الخاص بالتصرف في أدمغتهم، في هذه اللحظات جرى عم منصور وقفز في السيارة، وبأقصى ما فيه من قوة ضغط على دواسة السرعة، لمحته بطرف عيني فتعلقتُ بجناح السيارة وقفزتُ في الصندوق.

لم أعد متأكدًا من شيء، هل حدث ذلك حقًّا أم أن كل ما يحدث لي مكتوب في الأحلام؟

كنتُ أتلعثم كثيرًا بسبب شرودي، بين قيسارية وجسر الزرقا ومخيم الوحدات، ثمة حياة أخرى تحتضر وتغيب بداخلي.

هبَّت ريح تدفع أمامها تصورات جديدة، وتترك خلفها ذكريات لا يمكنها الانتظار لوقت آخر، الذكريات لا تُعمِّر الجيوب، هكذا كان يكرر أبو الخيزران، وكان يقول أيضًا، "هل تتصورون؟! هذه الكيلو مترات أشبهها بالصراط الذي وعد الله خلقه أن يسيروا عليه قبل أن يجري توزيعهم بين الجنة والنار، فمَن سقط عن الصراط ذهب إلى النار، ومَن اجتازه وصل إلى الجنة، أما الملائكة فهم رجال الحدود".

"أبا الخيزران، يلعن أصلك".

اعتدل عم منصور في جلسته عندما خرج إليه صوتي من غياهب الغفو وسأل: "ما الذي جعلكم تثقون بالمُهرِّب إلى هذا الحد؟"

أخذت أتذكر القصة كأنها حدثت لشخص آخر غيري: "قال لنا إنه أكثر شخص في الدنيا يعرف منافذ البصرة، حي الأصمعي وشارع الجزائر، من العباسية إلى الرميلة، قال بثقة يُحسد عليها، سنسقط رأسًا إلى منطقة الزبير، وبانعطافة بسيطة في الصحراء سنجد أنفسنا زاحفين إلى الجهرة، وبهذا، نكون في الكويت، الخطة بسيطة، لكنها تحتاج إلى قلب لا يهاب الشمس أو رجال الحدود".

تاه الطريق عن عيني ولم أعد أشعر إلا بوخز متقطع، أستيقظ لأستمع إلى كلمة أو جملة ثم أروح في غياهب بعيدة لا تدركها الأبصار..

رأيتُ أبي يحمل فوق كتفه صندوقًا كبيرًا، قال إنه سيرسل إلينا أخبار العالم دون جهد منَّا، وتسأله أمي، ما اسم هذه المصيبة يا يحيى؟ فيلبس، يرد عليها وهو يحاول ضبط الصوت، ترهف أمي السمع، يُخرج الصندوق وشيشًا كالذي نسمعه عند قلي البلطي، أيام طويلة وأمي تجلس لتستمع إلى السيد فيلبس، كان يتكلم كأنه أصبح واحدًا من العائلة، وترد عليه أمي أحيانًا وكأنه واحد من العائلة أيضًا، يا سيد فيلبس، أنا لا أصدقك حينما تقول إن صاحب الدفتر لم يصادر الأراضي التي لها أصحاب، لا أصدقك يا سيد فيلبس حينما تقول إن الأمم المتحدة تناشد دولة إسرائيل تهدئة الوضع مع الفلسطينيين، فلماذا إسرائيل دولة ونحن مجرد "فلسطينيين"؟ أنت تكذب يا سيد

فيلبس، رفعت المجرفة وهمَّتْ بتهشيمه، لا أعرف لماذا تراجعتْ؟ نظرتْ إليَّ ويديها مرتفعتين لأعلى عزم ممكن، ثم هوت بها على الأرض، قالت، اقرأ هذه الكلمات المحفورة عليه، made in Netherlands يا ولد يا مفعوص لا تعوج لسانك، تكلم عربي، صُنع في هولندا يمّا، ألقت بالمجرفة بعيدًا، أخاف أن أقرأ ذات يوم الكلمات المحفورة على السيد فيلبس فنجدها صُنع في إسرائيل، أنا لا أريد هذا الاختراع الشيطاني، ارموه بعيدًا، فكل الأصوات التي بداخله تعمل لصالح إسحاق رابين.

هزني عم منصور، قال وهو يشير بذراعه خارج السيارة.

"بعد خمس ساعات سنصل إلى منطقة الجفارة".

أغفو ثم أسمع الصوت نفسه.

"آه يا ولد لو أننا في نهاية الخريف، كنت سترى أسراب السمان وهي تغطي السماء، منظر لا تملك عندما تتأمله إلا أن تقول سبحان خالق الملكوت".

غفو متقطع تتوه فيه الكلمات، ثم يعاود الصوت قطع صفير الريح.

"وهذا الجبل اسمه حوريب".

كلما رف جفني رأيت صورًا مختلفة لأشياء تبدو خيالية، قلاعًا بائدة مهدمة، خرائب ممتدة وجبالًا تحرسها، تعاريش متهالكة وآبارًا قديمة، ينبسط كل ذلك فوق رمال حمراء كأنها محروقة، رعاة

غنم يسـيرون فـي التيه خلف قطعان تعطيها الشـمس لونًـا ذهبيًا، آخر ما التقطت أذني كانت هذه الجملة.

"جبل المغارة يا مروان".

طنَّت الكلمات في رأسـي كالطبل، لكنني كنت قد استسلمتُ كليًا للسلطان.

القاهرة1967

4

وصلت بنا سفينة الصحراء الحديدية إلى بولاق، باعة بطول الشارع يفترشون الأرض، وجائلون لا يتوقفون عن السعي، تعاريش ممتدة تصنع ظلالًا تتناثر فيها بقع نور، أغلب البيوت من دور واحد، دهانها مقشر كلوحة قديمة قيد الترميم، وعربات حديدية ذات مقبضين وعجلة واحدة تطقطق في أيدي صِبْية يدفعونها باتجاه السوق، توقفت السيارة أمام بيت مبنيّ من دبش ومُسقف بعروق كافور وفلوق نخل، مشدود في أعلاه خيوط تتأرجح فيها زينة ورقية ذابلة.

اقتربنا من باب البيت ورأسي مثقل بالأفكار، لماذا يقابلني الموت كثيرًا في هذه الحياة، هل لأنني فلسطيني، أم لأنني خُلِقتُ في عصر يسهل فيه الموت؟

دق صاحب البيت بابه دقتين، ثم وقف يتلفت في البعيد، كانت امرأة في عباءة سوداء تشير إليه، تجاهلها وأكمل الطرق، ثم أخرج من جيبه مفتاحًا ووضعه في الثقب الكبير فانفتح الباب، كانت تقف خلفه صبيّة تحمل طفلًا نائمًا في حرير أزرق، ما إن رأتني حتى سحبت شالًا

خفيفًا على رأسها ثم استدارت، كانت بعض ثياب معلقة على حبل في آخر عمق للبيت، خطفتها الفتاة بخفة وغاصت إلى حيث أتت.

التفت عم منصور إليَّ وابتسم: "ابنتي مريم، لا تغضب منها، فهي لا تصافح الغرباء".

قال ثم ذهب ليغتسل، تخرج مريم من غرفتها ببطء، تنظر إليَّ من بعيد، ولا أجد في فمي سوى كلمة واحدة "أهلا".

قلتُها وأنا أهز رأسي عندما رأيتها تبتعد عند حافة الكنبة.

"شيء جميل أن ترعي أخاكِ بكل هذا القدر من الاهتمام. ما اسمه؟"

تقترب إلى منتصف الكنبة.

"لا تحشر أنفك فيما لا يعنيك، أنت مجرد ضيف سقط فوق رءوسنا على غفلة، سنحشو معدتك بالطعام، ثم تمضي لحال سبيلك".

قفزت قطة بيضاء في حجرها، رفعتها لأعلى وظلتْ تلاعبها.

أخذتُ أهز قدمي بتوتر حتى خرج عم منصور والماء يقطر من كوعيه: "قم يا بطل واغتسل، المياه في هذا الجو منعشة، قبس من جنة رضوان والله".

تركت الكنبة ولم تترك عيني مريم، تأملتُ قطعة اللحم المتوترة في حجرها، استرجعت ما قالته، حاولت أن أجد مبررًا لتلك الطريقة الجافة التي حدثتني بها، فلم أجد.

خلعت ملابسي ووقفت تحت الدوش، العودة إلى الجسد تعطي العقل هُدنة، عندما غمرني الماء تراخت أعصابي وشعرت برغبة كبيرة في النوم، ثقل رأسي، أغمضت عيني، دفق المياه تطاير قطعًا فضية في حجم العُملة تروح وتجيء.

خرجت بعد قليل أصفف شعري بأصابعي وأتأمل المكان بشكل أوضح، دراجة قديمة منغرسة في الطين، كرسي جلدي دوّار، أجزاء منثورة من آلات مفككة.

غابت مريم وهي طفلة بضفيرة واحدة وملامح سرعان ما تلاشت، فقد عادت بعد قليل وهي حريصة على وضع شال فوق رأسها كالنساء الكبيرات، احترت في أمر ذلك الطفل الذي تحمله على ذراعيها في رواحها ومجيئها.

جلستْ فوق كرسي خشبي صغير، وضعتْ إناءً لا يبين غطاؤه المُحكم محتواه، نار الكانون مشتعلة والدخان يتصاعد من الإناء، كانت تمسك عصا غليظة تقلب بها النار كلما خبت، تمسح عينها بطرف جلبابها حين تدمع، كل بضع دقائق تلتفت إلى الخلف، برهة سريعة ثم تعود إلى إنائها ودخانها.

جلسنا جميعًا إلى المائدة، كان بخار الحساء لا يزال يتصاعد من الأطباق الفخار، ورائحة الطعام البيتي فواحة.

"تفضل يا مروان، وهل تحتاج إلى عزومة؟ لماذا لا تأكل من صحنك؟ كان أبي يقول، ما يقابلك أصغر منك كُلهُ، جعلتني الصحراء لا أمانع في أكل أي شيء يتحرك، حتى ولو كان فأرًا جبليًا".

يضحك عم منصور وأتبعه بابتسامة خفيفة، أما مريم فيبدو أنها سمعت هذا الكلام من قبل.

بعد الانتهاء من الطعام قام ليغسل يديه، وبقيت أنا أكمل تأمل البيت، كنت أقارنه لا إراديًا ببيوت فلسطين، سألتني مريم: "هل مروان هذا هو اسمك الحقيقي؟"

وأرد عليها بالحدَّة التي حدثتني بها من قبل: "أخبرتني أمي بذلك عندما كانت تناديني به".

غيرتْ وضعية الطفل في حجرها أولًا ثم قالت: "أغلب الناس لهم وجهان، وغالبًا يكون لهم اسمان أيضًا".

ركزتْ أكثر في ملامحي، لا أعرف لماذا تلعثمتُ: "اسمي مروان، ولا أعرف شيئًا غير ذلك".

سحبتُ شهيقًا عميقًا وعاودت السؤال: "ومَن يكون هذا الطفل الذي تحملينه؟"

تُقرب رأسها منّي، صوتها بالكاد يُسمع: "هل تريد الصدق؟"

أقرب رأسي من رأسها، تبتسم وتُضيء عيناها بلمعة نابهة: "كل مَن عرفوا الحقيقة ذهبوا بغير رجعة، وأنا أتمنى أن تذهب مثلهم، لكن دون أن تعرف شيئًا".

خرج أبوها بعد أن غسل يديه، فعدت للحديث بصوتٍ عالٍ.

"جميل بيتكم يا عم منصور".

يبتسم وينظر إلى ابنته، يأخذ منها الولد.

"الشاي يا أم سالم".

تتركنا مريم، وأقترب من عم منصور.

"هل هذا الرضيع ابن هذه الطفلة؟"

يهز رأسه بالإيجاب دون كلام، لكن السؤال كان لا يزال يعوي بداخلي.

"لا يمكن استيعاب ذلك يا عم منصور".

وينفعل المُضيف قليلًا: "كل ما في الأمر، أن مريم تستاء عندما تستمع إلى حكايتها تروى أكثر من مرة".

يزداد عواء السؤال في صدري: "وهل لمريم حكاية، ومَن الذي رواها أكثر من مرة حتى يضايقها ذلك؟"

يبعد وجهه عني وينفعل:

"يا ولدي، مريم تزوجت منذ سنتين وانفصلت لأن كل شيء نصيب، هذا كل ما في الأمر، فهناك مواضيع ليس فيها ثم ماذا بعد، هي أشياء تحدث فقط، فالحياة ليست تمثيلية إذاعية حتى يصبح هناك سبب لكل ما يحدث، الحياة الحقيقية مختلفة يا ولدي، مختلفة تمامًا".

همد جسدي واسترخت الأفكار في رأسي، لم تخرج القعدة بعد الطعام عن شرب شاي أسود مع كعك عتيق وابتسامة المُضيف الشيخ،

تأملت البيت جيدًا بعد أن امتلأت معدتي وهمد بدني، الصالة تضيئها فتحة مربعة في السقف، أسفلها سلم خشبي للصعود والنزول، الضوء العمودي الذي يكشف المكان دليل على خواء السطح من المباني، في المواجهة هيكل سيارة ينغرس في الأرض، يقوم بوظيفة حظيرة للطيور، تقفز حوله بعض أفراخ صغيرة، يكثر الطين حولها كأرض حديثة الحرث. وفي ركن خالٍ تمامًا منضدة غريبة الشكل، فوقها ترقد ماكنة خياطة سوداء ماركة سنجر، تبدو من الأغبرة التي تغطيها أن أحدًا لم يمسسها منذ زمن.

دخل عم منصور غرفته وترك بابها مواربًا، اقتربت من السلم الخشبي الذي يؤدي مهمة الصعود، أريد أن أرى بولاق من السطح، طلعت درجتين، لويت عنقي وأنا أنظر باتجاه فتحة السقف، فلم أرَ إلا الفراغ وسُحبًا تمشي بطيئة في السماء، عند نزولي اصطدمت بمريم، بالأدق، دهست قدمها، فجذبت جلبابها بغيظ: "أنت لا تقدر المسافات بينك وبين الآخرين، ثم مَن الذي سمح لك بصعود سلم لا نلمسه إلا قدماي؟"

قلت وأنا أتفحص قدمها بعيني: "ربما لم أنتبه، أنا آسف".

كانت مريم تنظر نظرات حمامة، متوترة ولحظية، كأن شيئًا ما يروعها، ترمي من يدها حبات كانت تنثرها فوق رءوس الطيور.

"ألم نقم بواجبنا تجاهك؟ هيا، أرنا عرض أكتافك، ولا تقل إنك ستمضي عندما يأذن لك أبي، فالرجال لا يطردون الرجال، النساء فقط يمكنهن ذلك".

تجاهلت كلماتها، لم أتوقف طويلًا أمام وصف نفسها بـ "النساء"، تركت مجالها واتجهت إلى صاحب البيت الذي كان سارحًا في الملكوت.

"إلى أين ذهبت يا عم منصور؟"

يهز ذراعه المعلقة فوق ركبته، كان سارحًا في دنيا الله، بجواره كوب الشاي وبين أصابعه عقب سيجارة.

"لماذا تعاملني مريم بهذا الجفاء؟".

سرعان ما اعتدل وأخذ يشرح وجهة نظره بحماس:

"أسباب كثيرة جعلت مريم تنفر منك بهذا الشكل، ولمَ لا؟ فبين حين وآخر كنتُ أدخل عليها ساحبًا في يدي طالب قُرب جديدًا، وبعد أن تتحدث إليه خمس دقائق لا أكثر، تدخل وتتربس الباب على نفسها، فأعرف أنها لا تريده، ومع تكرار زيارات طالبي القُرب ضاقت روحها بمجرد التفكير في الأمر، وهي ربما، أقول ربما، اعتبرتك أحد العرسان".

كنت لا أريد أن أُكمل الكلام في هذ الأمر.

اقتربتُ من مكنة الخياطة وأسندت ظهري إليها، أثناء خروج مريم من غرفتها رأتني، فاعترضت على ذلك بلهجة عنيفة.

"هذه مكنة ماما أمل، لا يلمسها الغرباء".

أسحب بإصبعي خطًّا من الغبار المتراكم فوقها فأغيظها أكثر.

"هـذه قطعـة حديد خـردة، أراهنـكِ أنها لا تسـتطيع حياكة غرزة واحدة في ثوب".

عندما حاولت لفَّ إطارها القابض على السـير لم يتحرك.

"ألم أقل لكِ؟"

يقترب منَّا عم منصور، كان يتابع حوارنا من بعيد.

"كل أنواع المكن يطول عمره بالعمل، تمامًا كالسـيارة، وماما أمل جارتنا، أهدتها لمريم بعد وفاة أمها".

جعلـت كلمات عم منصور الجو مشـحونًا بأسـى، وأنـا لا أريد أن يزيدني أحد من الحزن بيتًا، فما حدث في رحلتي يكفي.

تقرفـص فوق حشـيته القـش فلحقت به، كان يبحث عن شـيء في صدريته، ويتكلم كأنه لا يوجه كلامه لأحد.

"وأنا في مثل عمرك كانت البنات تتسرب إلى كل ما أراه وأسمعه وأشمه".

يُخرج علبته، يضرب على قعرها ويشعل منها واحدة، يتبدد الدخان فيخرج الكلام.

"كنـت حينها في التاسـعة عشـر، قال أبي لا دواء لهـذا المجنون إلا الزواج، وستمنحه زوجته التوبة".

تبادلنـا الحكايـات والضحكات، أما مريم فكانـت دائمة النظر إلى الحريـرة التـي في حِجرهـا. خرجنا وجلسـنا فوق مقعد أسـمنتي أمام

الباب، أضـواء الفوانيس المعلقـة في أعمدة الكريتـال أخذتني بعيدًا، يتحسـس عم منصور جيوبه باحثًا عن علبة دخانه فلا يجدها، خطوتان للداخل، يظفر بها ويخرج، يفرك السـيجارة بين أصابعه، يُنعِّم التبغ ثم تلتقط شـفتاه الفلتر، يترك عود الثقاب مشـتعلًا ويظـل ينظر إليه، يتابع الدخان الطائر كأنه يستخلص منه الكلمات.

"فكك السـفر الطويل مفاصلي وييس أوصالي".

عندمـا أنهـى سـيجارته بـدأت أعمـدة الإنـارة فـي الشـارع تصنع أمواجًا برتقاليـة خافتة، الأضواء الضعيفة لا تقوى على توضيح معالم الشارع.

"هيـا ندخـل يا ولدي فلدينا غدًا عمل طويـل، نَمْ جيدًا حتى تنتبه معي إلى الطريق".

ينشط مُضيفي قليلًا عندما يشد جسده من الجاذبية الأرضية وينجح في الوقوف.

"هـا، ألا تريـد أن تصبـح سـائقًا للسـيارات الكبيـرة مثـل أبـي الخيزران؟"

أفعص عيني فيتضاعف عدد كل ما أراه.

"أود أن أصبح مثلك أنت يا عم منصور".

في تلك اللحظـات كانت الأرض خصبة، فألقى ببعض بذوره بعد أن سرى الدم مجددًا في رأسه.

"هذا هو التفكير السليم، السواقة مهنة لا تبطل أبدًا، فلا يمكن أن تتحرك السيارات دون قائد، المحترف فيها مطلوب دائمًا، هذه المهنة لن يدهسها الزمن مثلما حدث مع السقا وقصاص الأثر وبائع الثلج، أؤكد لك يا مروان، لن تجد أفضل مني ليعلمك فنون الفتيس ومهارات الطريق".

وقفت وأنا أشد صدري.

"أريد أن نبدأ من الليلة".

"وهل يجري أحد وراءنا يا ولدي؟ ساعات ويطلع الفجر ونور ...ما ينكشف".

دخلنا، في الظلام تتشعب الأفكار، أضواء البيت جميعها مُطفأة، ...ط بصيص من عُقب الباب، وبقعة صغيرة تحدد كوة السقف وحدود السلم، كان ضوء السيجارة وحده يدل على موقع صاحبها، جمرتها ...مكس ظلًّا أحمر في عينيه، الذراع تتحرك والفم ينفث الدخان والرأس يفكر، ظلت الصور تتقافز أمامي في الظلام، حتى سمعت ...اهة ضعيفة، لسعت زهرة السيجارة أنف عم منصور، فألقى العُقب ...جواره، دهسه بالمداس ونام.

اختلطت الصور في دماغي، بين ما عشته هناك وما أعيشه هُنا، ...عرت بأن خدرًا يثقل رأسي ويزيد من قدرة الجاذبية الأرضية على ...دي لأسفل، أو بالأدق ينزع رأسي وحده ويلقي به بعيدًا، فيتهاوى ...سدي من دون رأس، تخُفت الجلبة في دماغي، أغيب كليًا عن سيل

الـكلام وتتابع الصور، يترك لي عم منصور فرشـته، أغيب عن العالم، كنتُ نصف مستيقظ أحارب الغفو، وكأن كل ما يحدث لي أمر خيالي لا وجود له، لوهلة، شـعرت بأن أسـعد سيهز كتفي ويقول، لقد وصلنا إلـى الكويت، ويقفز السـائق صاحب العمود الفقـري المرن ليفتح لنا الخـزان، فيطقطـق أبو قيس عظامه ويحمد الله على سـلامة الوصول، لكنـي تأكـدت عندمـا فتحت عينـي أنني أصبحـتُ وحدي فـي مكان آخر.

دار رأسـي قليـلًا، تراخت أعصابـي وأنا أفكر في الناس والأشـياء الذيـن امتزجـوا في خليـط واحـد، فركت عينـي فتداخلـت الأطياف وتمايلت الجدران، قدماي تركلان ما تبقى من الليل وعيناي تجاهدان لاسـتقبال الصبـاح الجديد، أما رأسـي، وحـدهُ، فقد راح فـي دنيا غير الدنيا..

سـأتزوجكِ يا صفية عندما نحصـد الزيتون، أنت تكذب يا مروان، فقد رأيت السـلالم الخشبية القصيرة تدخل إلى أرض أبيك، والصبيان يضربون الشـجيرات بالعصي ويعبئون المحصول في القفف، أنا أقول لـكِ الصدق يـا صفية، فلا بد أن ينقـد التجار أبي الثمن حتى أسـتطيع التحـدث إليه في أمـر الزواج، والتجـارة تحتاج إلى الصبـر حتى ينال جميـع الأطراف حقوقهم، ولـو أنكِ تريدين معرفة مـا حدث بالضبط فقـد أخبـرتُ أمي بالأمر، أمي هي سـندي الكبير يا صفية، لا يسـتريح رأسـي إلا عندمـا يرقد فـي حِجرهـا، أفاتحها فـي كل هواجسـي وأنا أنظـر إليهـا، تتلاقى أعيننـا بالمقلوب ورغم ذلك تفهمني وتشـعر بي،

لا أستطيع بأي حال أن أحدث أبي وأنا نائم في حجره، بل لا أستطيع أن أحدثه وأنا أنظر إليه أصلًا، ولو عرف ما بيننا يا صفية لا بد سيقول بوجهه الجامد "شو جنّيت يا ولد؟ هلّق الزواج خطر على متل سنك"، اما أمي فأستحسن كلامها الذي لا أعرف من أين تأتي به، يا مروان، عندما يجري الموسي على وجهك سيتغير دمك كله، ستتسرب فيه ضحكات البنات، وعندما أحدثها عنكِ تقول، نهار الهنا، ستحتاج لشراء أرض تشيد عليها بيتًا، تسقفه بعروق الزان، ونشق لك شجرتين لتفصيل السرير والدولاب، ثم يزف الأستاذ سليم عروسك فوق ..اجته وهي تعلق في رقبتها حبل الورد، وأسألها، هل سيوافق أبي؟ ءتقول، وما الذي يجعله لا يوافق؟ حِل مشكلاتك الأخرى ودَع ا..اك لي، أنتِ باين عليكِ ما بتعرفي أبي منيح، أنت اللي باين عليك ما بتعرف أبو صفية منيح، "معنى كلامك أن أمك موافقة يا مروان؟ والعقبة في أبي؟ أنا شو بعرف أحكي معه وأقنعه. لكن أمك شو تسوي معنا؟" أمي؟ آه يا صفية، كانت تريد أن تزوجني منذ أول مرة حدثتها عنكِ، أشوف أولادك قبل أن أموت، يكفي أنني لم أرَ ظفرًا من ذرية زكريا، قالت إنها ستبيع الحَلق من أجلي.

لكن.. لكن ماذا يا مروان؟

بعدما تزوج أبي من شفيقة ذات الساق الواحدة وترك بيتنا انقلب حال أمي، لم تعد منشغلة إلا بتوفير الحليب وخزين الحبوب، وما عادت شو بتحكي لي برومانسية مثلما كانت، فعندما تأزمت الحال ذهبت إلى أبي، كنت أريد التحدث معه عن رغبتي في خطبتكِ، لكن

هناك شـيء كالفقاعة ملأ رأسـي، كنت بدي أتطلع في شـفيقة، زوجته التـي فضلهـا على أمـي، صوَّرها خيالي امـرأة لها قرنـان يخرجان من رأسـها كالشـياطين، تمامًا مثل رسـوم الكتب التي تأتي إلينا مُهرَّبة في مراكـب الصيد عن طريـق البحر، بدينـة بملامح كبيرة، وجهها أسـود ملـيء بالحُفـر، وذلك لكـي تصبح لـديَّ فُرصة للوم أبـي، كيف تترك المـلاك، التـي هـي أمـي، وتتـزوج من هـذه الزكيبـة؟ ولكننـي عندما زرتهمـا يا صفية تبدد كل ذلك، كانا مجتمعين حول براد شـاي منعنع، وأمامهما لحم مسـتوٍ على نار خشب الزيتون، المرأة التي تطبخ طعامًا شـهيًّا سـتجد أرضًـا مشـتركة مع الرجـال، كانـت أمي تقـول، دخلت فرأيتُ شـفيقة جالسـة على بسـاط من جلد الماعز، والعكاز مُلقى إلى جانبهـا، فكرتُ، تُرى أين تنتهي فخذها؟ كان وجهها مليحًا، لكنه حاد الملامـح، مثل وجـوه كل أولئك المرضى الذين لا يُرجى لهم شـفاء، دائمًا شـفتها السـفلى مُقوسة كأنها على وشـك أن تبكي، لكنها عندما تفتح فمها تقول كلامًا حُلوًا، كم كانت تصوراتي ساذجة، فقد نسجتُها كلهـا خوفًا من أن تصبح أمي وحيـدة وحزينة، كما أردتُ أيضًا الهرب من التفكير في المصير الغامض لإخوتي.

لكنني رأيت شـفيقة أخرى غير التي شـكَّلها خيالـي، امرأة جميلة ولديهـا مـزارع زيتون ضعف مـا يملكه أبـي، ورأيته بجوارهـا متوردًا كشـاب في العشـرين، زاد وزنه وابيضت بشـرته ونضرت ملامحه، لم أعـرف حينئذ، هل أقـول الحقيقة لأمـي أم أكذب عليهـا، حدثتها عن عيـوب البضاعة فقط وأخفيت محاسـنها، قلت إنها بدينة ولم أقل إنها

بيضـاء، قلت إنهـا فاقدة لإحدى قدميهـا ولـم أقل إنها تجـري بالعكاز الخشبي أنشط من كل نساء جسر الزرقا، قلت إنها خرساء ولم أقل إن كلامها القليل مثل البلسـم، لم أسـتطع يا صفية أن أبوح بكل ما رأيت، قلتُ فقط ما تصورت أنه يريح أمي ويطمئنها، لكنني عرفت من نظراتها أنهـا كانت تفهم كل شـيء، قالـت، لقد أصبحتُ مثل شـجرة عتيقة لا تطـرح ثمرًا، لكنها ربما تسـتطيع منحكم ظلًّا في هـذه الحياة، وظلت تعدد وهي تخرط بصلة، وأخي متكوم في حجرها، "يا راعي يا سـارح الغنمـات عالدلعونة، شـجرات السـرو وزهـر الليمونـة، عالدلعونة، وغريب يا ولدي راح نترحم على اللي يزورونا".

تاه سبب الدموع المنسابة في الإناء يا صفية، هل من تقطيع البصل أم مـن هوان النفس، تأملتُ صحنًا كان مُعدًّا لي، حبوب الفول فيه أقل مـن مائه وقشـوره، لـم أذقه، بل عدت إلـى أبي لأنقل إليـه حال البيت الذي تركه، وعندما دخلتُ قالت لي شفيقة، أنا أعرف علَّتك يا مروان، سـأزوجك ممَّـن تحـب فور بيـع المحصـول، كيف سَـرتْ قصة حبنا وأصبحتْ مشاعًا للجميع في بلدتنا الصغيرة؟ قالت أيضًا إنها فاتحت أبي الـذي كان يقف على بُعـد خطوات، هز رأسـه مؤكـدًا على كلام زوجتـه الجديـدة، هذا هو ما حـدث يا صفية، والله هـذا ما حدث. أنا لن أنتظر يا مروان أن تحنو علينا زوجة أبيك الجديدة، ولأفرض معك أنهـا أوفت بوعدها، وسـاعدتنا على الزواج، فهل سـتصرف بعد ذلك علـى البيت؟ لا بـد أن تعمل في وظيفة أو تفتح مشـروعًا، وأي شـيء

غير ذلك مقدور عليه، لا يا صفية، لا بد أن أتم دراستي قبل كل شيء، حتى أكون مثل الأستاذ سليم، أرتدي البدلة وأطوف البلد بالدراجة وأرسم الخرائط في رأسي، لو خرجت من المدرسة فلن يكون أمامي إلا المهن المرهقة التي لا يؤخذ الإنسان منها إلا إلى القبر، فلن أظل طوال عمري أشد الدوبارة في فتيل الشمع عند أبي العباس الشماع، ولن أسعى لذوبان يدي في الطمي الأحمر لأُنعّم القلل والطواجن عند صلاح الدين الفخراني، إذن ليس أمامك يا مروان إلا السفر إلى الكويت، أو تنساني إلى الأبد، لكن يا صفية..

وأسمع صوتًا يكبر بداخلي كأنه ضرب الطبل.

دائمًا يا مروان تشعر بالذنب، وكأنك نسيت أن تفعل شيئًا ما.

5

في الصباح وقف عم منصور أمام السيارة، يعاين بعض الإيصالات الملونة في محفظته، ويخاطبني، كنتُ شاردًا.

"ما دمت قد قررت أن تصبح سائقًا فلا بد أن تنصت لما سأقول، من قيادة السيارات يعتمد على أخلاق السائق، فهذه المهنة تختلف من جميع المهن، أنت لا تبيع ولا تشتري، لكنك تتعامل مع الطريق، ل بضع دقائق يأخذك هذا الصندوق إلى مكان مختلف، وذلك يتطلب ..ك خفة ومهارة، أما فن الفتيس والدواسات فأسهل منه لن تجد".

مجرد أن انتهى من التعليمات انكفأتُ على المقود، دورته يمينًا ، يسارًا بفرح غامر. ضغط عم منصور على بعض الأزرار في التابلوه ؛دة مرات، أخذ يحدثني وكأنه يعرفني منذ سنوات بعيدة:

"تمنيت لو أن لمريم أخًا، استرد الله وديعته الكبيرة، أمها، حتى قابلْتَني منذ أيام في التيه، كان من الممكن أن أنطلق بسيارتي ، أنجاهلك، فكم من المرات توقفت قاصدًا الخير لأشخاص ثم سرقوني وهددوني بالقتل إن فتحت سيرتهم في نقطة التفتيش".

"وما الذي جعلك تقف لي؟"

"توسمتُ فيك ابنًا لم أنجبه، كأنك كنت داخل رأسي قبل أن تُخلق اللحظة التي رأيتك فيها، وعندما فتحتَ باب السيارة، شعرت بأنني مثل ضارب عود توصل إلى نغمة صحيحة ظل يبحث عنها طويلًا".

لم تعطني كلمات عم منصور فُسحة لكي أفكر فيما كنت منشغلًا به منذ قليل، تبدل إحساسي بالكلمات والأشياء على ضوء ما قاله مُضيفي الشيخ، ورأيت أن الفرصة متاحة لأسأل عما أردت من البداية.

"لقد قلت لي بالأمس يا عم منصور إن موضوع مريم لا يوجد فيه ثم ماذا بعد، وهل يوجد موضوع في الدنيا ليس فيه ثم ماذا بعد غير قضية فلسطين؟"

"لا تقلب المواجع يا مروان، دعنا نركز في أهمية الفتيس لحركة السيارة، وما دمت تريد شيئًا فلا تيأس من تكرار المحاولة حتى تتعلمه، هذا الغيار الأول للسرعة، أما الغيار الثاني فللخلف، هكذا، هل انتبهت للحركة؟"

"وهل والد الطفل ابن مريم من أقاربكم؟"

لم يتحدث عم منصور إلا في الموضوع الذي يريده، يشير بذراعه إلى ثقب المفتاح.

"تُدوِّر المحرك أولًا، ثم تضغط على دواسة الدبرياج، وتنقل بعد ذلك الغيارات بالترتيب عن طريق هذه العصا".

فتحت الباب وتركت مكان القيادة، ذهبت باتجاه الباب الآخر وفتحته.

"قُدْ أنت يا عم منصور، وأنا سأتابعك".

جلس في مكانه الطبيعي، دور المحرك وانطلق بالسيارة، أغرته رؤية الطريق يُطوى تحت العجلات ببعض الفضفضة.

"أنت تعرف يا ولدي مهنتي، كلَّمتك عنها من قبل، أغيب عشرين يومًا وأحضر عشرة، وأترك مريم وحدها، كانت طفلة في الرابعة عشرة، وبالطبع تحتاج إلى بعض المساعدات من الجيران، أوصيت عليها رجلًا توسمت فيه الصلاح والتقوى، خلدون، وقد كان بالفعل كذلك، رجلًا لا تترك المسبحة يده، وفمه دائمًا معطر بذكر الله، لكن ما توليه الأهمية في هذه الحياة غالبًا لا يكون هو ما يستحق التركيز، كان الرجل بالفعل يلبي طلباتها أثناء غيابي، وكنت أدفع له ما يصرفه بالمليم، استمرت الأمور منتظمة على هذه الحال لسنة أو أكثر، حتى جاء يوم مرض فيه خلدون، وأنا، كنت في الكويت، قالت لي مريم في تليفون أدهم البقال إن دور مرض شديد أصابه ولم يعد يستطيع القيام من سريره، فأرسل ابنه أمير بديلًا عنه ليلبي طلبات مريم.. هل انتبهت لحركة الفتيس وتحكمه في السرعة، أم أنك سرحت مني؟"

"القيادة يمكن أن أتعلمها في أي وقت يا عم منصور، غدًا أو بعد غد، ها، ثم ماذا حدث بعد أن ذهب أمير ليلبي طلبات مريم؟"

"هناك تفاصيل لا يُفضل حكيها يا مروان، تكون معروفة من تلقاء نفسها، لذلك، يُستحسن حذف بعض الأجزاء حتى نصل لما يمكن قوله".

لم أرد، أخذت الخيالات تسرح بي، فأكمل عم منصور:

"بعد أن عقدنا جلسة حضرها الكبار في بولاق، وكان على رأسهم خلدون، قررنا أن يعقد أمير على مريم وهذا أضعف الإيمان، كان ولدًا مغرورًا وفاشلًا، طبق مقولة يخلق من ظهر العالم فاسد بحذافيرها".

فسألته:

"وأين أمها، أم مريم؟"

تنهَّد وزفر.

"منذ ثلاث سنوات أصابتها حُمى غريبة، احمر جلدها وقب فيه شيء يشبه قشر السمك، اعتادت الصياح لأسباب غير معروفة لنا، وكانت دائمًا تشتكي من التهاب في المفاصل وألم في الصدر، بدأت تفقد شعرها وأسنانها وبعض صوابها، رقدت شهرين في المستشفى وأسبوعًا في البيت، في المرة الأخيرة شالها الجيران ووضعوها في صندوق السيارة، طرت بها إلى مستشفى الحميات الذي يعالج مثل هذه الحالات، بعد يومين أرسلوا إلينا لنستلمها، أثناء استلامها شعرتُ بالعالم كله يهوي فوق رأسي".

"هل حملتموها في هذه السيارة؟"

عندما سألته رفع عم منصور يمناه عن المقود ليشيح بها.

"أغلق لنا هذه السيرة الله يرضى عنك".

يشعل واحدة أخرى، لا أعرف العلاقة بين رؤية دخان السجائر ومحبة الحكي.

"وأنا في ضِعف عمرك تقريبًا كنتُ أعمل لدى صاحب فرن بلدي في السبتية، أنقل أجولة الدقيق من المطاحن إلى المخبز، لكنني تركت العمل معه دون أن أعثر على عمل جديد".

"هل كان الأجر غير مناسب؟"

"لا يا مروان، على العكس، كان يعطيني أكثر مما أستحق".

"ولماذا تركته إذن؟"

ينفخ الدخان لأعلى ببطء قبل أن يقول:

"كنا قد انتهينا من توريد الأجولة المطلوبة للمخبز، فرأيته يهمس لي ذات فجر، إن رأيت جوالًا يمشي أمامك فلا تُذع الخبر لأحد، بعد أيام عرفت أن الموضوع أكبر من مجرد سرقة جوالي دقيق، تركت العمل معه، ثم عرفني أولاد الحلال طريق الحاج سليم الكويتي، وها أنا أعمل معه منذ أن نبت للأجولة أقدام".

انقضى بعد ذلك ما تبقى من يومنا في الكلام عن الحديد وعلاقته بالإنسان، وكيف سخَّر الله لنا هذا الجماد.

في المرات الأولى التي حاولت فيها تحريك السيارة توقفت مني، لست أذكر كم مرة تعطلت، لكنني أذكر صبر مُعلمي عليّ، أثناء عودتنا إلى البيت، كنت أجلس خلف المقود، أما يد عم منصور فمتأهبة المقبض على فرامل اليد في أي لحظة.

الأيام التالية قضيتها في تعلم القيادة والبيات في باحة البيت، لم أستطع استبعاد مريم عن خيالات الصحو وأحلام المنام، ما كان يرويه

النوم هو ما أفكر به طوال النهار، يكبلني شيء غير واضح الملامح، لم أقتنع أنني أحيا بشكل كامل، وكأن جزءًا مات فيَّ عندما تركت رفيقيَّ، كأني هربت من شيء كان يجب أن أستسلم له.

وذات ليلة كنت فيها نصف نائم، غير قادر على كبح الهذيان، رأيت أبي وهو يضع يده على كتف أمي في حنان، هناك في بيتنا المطل على البحر، خُيل إليَّ أنه قبَّلها من جبينها، قال لها وهما جسد واحد برأسين، إنها مثل فلسطين لا تهون إلا على أولاد الحرام، كان ذلك قبل أسابيع قليلة من زواجه غير نادم من شفيقة، تتزوج على أمي وتجيب لها ضُرَّة يا أبي؟ بيتها أكبر يا ولد، ولديها عدد به أصفار كثيرة من أشجار الزيتون، وأنا، أعرف حجمي جيدًا، لذلك أريد فقط أن أعيش الحياة لا أن أتفلسف، فمهما علا شأني لن أصبح الميجور البريطاني، وهانت عليك أمي يا أبي، لا أعرف حتى الآن ماذا فعلتُ؟ كانت امرأة فلسطينية عادية لا تعرف الميجور البريطاني، تقوم ثورتها الصناعية كل فجر، تملح لحومها وتخزن صفائح الدهن، تجفف التين وتعمله سبحة، تُعبئ زيتها وزيتونها في البراميل لتضمن لنا طمأنينة العيش، تصنع زبدها وترقع الأحذية، تسلخ الخراف وتأخذ فراءها الذهبية وتدبغها بنفسها قبل بيعها، تصنع المغارف من خشب الزيتون وتغزل أحزمتها الحريرية في مدخل الدار، ستة مسامير مدقوقة في الحائط وأصابعها، هذه هي كل عدتها، تقضي الليل وهي تصنع الخبز بالحلبة واليانسون في فرنها الطيني حتى مطلع الفجر، تربي الدجاج وتُسمِّد شجيرات الزيتون بفضلات الطير والحيوان. بعد بياتك يا أبي

في حضن المرأة الغريبة تركتُ البيت أنا الآخر، سامحينا يمّا، فقد أصبح الخونة ثلاثة، زكريا وأبي وأنا.

أخذتُ أهذي بلا صوت، لن أستطيع العودة إلى جسر الزرقا، سيسألونني عن رفيقيّ، لن ترحمني زوجة أبي قيس، ولا أم أسعد، ستظل سيرة الموت ملاصقة لي حتى أموت مثلهما، لا يمكنني العودة أبدًا، أبدًا.. تخرج معي بعض الكلمات من النوم، وتلتقط أذن عم منصور الحشرجة في حلقي، يهز كتفي، "مروان، اصْحَ يا ولدي، فلدينا أشغال أكبر من اليوم".

اغتسلت وأكلت قرصة عجوة من فوق الطاولة، كان عم منصور يصب كوبي شاي، تناولناهما وخرجنا قبل أن تفرش الشمس الشوارع، شعرت في تلك اللحظات، أن البُعد الحقيقي للسماء يتسع، وأنني سأهوي داخل قماشها الذي يكتسب زُرقة البحر، تمنيت لو أغيب قليلًا بين تموجات السحب، وأختفي.

كنت أقضي يومي كأنني في غفوة طويلة، كل شيء يصبح مألوفًا بالاعتياد، فكرت وأنا أفتح باب السيارة، سأصبح قائدًا للمركبات الكبيرة، هذا مجرد كلام، فشنك فشنك مثلما تقول أمي، فلست أعرف كيف سأعيش في هذا البلد الكبير، تجذبني دائمًا الأشياء التي تُسهل لي الهرب وتُصوِّر إمكانية الرجوع، فأعود سريعًا إلى عالمي الصغير الذي بدأ وعيي في تشكيله عام 1957، عندما كنتُ في التاسعة، رأيت للمرة الأولى الرجل صاحب الملابس العسكرية والبندقية، والذي بدَّل ملابسه وأصبح فيما بعد صاحب الدفتر، يتفاوض على كل أرض

تراها عينه، وقد كنت رغم صغر سني، أشعر أن شيئًا مهمًّا سينفلت مني، وكأنني في المستقبل سوف أسبح ضد سيل هادر ينحدر من جبل شديد العلو، أسمع كلمات كبيرة لا أفهمها، تأميم قناة السويس، مهاجرين، لاجئين، مستوطنات، وكالة غوث تُقيم لنا وحدات سكنية إضافية في مخيم أسموه الوحدات.

عندما بدأت أستوعب هذه التراكيب المعقدة تأكدتُ من المعادلة الصعبة، أن مأساة فرد أو مجموعة أفراد تجلب التعاطف معها، لكن عندما يعيش الجميع المأساة نفسها فلن يشعر بها أحد.

أخذت أخترق المشهد بكتفي وذراعي وساقي، يجرني التيار خطوات إلى الوراء، فأعود وأتقدم بشيء من الخوف، مثل حيوان طريد يشق طريقًا مستحيلًا في دغل كثيف ومتشابك، عندما كان الرجل الغريب يرتدي الملابس الحربية ويحمل بندقية، رأيت دخان القنابل وزخات الرصاص، تمتزج أصواتها بالصراخ وهدير البحر، وسمعت رفيفًا، زحف الخطوات الضائعة وضرب المجاديف لسطح الموج، وعندما تبدَّلت البندقية بالقلم والدفتر، لم أعد أسمع صوت الرصاص ولا دوي القنابل، بل أسمع كلامًا، وبعد الكلام بدأت أرض أبي في النقصان، وظهرتْ طوابير لا تنتهي من اللاجئين، أغلبهم من الأطفال، رأيت رجلًا غريبًا يعلق ابتسامة ثابتة فوق ملامحه وهو يناولنا العلب والأكياس، يتحرك أمامنا كالشبح، ونحن نتدافع بلا صوت، وترتطم الصفائح التي نحملها ببعضها البعض فتصدر رنينًا، كأن العالم كله يغطس في حوض زجاجي ويختفي، الرجل الذي كان يوزع الهدايا

بمسك حديدة لها سلك طويل، صوتها مشوش وعالٍ، فننصتُ لصوته، أمضى السيد فلان رأس السنة وهو يجمع ألعابًا للأطفال، وستقوم السيدة حرمه مع نخبة من سيدات المجتمع بتوزيع اللعب عليكم، ستوضع الألعاب في علب من الورق المقوى حتى تصير مفاجأة لكم، كل واحد وحظه، ما كان مطلوبًا منَّا أن نبتسم ونحن نأخذ هدايانا، فالكاميرات ستلتقط لنا الصور، والصليب الأحمر سيُحضر مفاجآت أخرى، سلموني علبتي فقبضت عليها، كان فيها حساء عدس، بكيت عندما لم أجد لعبتي، يد كبيرة ربتت كتفي، قال صاحبها، حظك حلو يا ولد، فاللعب لا تؤكل، أما العدس فيدفئ في هذا الجو، وفي العيد الكبير سأجلب لك لعبة من مصر.

كان العرق يتصبب باردًا على جبيني وأنا أتململ في كابينة السيارة، فيشوش سؤال عابر طرحته لأهرب من أفكار المخيمات.

"لماذا لم تحدثني يا عم منصور عن خلدون وابنه كثيرًا؟"

كان يحمل في يده فانوسًا صغيرًا يضيء بالزيت، فتح غطاء الموتور وعلق الفانوس، أخذ يتأمل بعض الأسلاك المتشابكة في السيارة، نسي ما أراد التأكد منه، أطال في فحص غطاء الرادياتير وتحديد منسوب المياه الذي يكفي، يهرب من الإجابة ولا يريد فتح الموضوع مجددًا، ربما أحس أنني مهتم بمريم أكثر من خلدون وابنه.

خلع الفانوس وأعاده إلى صندوق السيارة، أغلق غطاء الموتور ثم دخل إلى كابينة القيادة، اعتدل فوق كرسيه وشد ذراعيه على المقود.

"خلـدون رجـل يعرف ربنا كمـا قلت لك من قبل يـا مروان، كنا أصدقـاء قبـل أن تضحـك له الدنيـا وتضربنـي أنا على عينـي، دخلت معـه كثيرًا في جمعيات، ولـم يتأخر أبدًا في الدفع، فالرجال لا يُعرفون إلا عندمـا تطلب منهم النقود، دائمًا المشـاكل تجـيء وقت الدفع، لو كنـت رئيـس المحكمة لأعطيته نيشـانًا، فنصـف المشـاكل التي تقوم بيـن الناس ويجب أن تذهب إلـى المحكمة لم تكن تذهب، بل يحلها خلـدون في جلسـات وديـة، فتنتهي النزاعـات بدورَيْ شـاي وبعض التعهدات وكتابة ورقة يضربها في جيبه عند نهاية القعدة".

في تلك اللحظات كنت أفكر في شيء آخر.

"وابنه؟ حدثني عن ابنه أمير".

تأمل ملامحي كأنه يراني لأول مرة قبل أن يرد:

"ابنه كان نتنًا، لا يتردد في أن يقتل من أجل قرشـين يشـتري بهما المخدرات".

استغرقتُ وقتًا طويلًا قبل أن أطرح عليه هذا السؤال.

"وهل لا يزال زوجها؟ أم أن.."

جاءتْ إجابته سريعة كالسهم.

"لا يا مروان، فبعد أن عقد عليها بأيام أجبرتُه على تطليقها".

ثم صمت وتأمل الأفق كأنه يراقب شيئًا ما سيحدث في السماء.

"أصبحت مريم تحمل لقبين أكبر كثيرًا من السـنين السـت عشرة التي عمرتْها في هذه الحياة، أُم ومُطلقة".

بعد أن قطعت السيارة مسافة طويلة التفت إلى القائد.

"إلى أين سنذهب يا عم منصور؟"

كان شاردًا في أمور الحياة الأخرى.

"ذاهبان لأجل أكل العيش يا ولدي".

"ألم تقل إنك سترتاح يومين، هل تعمل أيضًا في فترة الإجازة؟"

خرجت السيارة من زحام القاهرة إلى رحابة الطريق الزراعي.

"وهل هناك راحة في هذه الدنيا؟ إجازة، ما هي إلا كلمات نتبادلها لتريحنا، هل نأخذ إجازة من الطعام أو التفكير أو النوم؟"

تأملتُ شريط الأسفلت وسألتُ:

"إلى أين نحن ذاهبان؟"

"دائمًا يا ولدي الشرط أخو الرضا، وقد قلت للحاج سليم الكويتي إنني سأتحمل البنزين وثمن ما يتلف من قطع الغيار أثناء تواجدي في مصر، ومقابل ذلك سأشغل السيارة في بعض أعمال نقل بسيطة بالقرب من بيتي، ابتسم الحاج سليم وقال لي، أنت رجل محترم يا منصور، وعندما سألته عن سبب كلامه هذا، قال إن أغلب السائقين يفعلون ذلك، لكنهم لا يقولون".

انتفخ صدره بالهواء في فخر، وأخذ ينقر المقود على نغم أغنية لا أعرفها، وتتحرك شفتاه بلا صوت.

بعـد مسيرة طويلـة توقفت السـيارة أمـام مصنع تعلـوه المداخن، قابلنـا عند الباب رجل أخذ منه بعض الأوراق، ثم أشـار بيده إلى باب آخـر، عاد عم منصور إلى الكابينـة ودوّر المحرك، أمتار قليلة وتوقف مـرة أخرى، انفتحت أمامه بوابـة كبيرة على المصراعين، فضبط القائد مؤخرة سـيارته لتستقبل البضاعة بسـهولة، ألقى بعض العمال بكراتين مغلفـة فـي الصنـدوق، تمـم عليها بحشـر إصبعه بيـن العبـوات، الله واحـد، مـا له ثانـي، العدد ثلاثة.. خمسـون، مئـة، تمام، يشـد الحبال ويغلـق الصندوق، يعود إلـى الكابينة ويدور المحرك، تنطلق السـيارة إلى أسفلت الطريق الزراعي مرة أخرى، يتبدد مشهد المصنع بمداخنه من رأسي كالحلم.

يسرح عم منصور في أمور تخصه، يقول كلامًا كأنه مُنوّم، يدور في رأسـه كيفما شاء، أي والله كيفما شـاء، يلفظه لسانه بطريقة غريبة أثناء القيادة.. زوَّجتكَ ابنتي مريم، على صداق قدره مئة جنيه، كله مؤجل؟ كله مؤجل، زوَّجتك ابنتي، كله مؤجل؟ نعم، فالعريس مجرد شـخص نتـن خان الأمانة، الصداق المسـمى، زوجتك ابنتـي، ليت أمكِ كانت بيننا يا مريم، فهي أكثر تماسـكًا مِنّي، المسمى بيننا، مئة من الجنيهات، كلـه مؤجل؟ كله مؤجل. العيون تأكل ظهري وأنا جالس أمام الشـيخ، اسكت يا رجل، ولا أسكت، هل عريس ابنتك رجل يشرِّف؟ وأكذب، نعم، سـأرضى نعم، عريس ابنتي لا يتردد في أن يعطيك لحم رقبته إن طلبـت، وبيني وبين نفسـي أعـرف الحقيقة، أعرف أنـه لا يتردد في أن يبيع سرواله بقرشين، وربما ينتج النتن جنينًا، تنجب مريم بنتًا أو ولدًا،

فتـرس الحياة الكبير لا يتوقف عن الدوران، يا سـعاد، سـتصبح ابنتكِ المفعوصـة أمًّـا لابن أو ابنة هذا النذل، مريم؟ نعـم مريم، طارت أمكِ وتركتنـي على الأرض بلا جناحين، تبخرتْ، تخففت من ذنوبها لأنها لم تُعمّر طويلًا، صعدت سـريعًا وتركتني أتقـوس تحت أثقال الحياة. المسمى بيننا، كله مؤجل؟ نعم يا مولانا.

"حاسب يا عم منصور".

تتحجر عيناه على الطريق، يقول بشكل آلي:

"لا تخف يا ولدي، ربك ستار".

ويتابع بطرف عينه حجرًا كان خارجًا عن الرصيف.

"هل تكلَّمتُ وقلتُ شيئًا منذ قليل يا ولدي؟"

"مَنْ، أنت؟"

"نعم يا مروان، أنا، هل خرج من فمي أي صوت؟"

"لا. لا، لم أسمع أي شيء".

"متأكد؟"

"متأكد".

غيَّـر الموضـوع بسـرعة، أخذ يحدثني عـن الرجل الـذي دلَّه على طريق شـركة الدخان، كان تاجرًا من السـويس، تعلـق بالصحراء ذات ليلة، فعل معه مثلما فعل معي، فحمل الرجل الجميل له وجعله يرتزق في أوقات الفراغ.

كل بضعة كيلو مترات كان يتوقف بالسيارة أمام كشك أو محل، يسحب بعض الخراطيش ويبدلها بالنقود، يعدّها ويضعها في المحفظة الجلدية، عندما اقتربنا من البيت أصبحت السيارة خاوية والمحفظة عامرة، وقبل أن ندخل البيت أخرج محفظته وجعل يعد كل ما فيها.

"مئة وخمسون جنيهًا، نطرح منهم عشرة بالمائة، كم يكون العدد؟"

فأسرح ولا أرد.

"كنت تذهب لمدارس فالصو يا ولد".

وأقول:

"صبرك بالله يا عم منصور مئة وخمسة وثلاثون جنيهًا.."

جحظت عيناي عندما تخيلتُ الرقم، رفعت يدي عاليًا حتى تشلح قميصي.

"لقد ربحنا من هذه الرحلة خمسة عشر جنيهًا".

"مشوار واحد لتحميل كراتين الدخان، عندما تتعلم قيادة السيارات هل تستطيع أن تفعل ذلك وحدك؟"

وأقول:

"إن شاء الله".

يتناول عم منصور من ابنته لفة الحرير الأزرق.

جلسنا إلى المائدة، عندما فرغ فمه من الطعام ملأه بالكلام.

"قال لي صاحب شركة الدخان إنه يريد التوسع في النشاط والتجارة".

لا ترد مريم، فيُكمل.

"قال إننا نصدر منتجاتنا إلى سوريا واليونان وسردينيا والنمسا، ونريد موردين بريين، لكني لا أريد ترك العمل مع الحاج الكويتي".

أثناء شرب الشاي تدخلتُ واقترحتُ عليه فكرة.

"السبب الوحيد الذي يجعلك لا تود ترك الحاج أنك تعمل على سيارته، أليس كذلك؟"

رشف عم منصور من كوبه وفكر بعمق.

"ليس هذا فحسب، أنا أعمل معه منذ ثلاث سنوات، والرجل لم يبخل عليَّ بشيء، لا أتخيل أنني أعمل لدى شخص آخر غيره".

وضعتُ ملعقة سكر إضافية في كوبي وقلبتها ببطء.

"هذا هو مربط الفرس يا عم منصور، لماذا تعمل لدى أشخاص، لماذا لا تجعل الأشخاص هم الذين يعملون لديك؟"

نظرة طويلة صوبتها مريم إليَّ قبل أن تترك المجلس، أغلقت باب غرفتها فارتفع صوت أبيها قليلًا:

"وماذا لو أخفق المشروع؟"

"علمني الأستاذ سليم، أن الحديث كثيرًا عن الفشل يجلبه إلى النفس".

وضعت كوبي الفارغ وقلت:

"الأرض يُرحل عنها لكنها لا ترحل، كان الأستاذ سليم يقول ذلك دائمًا، سترحل عن أرض الكويت لنعمل معًا فوق أرض مصر".

"ومَن الذي يضمن نجاحنا في تلك المهمة؟"

بدأت أشعر بنضجي من خلال نظراته لي، كان يراني شخصًا كبيرًا يمكن أن يشاركه المسؤولية، شيء جميل أن يفكر في اقتراحي بهذه الجدية، لم أدعْ خيط الموضوع يهرب منّي:

"ليس كل مُغسِّل يضمن الجنة يا عم منصور، فلنجرب".

أكثر جملة كررها كانت:

"من أين لنا بثمن سيارة؟"

استعدتُ أجزاء من حياتي القديمة واقترحتُ عليه:

"ليس بالضروري أن نشتريها جديدة، في مخيم الوحدات يمكن أن يشتري الرجال سيارت مستعملة بالتقسيط".

حكّ ناصيته وتأملني طويلًا.

"نحن لسنا في المخيمات يا مروان".

أصبحتُ واقفًا وهو جالس، تساقط عليه كلامي من أعلى:

"نصبر ونتعب، نبحث ونفاصل، نسأل يا عم منصور، والذي يسأل لا يتوه".

6

فـي الصبـاح قدتُ السـيارة لأول مرة دون خـوف، أصبح بإمكاني تفادي السـرِّيحة وتهدئة السرعة عند المطبات، يجلس عم منصور إلى جواري، يتابع الطريق ويده كالعادة متحفزة فوق فرامل اليد، اكتسـبتُ خبـرة قيـادة السـيارات بسـرعة أذهلـت القائـد، لم أرتكـب إلا بعض أخطـاء يقع فيهـا المبتدئون عادة، كعدم دقتي في تقدير أبعاد السـيارة، فدائمًـا كنـت أرى أن مكان العبـور أقل من حجمهـا، أو أنقل غيارات الفتيس بغير ترتيب، فتنكفئ السـيارة للأمام أو تقفز ويتوقف المحرك، تغلَّـب عم منصور على مثل هذه الهنات بالتشـديد على الأوامر وعدم الاسـتهانة بالتعليمات، كنت تلميذًا مطيعًـا، فلا أرتكب الخطأ الواحد أكثر من مرتين.

اتخذت السـيارة سـرعتها، كرَّ الأسـفلت والعجلات تطوي قشـرة الكرة الأرضية، أصبح كل ما مر بي طريق، وكل ما سيأتي طريق آخر.

في مطلع النهار ذهبنا بالسيارة إلى شركة الدخان، قدتها ذِهابًا وعم منصـور أثناء العـودة، وكما حدث في المرة السـابقة كان الربح وفيرًا، خمسـة عشـر جنيهًا، يمكـن أن يتقاضاها موظف الحكومة في شـهر، هـل تنتبه لذلك؟ سـرحت في أمر أكبر، شـجعني هذا الـكلام على أن أذهـب بالسـيارة وحدي مرة أخـرى، لأثبت بعض الجـدارة، تردد عم منصور في قبول الفكرة، طلبتُ منه أن آخذ النقود التي بعنا بها وأجلب خراطيش جديدة، أبيعها ونكسب.

أسند ظهره إلى جدار البيت قبل أن ندخل، تركني وسرح بنظره بعيدًا، هناك عند أول الشارع، كانت المرأة نفسها التي أشارت إليه من قبل، ملفوفة في عباءة سوداء، تُبيِّن ذراعها الوردية لتشير بها فقط، تقترب منّا كأنها تسير في حلم، تقف أمامنا تمامًا، رأسها لا يظهر منه إلا عينان مكحولتان، نظرتها متأنقة وفيها أبهة الهوانم، لا أعرف لماذا لا يبادلها عم منصور هذه الإشارات، بعد قليل، عادت غاضبة إلى حيث أتت بخطوات أسرع، واختفت في زحام الباعة وغيمة الغروب.

انتبه إليَّ عم منصور وكأن شيئًا لم يكن.

"يا ولدي، أنت حديث العهد بالسواقة، وأيضًا غريب وليس معك رخصة قيادة، وقطع هذه الكيلو مترات في يوم واحد ليس هينًا يا مروان، والسيارة، أنت تعرف، ليست مِلكي حتى أتصرف في الأمور كيفما أشاء".

أشرتُ إلى صدره، مكان المحفظة.

"الخمسة عشر جنيهًا التي ربحناها اليوم ليست قليلة يا عم منصور، وإذا جمعت المبلغ في الشهر سيصبح ثروة، أما إذا ذهبت أنت في رحلة صباحية وأنا في رحلة مسائية، لك أن تتخيل.."

قاطع كلامي:

"يا ولدي، الأمور لا تقاس بهذا الشكل، فالبضاعة في محلات وأكشاك التوزيع لا تنفد كل بضع ساعات، وليس أقل من أسبوع حتى يمكننا تزويدهم بغيرها".

صمتُّ وأعدتُ التفكير، أجريتُ سبابتي فوق مقعد الأسمنت أحسب الحسابات.

"ولماذا تظل أماكن التوزيع كما هي؟"

"ماذا تقصد يا مروان؟"

"لماذا لا نتوسع في التجارة؟ الحركة حبيبة الرزق، كنت أسمع أمي تقول ذلك كلما أرسلتني أجلب لها شيئًا من بعيد، وبدلًا من العشرين كشكًا، فلنجعلها أربعين، أو خمسين".

يعتلي الوجوم ملامح القائد، يقول في تفخيم واضح للرقم.

"خمسون؟"

فردت ذراعي لأكبِّر الكوم.

"ولِمَ لا تكون مئة؟"

"يا ولدي أنت متحمس أكثر من اللازم، وأنا أخاف في الحقيقة من تلك المغامرة، الدنيا ليل، وفي الليل تنتشر الشياطين ويكثر أبناء الحرام".

أسند ذقنه بين ركبتيه، ووقفت أشرح له وجهة نظري.

"لقد خبرتُ الطريق جيدًا، والله حفظته بمطباته ونقاط تفتيشه، حتى صيانة السيارة، فقد رأيتك كثيرًا وأنت تقيس الزيت بشد السيخ، وتحدد مياه التبريد بِرَج القربة، وأعرف أن مؤشر الحرارة لا يعمل، ومؤشر السرعة أيضًا، وكل ذلك سأنجح في التعامل معه بالخبرة، فقط مسافة مشوارين وتُرسم خريطة بكل شيء هنا".

وأشرت إلى رأسي.

رفع عم منصور ذقنه عن ركبتيه، ارتبك عندما لمح المرأة ذات العباءة السوداء تظهر مرة أخرى عند أول الشارع، تشير إليه من بعيد، عند آخر نقطة قبل منعطف يخفيها بالكامل، تحسس مداسه بقدمه دون أن ينظر إلى أسفل، تجاهل تصرفات المرأة تمامًا، تظاهر بالانشغال في موضوع آخر.

"سأقترح عليك، غدًا سنجرب هذه الخطة، فالطمع يقل ما جمع".

أدق الأرض بكعبي.

"ليس طمعًا يا عم منصور، إنه طموح، أريد أن أقنع نفسي بأن الحياة لا تكرهني، وأنني أستطيع اقتناص ذلك الشيء البعيد الذي يسمونه النجاح".

تسلل ضياء القمر خفيفًا وناعمًا، كانت ثمة أنسام باردة تمر فوق رأسي وتعطي الجو قداسة خاصة، فوانيس الشوارع تعلن عن أضوائها وتبدأ الظلال في مصاحبة المارة.

كان طيفي الأسود النائم على الأرض كبيرًا جدًّا مقارنة بجسدي النحيف، ظِل نصفه الأعلى يتحرك فوق الجدار حتى يصل إلى جذع نخلة خلف البيت.

"صدقني، لن تندم يا عم منصور، الحياة كلها تجربة لا يجعلها الخوف تكتمل أبدًا".

صمت مدة طويلة قبل أن يقول:

"أنت تبني قصورًا خيالية في كلامك يا مروان، تتكلم كأنه السحر، أنا لا أوافقك على ما تقول، ورغم ذلك تفضل، هذه هي المفاتيح".

وظل يهزها أمام عيني.

"وهذه هي النقود والأوراق، الرخصة مكتوب فيها محلات الكويتي، ولو سألوك في نقطة التفتيش عن رخصة القيادة، قل نسيتها وأنا أغير ملابسي، سيقطعون لك من الدفتر إيصالًا ندفعه غرامة عند التجديد، ربنا يستر طريقك يا ولدي".

خطفت المفاتيح من يده بفرح غامر.

توجّس رجل المبيعات في المصنع مني، ولكنه أمِن للسيارة والرخصة وأعطاني ما طلبت.

فتح عم منصور عينه فرآني أجلس قبالته والمفاتيح تهتز وتصنع صوتًا كالجرس.

"لقد نجحت المهمة يا عم منصور، لم يستوقفني أحد".

فتح عينيه بصعوبة.

"أخرجت لهم الأوراق الصُّفر التي أعطيتها لي، ففُتحت بوابات المخازن لصندوق السيارة".

ضربتُ يدي في جيبي وأخرجتُ لفافة الجنيهات التي بعتُ بها.

"خُذ".

كان لا يزال يحاول التفرقة بين الغفو والصحيان.

"ما هذا؟"

"مئتا جنيه، لنا فيها عشرون جنيهًا".

أمسك بالنقود وتأملها وهو يجلس القرفصاء.

"لقد فتحتُ أسواقًا جديدة للدخان، لم أذهب إلى محل واحد ممَّا زرناها صباح اليوم، ليس هذا فحسب، بل بعتهم القاروصة أقل بثلاثة قروش".

جلس عم منصور ووضع الفلوس في حجره، كانت عينه معلقة على شيء واحد، وجه مريم، كان يريد أن يقرأ شيئًا في عينيها.

قفزت قطة مريم البيضاء في حجري فربتُّ ظهرها، استعدتُ التفكر في كل ما فات، لم أعد مجرد ابن موت، موت، كلمة مخترعة لا أكثر، يمكننا أن نحدد معانيها كيفما نشاء، أي والله كيفما نشاء.

كان الاحتفاظ بالمفاتيح هو أول الغيث، لم أعد تلك الشخصية الهاربة من قدرها، بل أصبحتُ أصنعه. أحتاج فقط إلى بعض الوقت، ما بقي مني في جسر الزرقا سيظل هناك، فحتى الحنين يذبل، وعليَّ أن أخترع البدائل ليمكنني الاستمرار هُنا.

في الصباح اقترب مني عم منصور وهمس:

"سأستقيل من العمل لدى الحاج سليم الكويتي يا مروان".

لم أصدق أنه حسم أمره بهذه السرعة حتى ولو همسًا.

"وأنا أعدك يا عم منصور، لن أتركك أبدًا".

تأملني بعين مجهدة.

"لكن.. لا بد أن تتركني لعدة أيام".

لم أفهم، فلم أرد، ترك فرشته ودار حولي، ربت بكفه كتفي.

"سأذهب في رحلة قصيرة، مسافة السكة، أُعطي الحاج سليم السيارة وأُسلم عهدتي، وأعود متنقلًا بين سيارات أولاد الحلال، ولا يمكنك أن تظل هُنا في البيت، أنت تعرف يا ولدي.."

أحسست أنه يطردني برفق.

"ولِمَ لا أذهب معك يا عم منصور، ونعود معًا؟"

"يا ولدي، الرحلة خطرة، ومُكلفة، وبدلًا من أن تأتي معي وتصرف نقودًا، ابقَ هنا واكسب، سأوصي عليك أشخاصًا يبحثون لك عن عمل خلال الأيام القليلة التي ستستغرقها رحلتي الأخيرة إلى الحاج سليم".

لم يكن لديَّ أي أغراض يمكن أن أجمعها، فتوجهت إلى باب البيت وعيني تبحث عن مريم.

"إلى أين ستذهب يا مروان؟ لا بد أن نُصيِّن السيارة أولًا لأسلمها إلى صاحبها".

قضينا النهار كله في تجديد ما تلف من قطع غيار وسيور، ذهبنا إلى الميكانيكي وقلت له:

"اعمل ما يلزم السيارة يا عم"

وقال له عم منصور:

"لا لا، غيّر السيور فقط".

ثم قرص يدي ومال على أذني:

"عندما تذهب لصاحب مهنة وتطلب منه أن يشوف احتياجاتك دون أن تحددها له، فلن يشوف إلا احتياجاته هو، ولن يصيِّن ما يلزم السيارة بالفعل، ولكن ما يملأ جيبه".

عدنا إلى البيت بعد أن انتهت أعمال الصيانة، ملأ عم منصور "جركنين" من البنزين خلافًا عن خزان السيارة وزجاجة المولوتوف، في هزيع الليل الأخير أخرج خرطوم المياه، وقمت معه باللازم، نظفت الصندوق والكابينة من مخلفات السفريات الطويلة، لمّعت الزجاج بورق جرائد يحتفظ به لهذا الغرض، قرب الفجر كانت السيارة جاهزة للرحلة الأخيرة.

في تلك الليلة لم يغمض له جفن، سحبني من يدي وتوجه إلى المطبخ نزع صرة مدفونة في كوة الجدار.

"هذا بيت النار يا مروان، الطبنجة".

قال وهو يمسك بمسدس ملفوف في طبقات من أقمشة متسخة.

"كان يُفترض أن أصُبّ كل ما فيه من رصاص في دماغ الولد الذي أفسد عليَّ متعة الحياة، فلا أنا أرضى بمثله زوجًا لابنتي، ولا أنا استطعت رفض عَقده عليها، لماذا أجلت استخدام طبنجتي فيمَن يستحق؟ قدر الله أن يظل المسدس في بيت رجل يحسب الحسابات أكثر مما يتصرف، لماذا طاوعت ماما أمل ولم أفرغه كله في رأسه ليهدأ غضبي؟ الكلام لا يشفي من شيء".

كان يحدِّث نفسه بصوت مسموع، ثم لَمَعَ المسدس فجأة في عينيه، تأكد من أنه جاهز لجميع الأخطار، فتح الخزنة، نزع عنها الرصاص الذي أفسدته الرطوبة ولقَّم فيها ما يلزم، ملَّس على زناده ونفخ في فوهته، ثم سمعته يستعيذ بالله من الشيطان، أعاد المسدس إلى الصُّرة مرة أخرى وهو يقول:

"سأستخدمه عندما لا يكون هناك حل آخر".

عند أذان الفجر استيقظنا، تركنا مريم نائمة وخرجنا، وقفنا أمام البيت قليلًا، توجه عم منصور إلى سيارته، وقف أمام الباب وقال:

"اذهب إلى إسطبل قُرشي، وستجد هناك شخصًا أحوَل بانتظارك، اعمل معه حتى أعود من رحلتي".

وقف قليلًا أمام السيارة، لمح المرأة صاحبة العباءة السوداء تقف في غبشة الفجر، تلفها شبورة كما يمكن أن يُرى شخص في حلم، وكالعادة، لم يولها أي اهتمام.

عندمـا تحركت السـيارة وابتعـدتُ وقفت تائهًا أمـام البيت، أفكار متضاربـة تتلاطـم في ذهنـي، هِمتُ فـي الشـوارع أتابع المـارة الذين يذهبـون إلـى أعمالهـم الصباحيـة، لسـت أدري لماذا كنـت أدقق في الوجوه، هل أفتش عن ملامح أبي قيس وأسعد، أم أريد أن أتعرف عن قرب إلى خلدون وابنه؟

ابتعـدتُ عـن البيـت، وأثنـاء قـذف الحصـى على الأسـفلت ببوز حذائي بدأت أشك في مقولة الأستاذ سليم، الأرض يُرحل عنها لكنها لا ترحل.

7

نسكعتُ نصف نهار وأنا أبحث عن الأحوْل فلم أجده، لمَّا هدني التعب جلست في مكان أقرب لحوش كبير، تقف فيه صفوف من السيارات يقودها صبيان أصغر مني، كلما حاولتُ الاندساس بينهم لفظوني بسهولة، يبدو أن هيئة الغرباء معروفة للجميع.

اقترب مني عجوز سوّدت الشمس وجهه.

"هل تبحث عن عمل؟"

أومأتُ برأسي دون كلام، فهز العجوز رأسه هو الآخر.

"أراك تتأمل كبائن السيارات، من شباك السائق تعاين عجلة القيادة وخاتم الماركة، هكذا ينظر محترفو السواقة إلى سيارات الغرباء، هل تجيد قيادة سيارة أم أنني أخطأت التقدير؟"

كدت أسرق جملة أبي الخيزران وألقي بها في وجهه "قيادة المصفحات لعبتي" لكنني لم أجرؤ، ربما لأن ملامح الرجل كانت حادة ويشع منها ذكاء غريب.

"والله يا عم أنا أعرف ما تيسر من السواقة، ومثل ما تشوف لما تجربني، وستجدني على قدر كبير من الذكاء إن شاء الله".

تأملني العجوز ولف حولي ببطء.

"لديَّ أشغال تحتاج صحتك وليس ذكاءك، هل توافق؟"

ودون تفكير قلت له "موافق" جذبني الرجل من ذراعي وسلمن
لشخص آخر ينظم الطوابير أمام السيارات، كان يشير لنا ولا يتكلم

قمنا طوال النهار بتحميل سيارات النقل بالأقمشة والمنسوجات
وقبل غروب الشمس بقليل كنا نرص زكائب الملابس المستعما
في صناديق الشحن، عند نهاية اليوم لم أكن أعرف شيئًا عن الأج
ولا أجيد المساومات في هذا الأمر، فقبلت بما أعطاه لي المقاول دو
اعتراض، كل ما كان يشغلني أن أستطيع إطعام نفسي حتى يعود ء
منصور.

جعلت حصيرة الصيف كل الأماكن تصلح منامة، فتكومت خلة
غرف متراصة تبيت فيها الحمير والبغال، تداخلتْ في عيني ك
الألوان التي رأيتها طيلة النهار الفائت، حتى خِلتُ أن العيب في عيني
كانت الأضواء تروح وتجيء وأنا مغمض وغافل عن العالم، اخترة
الظلام ضفيرة برتقالية وظلت تضيء وتنطفئ..

بعد أن هدأت أنفاسي وخلدت للنوم أحسستُ بأن هناك شخص
ما لا أعرفه أريد قتلُه، شخص لم أقابله ولا مرة واحدة، لكنه هو السب
في كل ما لحق بي من غرائب، كان ذلك الأمر مُعلَّقًا في رأسي بصور
غامضة، لماذا يريد شخص مسالم مثلي أن يقتل؟ لا أعرف، لا أعرف
فقد كانت المرة الأولى والأخيرة التي لمست فيها يدي المرتينة، بو
أن استعارها أبي ليدافع بها عن بيتنا، قال صاحب المرتينة، أمِن أجا
هذا العريس تريد أن تأخذها؟ ووضع يده الكبيرة فوق قفاي، ثم نز
بركبتيه حتى صار رأسه في مستوى رأسي الصغير، أسند يديه علم

تنفي، لا تفسدها يا ولد، المرتينة غالية جدًّا، بمئة جنيه، فإذا ضاعت أو عطبت، هه، لا تقل لي إن والدك يملك مئة جنيه ليدفع ثمنها، ولكن قد يكون بمقدوره أن يدفع الثمن زيتونًا، قال وهو يمسح بنظره حقل الزيتون الممتد خلف البيت، بعد أن انصرف حامد صاحب السلاح نادى عليَّ أبي، خُذ يا مروان، نعم يا أبي، ضع يدك على الزناد، هذا المكان مخصص لأصابع الرجال، ولكني لم أكمل عشر سنوات يا أبي، يا ولد، أنت رجل منذ أن كنت في رحم أمك، وأضع إصبعي في دائرة الموت، ويضع أبي إصبعه كدعامة فوق الإصبع الصغيرة، ، هوب، تنطلق الرصاصة من المرتينة فترشق في جذع زيتونة، هل تقتل الشجرة يا أبي؟ لا يا مروان، أنا أثقلها بالحديد لتعتاد عليه، بذلك تتحمل وتصير أقوى، في الأيام القادمة يا ولدي سيطلقون الرصاص على كل شيء، ثم عاد فاتكأ بظهره إلى الحائط الخلفي للبيت وقال، في ذلك الزمان ستحدث أشياء لم تمر هُنا منذ سقوط آدم من الجنة، لقد عرَّفتك على المرتينة وعرَّفتها عليك، هذا كل ما عندي يا مروان.

لم تخرج من الماسورة ذات الفوهتين طلقة أخرى غير التي اخترقت جذع الزيتونة، لكن خرج الكلام من فم أبي يَلعن حامد صاحب السلاح، حامد نصاب، لا بد أن تحذر يا مروان، فكل تاجر سلاح تاجر دم، أريدك أن تعرف ذلك جيدًا، أعرف ماذا يا أبي؟ يرشق أبي المرتينة المؤجرة في الطين فتلف حولها دجاجة، أريدك أن تعرف أن تجار السلاح لا يهمهم عدد البشر المتبقي من المعركة، بل يهمهم كم ربحوا منها، فكلما رآني حامد أدس الجنيهات في محفظتي اخترع لي مشاريع عجيبة تطق فجأة في رأسه، يعدد المزايا

ويتفلسف، نحن في عصر الصناعة يا يحيى، ستُلقى دواليب الأنوال اليدوية في البحر عن قريب، ويحل مكانها مكن المكوك الطائر، تعال نشترك معًا في مغزل للنسيج الحديث، وبعد أيام يعدل عن المشروع، سنستورد المضخات والمنافيخ وكل الآلات الحديدية ونفتح مصنعًا، اسمع يا يحيى، لقد تعرفت على تاجر تركي في الميناء، وقال لي كلامًا موزونًا، سنقوم باستخراج الزيت من الفحل، فذلك أفضل من المضاربة في بورصة لندن، ثم بعد أيام قال لي، لقد اكتشفت أن التصنيع لا يخلو من مخاطرة، سنعمل في التجارة، نبيع ونشتري ونكسب، سنستورد عجولًا من السودان وحميرًا من إسبانيا، كانت مشاريعه كلها كالفقاعات، لا تستمر طويلًا في رأسه، كل يوم يا مروان يزرب لسان حامد مشروعًا، وما هو بمشروع، بل مضخة كل مهمتها شفط الفلوس من جيب أبيك.

عندما تزوج أبي من شفيقة، أعاد المرتينة إلى الريس حامد وهجر حقل الزيتون، ثم تحول إلى مجموعة المقاتلين الليليين، هؤلاء الأشخاص الذين يروون القصص التي حدثت لغيرهم دون أن يشاركوهم فيها.

في الدقائق القليلة التي كنتُ أتقلب فيها أراني ممسكًا بذراع مريم، عِنادها له تأثير السحر، وكلماتها الجافة الشحيحة تسكن عقلي ولا تخرج منه بسهولة، كيف سأطمئن عليها؟ كلها أربعة أيام يا مروان أو أسبوع على الأكثر، ستعود مساعدًا لأبيها الشيخ، وعندئذ، سيعود كل شيء كما كان.

ضربت الشمس عيني فصحوت، قضيت شطرًا من النهار في ملء صناديق السيارات بأثواب الأقمشة، لم أشترط طبيعة عملي، كنت أنقل المعادن من مخازن الخردة إلى المسابك لتشكيل حروف الكتابة، ثم أحملها عندما يكتمل تجهيزها إلى مطبعة بولاق، عمل مجهِد لم أعمر فيه طويلًا.

بعد يومين بصَّمني أحد السائقين على أوراق كثيرة وسلمني سيارة متهالكة، كنت أنقل عليها أجولة التوابل إلى محلات الحاج محمد ريدان العطار حتى تغيب الشمس، ثم أورِّد في صندوقها ألواح الثلج إلى محلات أسماك أولاد غالي حتى منتصف الليل، يومان كنتُ أعمل فيهما سواقًا وتباعًا وعتالًا في الوقت نفسه.

بدأتُ أشعر بأن الأيام أصبحتْ بلا طعم، لا تمييز بين صباح الخميس ومساء الأحد، ولا فرق بين أول يونيو وآخر صَفَر، تداخل ما أراه مع ما أفكر به، وماهت في عيني جميع الأشياء.

ظلت الأحوال تتقلب بلا معنى واضح حتى فوجئت برجل يحمل عصا وينخسنا بها، أيقظنا قبل أن نُكمل راحة القيلولة، تجمعتْ صور في عيني كالهلوسة، تشكلتْ ملامح الرجل كأنه خارج من تحت الماء، كان أنفه طويلًا وعيناه ضيقتان وجلده مائلًا للسمرة، أخذ يضرب كل البغال الواقفة والصبيان النائمين، ثم رفع عصاه ورقص بها في فرح عامر، كان يلحِّن كلماته بطريقة ارتجالية من تأليفه.

"عبد الناصر كبس على اليهود يا ناس، البطل كبس على اليهود يا خلق".

ثم طاح في البراح الواسـع يلسـع البغال والحميـر بعصاه ويرقص بها.

"عاش عبد الناصر، عاش الزعيم".

كنت من الذين طالتهم عصا الرجل، فاستيقظت منقوعًا في العرق وأنـا لا أفهم شـيئًا، سـمعت رجلًا بجانبي يِشَـخّر مثل بـوق، دار كلام في الإسـطبل عـن حرب تـدور رحاهـا الآن، دكَّ عبد الناصـر مكامن اليهـود فـي كل مكان، بعد سـاعات دارت كؤوس الشـربات، وملأت البستلات الناشعة بالثلج ساحة مسجد السلطان والشوارع المجاورة، جاء صاحب العصا بسـيارة نصف نقل محملة بألواح الثلج لزوم التمر والخروب والعرقسوس.

كان الحر لا يُطاق، استباحت الشـمس كل شـيء، فرشت أشعتها كل شبر من الإسطبل، تسللتْ بين أكوام القمامة، وانتشرتْ في الهواء رائحة شيء ما يحترق.

سـألتُ أحد الصبية الواقفين عن شـخص يُدعى الأحول، فقال إنه هـو الذي يوزع المشـروبات على المارة ويلسـعنا بالخيزرانة، اقتربت منه أتأمله، كان لقبه هو عاهته، هدَّه الرقص ونشـع جلبابه بالعرق كأنه مغسول.

"كان رقصك بالعصا مبهجًا يا عم".

التفت إليَّ الأحول ورشق عصاه في الأرض.

"وهل تعرف الرقص؟"

"أوه. أعرفه جيدًا. كدتُ أفقد حياتي بسبب راقصة".

عندما صبغ لون الغروب الأرجواني كل شيء بدأ الجميع يتجهون إلى المقاهي القريبة.

في السهرة، وبعد يوم احتفالي امتد حتى منتصف الليل، حدق فيَّ الرجل الأحول وهو يمسح رغوة العرقسوس عن شاربه، جلس فوق أكوام الخيش ألتي كانت تغطي الثلج:

"شكلك غريب عن المنطقة".

مللتُ من تعريف نفسي بالـ "فلسطيني".

"ألم يوصك عم منصور بشخص قبل سفره يا ريس؟"

وضع الرجل ساقًا على ساق وقال بفخر:

"كل الناس تقصدني في تشغيل الشباب والصبيان، لكن ذكرني، مَن يكون عمك منصور هذا؟"

كنت متخيلًا أن عم منصور نار على علم في بولاق والمناطق المجاورة، لم أستعد بأي شكل لهذا السؤال، حددت له البيت وأوصاف الرجل، لا أدري هل كان ينظر إليَّ أم يتأمل البغلة التي نعتلف غير بعيدة عنا؟

"آه. أبو مريم. تذكرت، قال لي منذ أيام إنه سيرسل إليَّ شابًا ابن حلال، وهل يوجد أولاد حلال في هذه الأيام؟"

احترتُ كيف يمكنني أن أُعرف نفسي بعد هذا الكلام:

"أنا مروان، الشاب الذي حدثك عنه".

انتقلت عين الرجل من البغلة إلى وجهي مباشرة:

"ولكنه قال لي إنك سائق محترف، ما الذي يجعل سائقًا يقبل العمل في الشيل والعتالة؟"

علا صوت الرجل واعرضَّ:

"لديَّ عمل أكرم لك من كل هذا".

ثم جعل يحدثني عن أشياء لا أعرفها، قال لي:

"هناك أعمال ترنّ فيها النقود أكثر من قيادة السيارات، لماذا لا تعمل بالجزارة؟ اليومية ثلاثة أضعاف ما تتقاضاه هُنا، فاللحم مثل الذهب، لا ينخفض سعره أبدًا".

لم أصدق أنني أصبحت مطلوبًا في السوق، وشخص ما يُجري معي اتفاقيات عمل.

كانت أنباء الحرب بصوت المذيع أحمد سعيد تحمس الجميع، أسقطنا ثلاثة وعشرين طيارة، ستين، خمسة وسبعين، مئة، توقعت بعض الأصوات أن تمتد الحرب لأسابيع وربما لشهور، لم يكن أكثرنا خيالًا يتوقع أن الحرب ستنتهي في مساء اليوم الذي بدأت فيه.

وافقت دون تردد على العمل مع الأحول، انتظرت أربعة أيام حتى حان موعدنا، لكن حظي كان سيئًا، فبعد أن استلمت الحذاء البلاستيكي الأبيض ذا الرقبة الطويلة، وبعد أن دربني الرجل على ربط خصري بالشال حتى لا أصاب بالفتق من حمل اللحوم المختومة، ضاع

كل هذا المجهود هباء، ففي اليوم الأول انتظرت المناشير التي ستشق الذبائح حتى يحملوها لمحلات الدهَّان، لكن معركة كبيرة وقعت بين الحاج محمد النواوي والحاج زينهم الغواص، راح فيها ثمانية رجال، قالوا في النيابة إن توزيع حصة اللحوم هو سبب الخلاف، فيما أخذت الألسنة تردد أسبابًا أخرى أُشيعتْ لنشوب المشاجرة الكبرى، قالوا إن الحاج زينهم الغواص لم يكن يؤيد رجوع عبد الناصر بعد خطاب التنحي، ورأى الحاج محمد النواوي أن غريمه خائن ويستحق الذبح أكثر من البهائم.

ذات صباح كنت أستعد ليوم عمل شاق، رأيتُ صبيًا يشير إليَّ من بعيد، عندما ذهبتُ إليه لم يتكلم، لكنه مد ذراعه بعيدًا، خارج بوابة الإسطبل، رميتُ ببصري إلى الأفق فرأيتها، جريت غير مدرك لأي حسابات، مريم، لستُ أدري هل نطقت باسمها أم مرَّ فقط في خيالي، لم أشك للحظة أنني أحتاج إليها، أصبحت أفكاري صافية كنباتات الماء.

كان اللون الأسود يغطي كل شيء فيها، لا تُظهر إلا شريحة من ملامحها، الأنف والعينين وجزءًا صغيرًا من فمها، لم تكن تحمل حريرتها الزرقاء.

"أين الصغير؟"

"تركته مع ماما أمل".

أصبحتْ هذه المرأة كالأنبياء، أسمع سيرتها ولا أعرف شيئًا عن ملامحها.

"هل عاد عم منصور؟"

سألتها، كنت أريد التحدث معها عن أي شيء.

بعيدًا وقفنا، هي وأنا، ونسينا العالم، لم ترد.

"مريم، هل عاد عم منصور؟"

كانت تتأملني وكأنها تتحقق من وجودي.

"هذا هو سبب مجيئي، أبي لم يعد حتى الآن، والحرب لا تزال دائرة، والأسرى بالألوف، مروان، أنا خائفة".

التمعت عينها بالدموع في ضوء الشمس:

"الطريق طويل، يستغرق أيامًا".

"ثمانية أيام، ألا تكفي؟"

بدأ قلقها ينتقل إليّ ويُهمِّد أوصالي.

"ربما تعطلت السيارة في طريق العودة يا مريم".

تلفتت حولها قبل أن تقول:

"كنت سأصدق ذلك الاحتمال لولا اتصال جاءني صباح اليوم في تليفون أدهم البقال، كان الحاج سليم الكويتي يسأل بنفسه عن أبي، قال إنه لم يصل إلى الكويت ولا الأردن، معنى ذلك أنه لم يخرج من سيناء منذ سبعة أيام".

بدأت الدنيا تلف بي، لا أعرف لماذا تذكرت أسعد وأبا قيس، أثناء سرحاني كانت مريم تنسحب تدريجيًا من أمامي، لم تنتبه لندائي،

عبرت الطريق ولم تلتفت إلى الخلف، هرولت بخطى سريعة حتى اختفت في زحام الناس، وعدت أفكر في ترتيب أوراقي من جديد.

بعد أن قطعت طريق مسجد السلطان عبرت الشارع، وقفت أمام البيت ولا أعرف بأي حجة سأدق الباب؟ هل أصبحتْ مريم أمانة في رقبتي بالفعل، أم أنني أفتعل هذه المعاني لأبقى فقط بالقرب منها؟ قلت في نفسي هذه ليست الحقيقة، ما إن يرجع عم منصور حتى آذن منه بالرحيل.

انفرج الباب بعد نقرة واحدة، تراجعت قدمي وهي تتحسس الخطى إلى عمق البيت، بحثتُ عن سبب تواجدي الآن، رميت باليومية في حجر مريم، وقع الجنيه في الحريرة الزرقاء، صدت يدي أكثر من مرة، حاولت إقناعها:

"سيردها عم منصور حال عودته".

بعد قليل خَفَّت حدة رفضها، وتركت الجنيه يغوص في ملابس سالم.

"لماذا لم تذهب مع أبي؟"

"لم يطلب مني أن أذهب معه".

علا صوتها بشكل ملحوظ:

"كنت ستصبح سندًا له، يمكن لاثنين أن يهربا من الأسر، أما شخص واحد فمستحيل".

حاولتُ أن أكون هادئًا.

"وما ذنبي يا مريم".

عندما ارتفع صوتي قليلًا اندفعتْ كالطوفان:

"أنت مسالم أكثر من اللازم، الشخص المسالم شخص ميت، هل تفهم؟"

تركتْ حريرتها نهائيًا، ظلت تضرب صدري بقبضتيها حتى انفكت عقدة شالها الأسود ووقع على الأرض:

"أنت لا تفهم، أنت غبي، الحياة لا تحتاج إلى أمثالك".

عاودت النظر إلى نفسي للتأكد من وجودي، دسستُ رأسي بين ركبتي، ونظرت إلى نعلي، كيف نجوت من الصحراء، كيف أقنعت نفسي بأن ما يحدث لي ليس حلمًا.

مشروع قتيل هارب، أنا.

انتبهتُ من سرحاني عندما لمحت قدمين تقتربان مني، رفعت رأسي، فرأيت ملامح مريم تستدعي ابتسامة:

"أنا آسفة، لم أكن أعرف أن بداخلي كل هذا الشر، اقبل اعتذاري يا مروان".

لم أرد عليها، انشغلتُ في البحث عن كلام مناسب، كان الشال قد عاد إلى رأسها من جديد، جذبته فوق شعرها فحدد سواده ملامحها أكثر، ابتعدتْ قليلًا، باغتتني بالتفاتة كما يمكن أن تفعل طفلة، لكنها

تقل شيئًا، ابتسمتْ بحياء، كأن رأسها يدور فيه شيء لا أعرفه، ثم
ت بارتياح، قالت وهي تفتعل سعلة وتبلع ريقها ببطء.

"هل تشرب قهوة؟"

ودون أن تنتظر ردًّا، دخلتْ غرفتها ثم خرجت وهي تحمل بين
يها مطحنة حجرية صغيرة وكيسًا أسود مربوطًا، جلستْ على
رض ووضعت المطحنة اليدوية أمامها، من الخُر الصغير سرَّبتْ
ات البن بين أصابعها، كانت تُلقمها حبة بحبة، كلما تسقط واحدة
ـر إليَّ وتبتسم، وضعت ما يكفي لفنجانين، وأخذت تلف ذراع
حايا القصير، كانت تطحن البُن كأنها طفلة تلعب.

بعد أن صارت الحبات ناعمة غلتها في كنكة صغيرة فوق نار
كانون الهادئة، صبتها في كوبين وفتحتْ شباكًا يطل على الشارع،
ىلت نسمة هواء فطيرت الشال الخفيف عن شعرها مرة أخرى،
ت أذناها بقرط ذهبي كالطوق، سرعان ما التقطت الشال وسحبته
ق رأسها للمرة الثانية، لم أكن أعرف أن استدارة صوان الأذن يمكن
تُشكِّل كل هذا الجمال، بين خدها الأيمن وحلمة أذنها شامة صغيرة
وداء، تأملتُ لأول مرة الطوق الذهبي والشق الصغير المثقوب من
ها، رشفت من فنجاني ببطء.

"هل أعجبتك القهوة يا مروان".

في تلك اللحظات لم أهتم بمعنى السؤال قدر اهتمامي بجريان
مي على لسانها، مروان، شعرت بأن جناحًا فضيًّا يحملني إلى
نطقة المبهمة التي تشتعل فيها الذكورة عند الرجال.

"هل طُحنت جيدًا؟"

لم أذق طعم القهوة منذ أن تركت قريتي، كان الأستاذ سليم يعشقها ويطحن مكوناتها بنفسه في قرطاس صغير من حجر الصوّان، وبيا من جلمود على شكل رِجل أسد يدق الخلطة، زر الورد والحبهان والقرنفل وجوزة الطيب.

تأملتُ قاع فنجانها:

"مَن يكون الأستاذ سليم؟"

رجل فلسطيني، مثلي الأعلى. لا بد أن يكون للإنسان مثل أعلى. كان مدرسًا للغة العربية، لكنه يجيد الحديث عن نظريات الفيزياء وفيكتور هيجو، خُيِّل إليَّ أنني سأراه مجددًا عن قريب، عندما سمعت الأخبار منذ أيام، قالوا إن عبد الناصر كبس على اليهود، فقلتُ إن قيسارية سوف تتحرر، آه يا مريم، لو تصبح أفعال العرب في حجم حناجرهم؟ في الأيام القليلة الماضية هُيئ لي وهم جميل، فالطريق بين جبال قيسارية وجسر الزرقا يستعصي على الماعز، لكن عبد الناصر اخترع خطة جهنمية لتسريب جنوده في تلك المناطق الوعرة، سيجلو عنها اليهود الذين عسكروا هناك منذ عشرين سنة، ستُلغى المخيمات، ولن تعود سيدات المجتمع بمساعدة الصليب الأحمر يوزعون حساء العدس واللعب على الأطفال، تخيلت أن بإمكاني دفن أبي قيس وأسعد بشكل كريم. أو حتى أترحم عليهما كما يليق بالبشر، سأساعد أم قيس في تشييد البيت بعرقي الزيتون، حلم أبي قيس، وأنا سأتابع صغيرهما في المدرسة، سأشرح له كما كان يشرح

ﻲ مُدرسـي مُدمن الخرائط، سـيصبح قعر الرغيف كاملًا في الخريطة ا أستاذ سليم.

هل تعلمين؟ دائمًا أشعر بالذنب، وكأني نسيتُ أن أفعل شيئًا ما.

تركتني مريم وذهبت تنظر من النافذة، رسم ضوء الغروب الخفيف حدود جسدها، سمعتُ صوتها دون رؤية ملامحها:

"قلبـي يأكلنـي على أبـي، أريد أن أعرف كيـف يمكننا الاطمئنان عليه، وهل هو أسير أم مفقود؟".

التقطت عصا من الأرض وأشرتُ بها إلى الجدار.

"لو أننا اتبعنا الخرائط وربطناها بالزمن سـيكون عم منصور هُنا، في شمال سيناء".

أنزلـتُ العصا عن الخريطة الوهمية، انزلق الرضيع عن كتفها حتى وصل إلى بطنها فجلسـت بـه، أخذتُ أخربش بالعصـا التي كانت في يدي، تحولت الخريطة في رأسي إلى رسوم مبهمة.

"لا بد أن أنصرف قبل الليل".

لم ترد على كلامي، كنتُ أود أن تتشـبث بي وتجذب ملابسي، لن تقد ملابسـك من دُبر يا بن يحيى سعيد، فأنت لستَ النبي يوسف، كل ما فعلته مريم أنها وقفتْ خلفي وهي صامتة، ثم فتحت لي الباب وهي تحمل رضيعها.

"طـوال عمري أذهب للنـوم عندما يذهب الدجاج للمبيت. كنتُ قـد أغلقـت بابي علـى نفسـي ورضيـت بنصيبي يـا مـروان، لا تقلب مواجع جديدة يا فلسطيني".

انسـحبتُ مـن أمامهـا كطفـل خائـب، لا يمكنني حتى الـرد، كلما جـاءت سـيرة الانسـحاب حضر أبي أمامـي في لمح البصـر، فقد كان يملك مرتينة، لكنه لم يقتل بها حتى فأرًا.

في زحام الشـارع تاهت أفكاري وبتُّ لا أعـرف ماذا أريد من هذه الحياة، هل سـأذهب إلى إسـطبل قرشي لأكمل العمل مع الأحول، أم سـأبحث عن عمل جديد ربما يطول لسنوات؟ لا شيء مؤكد، الرجل الذي أنقذك بسيارته لم يستطع أن يكمل معك الطريق، فُقِدَ ولم يستدل عليه، وربما مات.

عندما وقفت قرب البيت اعترض طريقي شاب أكبر مني قليلًا، كان يراقبنـي حين أتحرك يمينًا أو يسـارًا، يرتدي ملابـس الموضة ويطوق عنقه بسلسـلة كبيـرة الحلقات، وفي يده جنزير ينتهـي طرفه الآخر في عنق كلب من سلالة متوحشة، يلهث ولسانه خارج عن فمه شِبرًا.

"أراك كثيرًا في منزل الشيخ منصور".

"مَن أنت وماذا تريد؟"

لف حولي وهو يقبض على السلسلة الغليظة:

"تبدو قرويًّا من سوهاج، عم منصور من هناك، هل تعلم ذلك؟"

لـم أجرؤ على الرد، فأخرج سـيجارة ووضع فيها شـيئًا كالدوبارة، عندما أشعلها خرج دخانها برائحة غريبة، ابتعدت خطوتين.

"مَن أنت وماذا تريد؟"

سحب نفسًا عميقًا ونفخه في وجهي:

"أنا لا أريد، ربما أنت الذي تريد".

ابتعـد وأخذ يـدب الأرض بقدميه دون سـبب، ثم غـاب في زحام الناس وعربات اليد.

مشيت خطوتين، غير مدرك أنني أسير بظهـري حتى وصلتُ إلى البيت مرة أخرى، كانت مريم تتابعني من شـق الباب الموارب، فتحته عندما اقتربتُ منها.

"لماذا كنت تقف مع أمير؟"

بمجـرد نطقها بالاسـم قفزت عائدًا إلى الشـارع مرة أخرى، عدتُ إلى المكان الذي تركته فيه منذ دقيقتين، لم أجد أحدًا، مشَّـطت سـوق الملابس المسـتعملة مرتين، بحثتُ عنه بين باعة العرقسـوس والبوظة والفسـيخ، وصلـت للطريـق الكبيـر المتجه إلـى النيـل، وقفت تحت مشـربيات مسجد السـلطان أبو العلا التقطت أنفاسي، رذاذ ماء طالني من بائع عرقسوس كان يرش عربته وما حولها.

وصلـتُ قـرب النيـل، بعيـدًا وقفـت، أتحقق مـن وجود مَـن مروا بذاكرنـي في الفترة الأخيرة، كل مرة حاولتُ فيها ترتيب أوراقي كانت تختلط أكثر، جلستُ أتأمل الماء وألقي بالحصى، أشعر بانتصار ساذج عندما تصل الحصاة إلى الماء.

8

هـدأت نفسـي قليـلًا فتركـت النيل ومسـجد السـلطان أبـو العلا، قصدت إسـطبل قرشـي وأخذتُ أتسـكع في الشـوارع الضيقة، كأنما أردت أن أسـرب أفكاري على الطريق بكثرة المشـي، لأول مرة أشعر بأن رأسي محشو بالطين، لا أستطيع جمع رقمين أو كتابة جملة مفيدة، كنتُ أتسلل من مخيم الوحدات وأعبر منه إلى القرية التي ولدت فيها، جسر الزرقا، أتسلق التلال الصخرية التي تستعصي على القرود.

كنت أقذف الحصى على الأسـفلت ببوز حذائي، كل حصاة تبتعد وتتوه تحت ضوء الشـمس تأخذ معها فكرة، وتصنع فراغًا في رأسـي، حتى يمكنني استقبال أفكار جديدة.

"هل أنت الفلسطيني الذي نقلت الثلج ثلاثة أيام لمحلات أولاد غالي؟"

يـد من الخلف جذبتني بالقرب من الإسـطبل، التفت إلى صاحب اليد وتأملته:

"نعم أنا، ولا أريد أن أعمل في حمل ألواح الثلج مرة أخرى، فقد تيبست كتفي وفقدت الإحساس بأصابع يدي".

أخـرج الرجل زجاجة صغيرة في حجم علبة سـجائر من صدريته، رشف منها قليلًا ثم غاصت في عبه مرة أخرى:

"أنـا لا أعمـل في مثـل هذه الأعمـال التافهة، ولكنـي أريدك في عمل أنظف وأوجه من كل ذلك".

كانت كلماته حادة وفيها ثقة تاجر كبير، سألتُه:

"عمل، أي عمل؟".

أخـرج الرجل علبته ودق على قعرها فلفظت السـيجارة المطلوبة، منحني واحدة، لم أكن أدخن، فوضعتها خلف أذني:

"تعالَ نجلس على المقهى ونتكلم".

مشى أمامي وتبعته، عندما جلسنا طرقع الرجل بإصبعيه.

"أنا الريس زكريا".

"وأنا مروان".

صافحني الرجل، يبدو أنه كان يفكر في شيء آخر.

"اسمع، أنا لا أحب تضييع الوقت دون فائدة، لديَّ عمل يحتاجك لمدة ثلاثة أيام، وسـتقبض في يديك خمسـين جنيهًا، خمسـين جنيهًا لا يتقاضاها المدير في شـهر، ستدسها أنت في جيبك وتعود إلى بيتك نظيفًا لا عفشة ولا علَقة تلمس ملابسـك".

ابتسم كمَن كشف لي عن شيء مهم.

أخذت أنقر بأطراف أصابعي فوق المنضدة الألومنيوم الصغيرة.

"هل تتاجر في شيء ممنوع؟"

رجع الرجل إلى الخلف وأبعد رأسه عني وتغير مقام صوته:

"ممنوع؟"

"مخدرات مثلًا ".

هربت الابتسامة من بين شفتيه الرصاصيتين، صمت قليلًا ثم ضج المقهى بضحكاته.

"أنت عقلك راح لبعيد جدًا، يا ولدي أنا رجل شريف، لا أعمل إلا في الشغل النظيف المأمون، لديَّ سيارة مِلكي، أنقل فيها أثواب أقمشة الخيام والستائر وملابس عمال المصانع، أو أمضي عَقدًا لمدة شهر أو شهرين مع محلات ريفولي أو جاتينيو".

أصمت ولا أجد ردًا، فجميع ما قال من أسماء لا علم لي بها، بدأ يتململ ويزفر، كأنه يمنّ عليَّ لأنه منحني بعضًا من وقته.

"قلت لي إن اسمك مروان، هل لقبك الفلسطيني أم أنك بالفعل من فلسطين؟"

"أنا من فلسطين".

خلل الريس زكريا لحيته البيضاء بأصابعه.

"آه، فلسطين، عمل معي الكثير من الفلسطينيين، وكان أغلبهم أولاد حلال".

انتظرتُ أن يُكمل حديثه، لكنه توقف عند هذا الحد.

"وما هو العمل الذي سنقوم به لمدة ثلاثة أيام؟"

قلَّب الرجل السكر في كوبه بعجالة، حتى إن بعض الثفل طال قيطان عباءته:

"تبـدو متحمسًـا أكثر من اللازم، وأنا أبحـث دائمًا عن هذا النوع من الشـباب ليعمل معـي، سـننقل بعـض المتعلقات في رحلة سـفر طويلة ثم نعود، هذا كل ما في الأمر".

ظلّ يغرف الهواء بكفيه من يمينه إلى يساره.

"هكـذا، بضاعة سـننقلها من هُنـا إلى هناك، ولا تنسَ، سـتقبض خمسين جنيهًا نظير ذلك".

لم أعرف طبيعة العمل رغم الشـرح، فلاحظ الريس زكريا ارتباكي في اضطراب نظراتي.

"إن لـم تكـن مطمئنًا اسـأل عنـي يا ولـدي، لقد أبلغتـك بجميع التفاصيـل، وإن لم تُرد الشـغلانة جرب غيري، سـيأخذونك صحيحًا مُعافى ويتركونك كيسًـا من الجلد محشوًّا بالعظام تتنازعك العلل من كل شـكل ولون، هل تريـد أن أعد لك الأعمال المتوفرة للشـباب في مثل سنك؟ أنا أعرفها لأنني عملت بها كلها قبل أن تولد أنت، لكن في نهاية العمر يجب أن يرتقي الإنسـان ويُعلي من شـأن نفسـه، فإن كنت تريد أن تجرب ذلك ستبدأ الرحلة خلال يومين، وأنا في رأسي الخطة كاملة".

وعدت أشعر مرة أخرى بأن العالم كله أصبح مليئًا بالخطط.

كل تعلُّم مع بعض عزيمة يصلح بداية جديدة.

"موافق، متى ستبدأ الرحلة؟"

"خلال أسبوع".

مد الرجل ذراعه القوية وصافحني حتى اهتزت المنضدة الألومنيوم ووقع عنها كوب الماء.

قلبت الموضوع في رأسي جيدًا، وما المانع من أن أجرب عملًا جديدًا مع الريس زكريا، فما النفع الذي عاد عليَّ من حلّ أثواب القماش عن الأخشاب الطويلة، ثم لفّها مرة أخرى على كراتين مبططة لتصبح أثوابًا أقصر طولًا وأضخم حجمًا، كان أغلبها من قماش البفتة الأبيض، أنقل الأثواب إلى الخطاطين، فيفردوها ويكتبوا عليها بالأحمر والأزرق عبارات تأييد لجمال عبد الناصر.

ترددتُ، هل أحكي لمريم ما حدث؟ أثناء خروجي من ممر شركس إلى الطريق، حاولت ترتيب الحكايات كما شكلها خيالي، وقبل مربعين سكنيين راودتني ملامح مريم، عينها التي بلون العسل السائل، والخطوط البُنية الدقيقة المسحوبة تحت جفنيها، عندما تتجسد أمامي يجتاحني نشاط غريب يأكل خلايا جلدي ويهز جزءًا من روحي.

طرقتُ الباب مصحوبًا بهمة أعطتني ثقة كبيرة في نفسي، وتنفستُ بارتياح عندما فُتح الباب، لكني لم أجد كلامًا يمكن أن أقوله.

لم أضيّع وقتًا، في اليوم التالي ذهبت إلى الأحول، أردت تعلم قيادة السيارات حتى أشارك الريس زكريا الرحلة كبديل على الطريق وليس مجرد مساعد، كان الأحول يختبرني أمام إسطبل قُرشي، فلاحظ أنني قائد متدرب ولست غفلًا بالمهنة، تأمل بخبرته هدوئي على الطريق.

"لو أنك استخدمت نباهتك في قيادة السيارات ستصبح سائقًا درجة أولى خلال شهر، بشرفي، في أقل من ساعة سأبصمك على الأوراق وأسلمك الشيفروليه".

وأقول له كأن رأسي أسطوانة مسجل عليها الكلمات:

"تمضي الأمور بشكل أفضل حين لا يُقسم المرء بشرفه".

يُكمِل الأحول ولا ينتبه لردي.

"بإمكاني أن أجعلك تقود في الطرق البيضاء".

"وماذا تكون الطرق البيضاء؟"

"التي لا توجد بها نقاط تفتيش".

بعد ثلاث محاولات فقط أصبح بإمكاني تحريك العجلات على الأسفلت بسهولة، يجلس الأحول بجواري:

"والله لقد خُلِقتَ سائقًا يا ولد".

في اليوم التالي سمح لي بنقل المواد الغذائية التي تحتاجها المطاعم في بولاق، كنت أحصل على وجبات محدودة كمكافآت، نسرِّب بعضها إلى البيت، كنتُ أذهب لأعطيها الوجبة كاملة أو نصف اليومية:

"ما هذا يا مروان؟"

"أعطوني إياها في العمل".

لا تصدقنـي مريم، تترك الوجبة ولا تلمسـها، في اليوم التالي كنت أرى لفافة الطعام، لم تنقص إلا مقدار التذوق.

فـي الأيـام التي انتظرت فيها أن يأتي موعـد الريس زكريا كان الهم يزداد ثقلًا، فكرتُ مجددًا في العودة إلى بلدتي تحت أي ظرف، وبدأت أحسب المسـافة في رأسي اعتمادًا على ترسبات شروح الجغرافيا من أستاذي المُفضـل، مـا الذي سـيحدث إن تركـت الجمل بمـا حَمل؟ سـيقولون جبانًا، ولكنهم لن يروني بعد ذلك، لن تتقابل وجوهنا أبدًا، يلعن أصلك يا أبا الخيزران، وما ذنبي أنا، أنت وأصحابك الذين فشلتم في محاربة أعدائكم، فهربتوا، اخرس يا أبا الخيزران، لا أود أن أسمع صوتـك للأبد، فقد كنت أهتم بالتدريب على الضرب بالمرتينة منذ أن كنتُ طفلًا، أنت تكذب، فمرتينتكم اعتلاها الصدأ بسـبب جُبن أبيك، أصبحتْ قطعة حديد خـردة معلقة على جـدار بيتكم كخيـال المآتة، عش وأنت فاشل، أو مت وأنت ساكت.

تغيـر كل شـيء منذ طالتنـي ذات غفـوة عصا الأحول في إسـطبل قرشـي، عندمـا قـال إن عبـد الناصر كبـس على اليهـود، وحتـى تبيَّن العكس.

وذات ظهر دق باب البيت، مرسـال من دكان أدهم البقال، شخص علـى التليفون يسـأل عنـكِ يا مريم، بعـد أن عادت سـألتها، هل هناك أخبـار جديـدة عن عم منصور؟ ردت بعد أن دخلـت إلى عُمق البيت، الحاج سـليم الكويتي يسأل عنه بنفسـه للمرة الثانية، ماذا قال بالضبط يـا مريـم؟ رفعت الحريرة وأخذت تهز فيها بشـكل آلي، قال إنه لم يتم

العثور على سيارة واحدة من سيارات النقل التي كان يقودها مدنيون في سيناء، وقال لساني ما لا أقتنع به، إن شاء الله يرجع بخير، وترد مريم بصوت مبحوح فاقد للثقة:

"بإذن الله".

لم يعد الأمر يحتاج إلى خبير لتأكيد أن عم منصور فُقِد أو أُسِر، فلا دليل واحدًا حتى الآن على أنه سيعود، أو حتى لا يزال حيًّا.

بدت هذه الأيام بالذات حارة عن سابقاتها، القلل الفخار المُعدة للعابرين مُلئت بالمياه، والأزيار نشعت ووُضِعت تحتها مساقي للقطط والكلاب، الشمس المتعامدة شققت جدران البيوت وجعلت في طريق الأسفلت لمعة ورائحة، ما إن تنزل المياه من الخراطيم أمام المقاهي حتى تتشربها الأرض خلال ثوانٍ، وبدأت كآبة تنطلي على وجوه العابرين دون أن يتبادلوا الكلمات.

في بداية الضحى، وعند ارتفاع الشمس قدر رُمح، سمعت دقًّا على الباب، لم يكن مرسالًا من تليفون البقال هذه المرة، فتحتُ فوجدتُ أمامي رجلًا يمسك في يده مسبحة طويلة، يرتدي بذلة ومن فوقها عباءة جوخ منشَّاة، يقف متأخرًا عنه بخطوة رجل أسود ضخم يسير خلفه كظله.

"أي خدمة؟"

قلت له مستفسرًا عن شخصه:

"وهل ستتكلم هكذا على الباب؟"

هربت الكلمات من فوق لساني.

"مَنْ تكون، وماذا تريد؟"

وقف الرجل وسدَّ فتحة الباب، كان جلد وجهه يلمع بالدهون، حددت أبعاده الشمس الضاربة في ظهره.

"يجب أن أسألك أنا هذا السؤال يا ولدي، مَن تكون أنت، ولماذا تقف هُنا؟"

نظرت في الأرض ولم أرد، خرجتْ مريم بدت نظراتها وكأنها تعرف الضيف، قبل أن تعود إلى غرفتها ينادي الرجل صاحب العباءة عليها:

"مريم، هل عيَّن الشيخ منصور قبل السفر حارسًا جديدًا على البيت؟"

خرجت مريم، قالت "تفضل" واختفت، وقفت خلف الضيف الذي تفضل بالفعل وأصبح في عمق البيت أشار للرجل الضخم بمسبحته فظل واقفًا بالخارج، ونادى مرة أخرى على مريم:

"يا أم سالم، قولي لسالم إن جده يريد أن يراه".

انثنت عباءته على بعضها، جلس فوق الكنبة فقرفصتُ بجوار السلم الخشبي، كنت أحاول طرد بقايا النعاس لأستوعب ما يحدث:

"تشرب شايًا أم قهوة؟"

يضربها بطرف المسبحة، مداعبة تصاحبها ابتسامة، "أريدكِ أن تجلسي يا مريم، جوفي مُعبأ بكلمتين، ولكن.."

قبل أن يُكمل يضرب بعينه تجاهي:

"اعذرني يا ولدي، فأنا لا أعرفك".

"اسمي مروان، ها أنت قد عرفتني".

وجه الرجل لا تُعمِّره الابتسامة طويلًا:

"لا، لم أعرفك، اسمك وحده لا يكفي، فأنا لا أفهم صفتك التي توجد بها هنا".

ينظر لمريم فتقترب منَّا:

"ألستِ زوجة ابني؟"

يعلو صوتها على صوته:

"طليقته، أنا الآن طليقته ولست زوجته".

يعاود هز المسبحة في يده:

"وليكن يا مريم، أنتِ تعرفين أنني لم أكن موافقًا على الطلاق، والعقد الذي خطَّه الشيخ في دفتره كان كفيلًا بحل المسألة، لكن أباكِ هو الذي نشَّف رأسه وأصرَّ على الطلاق، كان يمكن أن يراجع نفسه ولكنه عناد الرجال، أنا أعرفه قبل أن تأتي أنتِ إلى الدنيا، وأعرف أنه عنيد حتى في مصلحة نفسه، هل تقولين لي ماذا ستفعلين في سالم؟"

وقفت سارحًا لا أجد ردًّا، ومريم أيضًا لم تتكلم، عاجلها الرجل بجُمل سريعة:

"سأقول لكِ الصدق يا بنتي، أنتِ ابنة أصول، وابني هو الذي أخطأ، وقد قلتُ ذلك في المجلس الذي انعقد منذ سنتين. ألا تتذكرين؟"

استرسل دون أن يسمع ردها:

"نحن جميعًا مذنبون، وهذا حال بني البشر، لو لم نخطئ سنزول، ويأتي الله بقوم غيرنا ليُخطئوا، والظروف الآن صعبة وغريبة، لا بد أن نتكاتف قبل أن يستغل أعداؤنا خصالنا السيئة فيقضوا علينا، أبو لؤي سيعود قريبًا بإذن الله، وأنا ما أردت إلا الصلح، هذا كل ما عندي يا مريم".

قام وضرب يده في جيبه، أخرج لفافة من جنيهات جديدة.

"هذه لسالم، قولي له إنها من جدك".

عندما همَّ بالخروج رافقته لغاية الباب، التفت إليَّ وقال قبل أن يخرج:

"وأنت يا ولدي سأقول لك شيئًا وأرجو ألا تغضب، أنت غريب، وستظل غريبًا، أنا لا أكرهك، ولكنه صوت العقل الذي لا يحب أحد سماعه، هي الحياة ولن تتغير".

جذب الباب خلفه دون أن يصافحني.

جلستُ مُنكفئًا كأني رهين قوقعة، اقتربتْ مريم ووضعت كفها ف كتفي، سحبت ذراعها برفق وأنزلته عني عندما صرختُ:

"هل كنتُ هواءً أجلس معكما؟"

امسكت بعصا وتقرفصت، باعدت بين ساقيَّ وأخذت أخربش الأرض، كان البيت يضيق عليَّ ويلفظني، قررتُ أن ذلك هو الميعاد المناسب للرحيل، هذه الحياة غريبة، الدنيا كلها أصبحت أضيق من ثقب الإبرة، المرة الأولى التي يخطر لي فيها ذلك الخاطر الأسود، ليتني متّ مع أسعد وأبي قيس.

وقفت مريم بعيدًا عني:

"لأول مرة سأقولها لك يا مروان، افعل ما تريد دون الرجوع إلى احد، لكني أريدك أن تعرف شيئًا واحدًا، لو أُجبرتُ لأي سبب على الزواج من شخص لا أحبه، سأقتل نفسي".

اقتربتْ من الفتحة المفضية إلى السطح:

"هذا هو السلم، ومنامتك فوق السطح جاهزة إن أردت البقاء في هذا البيت".

ثم أشارت بإصبعها بعيدًا:

"وهذا هو باب الخروج، وأنا سأذهب لأنام".

قالت ثم تركتني واقفًا بين جميع الاختيارات.

تسـمَّرتُ أمـام السـلم الخشـبي، لم أصعـده، أخذتُ أنظـر لأعلى دون هدف، أتأمل القبة البعيدة السـوداء وأرقب ضوء القمر من الفتحة الصغيرة، تنتشـر النجوم في السماء كقرى نائية متباعدة، عندما يهزمني الخوف أراها تراقبني كعيون الذئاب في الليل.

اندفعت مريم وسـط الكراكيب المبعثرة فأصدرتْ صوتًا ملحوظًا، رأيتُ ظلها الكبير يقترب:

"اسمع يا مروان، أنا لا يهمني أن تذهب أو لا تذهب، هذا شأنك أنت تقرره كيفما تشاء".

فشـلت كلماتها في تنعيم جزء من العالم الصخري الصلب الراكد بداخلها، فخرجت الكلمات جامدة، كأنها تعاند نفسها دون أن تدري. سـرعان ما توقفـتْ عن الكلام ولهثت كأنها كانـت تجري طوال الليل داخل غرفتها، أحسسـتُ أن صراخًا يصعد دائمًا ويختنق في حنجرتها قبل أن يخرج، ابتعدت بجسـدها ولم تعد مرئية.

عـادت إلـى غرفتهـا واصطدمـت بالكراكيب مـرة أخـرى، عندما حاولت جذب انتباهي بالصخب لم ألتفت إليها، وقفت بجوار السـلم أنقـل قدميّ وأضعهما في المكان نفسـه، تصبـح ملامحها هي وجهتي الوحيدة، ينتابني فجأة شـعور غامر بالمتعة، أوتار مشـدودة توحد شيئًا مـا فـي كل جسـدي، اندفعت إليها كأنه السـحر في حلـم بهي، أراقب تحركهـا بطرف عينـي، أتأمل حاجبيها المتصلين، وعينيها السـابحتين في غيوم بعيدة، عالم كامل من الدهشـة والفرح والألـم والغرابة، كلما

ابتسمتْ تكورتْ غمازتان وصار وجهها في استدارة رمانة ناضجة، وهلالان معقوصان من شعر فاحم يتدليان خلف أذنيها، والشامة الصغيرة السوداء تتحرك من مكانها كلما تغيرتْ تعابير وجهها، كانت روحي تحتاج إلى تلك اللوحة لأطول فترة ممكنة، وقفتُ أمام ممر بفصل بين عالمين، وعليَّ الاختيار قبل أن تضيع الفرصة.

في هذه الأثناء بالذات، اجتاحني حنين جارف إلى بلدتي لا أعرف منبعه، سأكتب غدًا خطابًا لأمي، يا أمي، يبدو أن كلنا زكريا ولكن بأسماء مستعارة، لقد أُعجبت ببنت مصرية تُشبهك جدًّا، ليست مثل صفية، لا تشرط عليَّ ما يُعجزني لتمنحني ما يُشبعني، سأصطحبها معي في أول زيارة إلى قيسارية، بلدة أجدادي، وذلك بالطبع بعد أن يحررها الجن، فأبي اختار شفيقة، وزكريا انقطعت موارده، وأنا أحدثكِ من هنا.

ألا تحس يا مروان، كيف ترسل لأمك وتقول لها مثل هذا الكلام؟ بدّل هذا الخطاب بخير منه، يا أمي، أنا مروان أقرئكِ السلام من القاهرة، بلد الألف مئذنة، أنا بخير وأرجو أن تبلغي سلامي إلى أبي وأخوي حسن وسلمى، وإن شاء الله يصل زكريا بالسلامة ويطمئن قلبك على الجميع في أقرب وقت، والسلام ختام، إلى لقاء قريب بإذن الله.. ابنك المخلص مروان.

قبل أن أكمل السلامات الطيبات وألصق بلعابي طابع البريد الوهمي، لمحت من خلفي ظلًّا يكبر ويهتز على الحائط، كان ضوء

آخـر خفيف يتسـلل زاحفًا ببطء، هالـة كبيرة من نور بخـاري تقترب، التفـتُّ فرأيتُ مريم تمد يدها إلى المشـكاة، تحمل منها مصباح الجاز وتقترب، شـعرها بلا شـال خفيف كأنه الليل في أحب أوهامه، ويدها بـلا حريرة زرقـاء، يغمرها ضيـاء فيه كل الحُسـن الممكـن والخيال، تأملتهـا، فـي كل نظرة كنـت أرى شـيئًا مختلفًا، تدندن بنغمـات أغنية دون كلمات، صوتها عذب، يتدفق كموسـيقى سائلة، ثم يسود صمت تجـري فيه كلمات أكثر، كان يجب عليَّ في هذه اللحظات اتخاذ زمام المبادرة، لكني لم أفعل، أسمع صوتها يتسلل في نعومة:

"أنا آسفة، كنت أكذب عليك".

تجمـدت نظرتي أثنـاء تأمل ملامحهـا، كانت تلف عنقهـا بمنديل بنفسـجي، تسـمَّرتْ عيني على خدها الأيمن، حيث الشـامة السـوداء الساحرة:

"من البعض نستمد أحلامنا، وأنفاسنا".

قالت، وكان هذا ردي:

"....".

"هُم الحياة".

"......".

"وغيابهم موت".

"..........".

"لا أريد أن تترك البيت، أبدًا، أنا أحبك أنت يا مروان، أنت فقط ولا أحد سِواك".

ثم أخرجتْ من ملابسها مفتاحًا ومدت به يدها:

"هذا مفتاح البيت، فلم يعد لي في الحياة رجل غيرك".

لا أعرف كيف حدث هذا، عندما ضرب ضوء القنديل في ملامحها، لمحتُ لمعان لعابي على شفتيها.

9

تسلل الضوء فأيقظني وقصّ شريط الأحلام، سرب عصافير صغير حط عند أطراف السطح، ودفق من المشاعر لا يجد له مخرجًا، هل رأيت كل ذلك في المنام؟ كنت ما أزال أحتضن في عيني نظرة مريم، نبتت لليوم الجديد ذراعان تمتدان إليَّ، تعِدان بالسكون والحنان، هل هو تعويض متأخر عما لحق بي، هل تعرف الدنيا كل شيء عن رحلتي الشاقة، فأرادت تعطيل المكافأة إلى الوقت الذي تحدده؟

انطلقت شرارة بددت ذكريات الموت البطيء في الصحراء، سطعتْ مشاعر كانت خامدة مدفونة، لم أستطع أن أقاوم ذلك الشيء الناعم الذي يكبر بداخلي، حالة من الغفلة والخَدَر لا أملك ردها أو فهمها. شعرتُ بدوار غريب، لذة تفصلني عن كل الأشياء المحيطة، مع نور الصبح رافقتني الأنغام التي كانت تنبعث بالليل من فم مريم، والضوء المتسلل من كوة السقف، تخيلتها وهي تحمل في يدها شمعدانًا يضيء أمامي الطريق، تغلي مشروبًا أصفر للرضيع فينام، ثم تتفرغ لتحقيق ما أهجس به من تصورات طوال أسبوع مضى، أحس بمضغ نباتات تلامس اللثة فتخدرني، كيف أمكن لمريم أن تنبت بداخلي يومًا بعد يوم؟ كأنني أعرفها منذ ألف عام، قبل أن يبتلع البحر قيسارية، في البداية، كانت مثل عود ثقاب أضاء حيزًا صغيرًا، لكنه بعد قليل مدّ النور إلى كل ما تقع عليه عيني فأكسبه الحياة.

هل جاء موعد الشيء الذي كان يجب عليَّ فعله؟

حاولتُ تأجيل التفكير فيما حدث ليلة أمس، في الصباح ذهبت إلى الأحول لأعمل معه حتى يحين موعدي مع الريس زكريا، إسطبل فرشي ازدانت فيه الخيول وأصبحت أكثر رشاقة وجمالًا، والصبي الذي يغمرها بالمياه والصابون يغني أغنية يعلو فيها النغم وتتوه الكلمات.

"يا نجف بنور يا سيد العرسان

يا قمر ومنور على الخلان".

بعد أيام سيمنحني الريس زكريا خمسين جنيهًا.

طوال الليل كانت يداي تعملان في تحميل السيارات بالبضاعة المتنوعة، أما عقلي فغائب في ملكوت بعيد، أنت تحتاج يا مروان لمن يهتم بشؤونك، يد تقدم إليك مناشف مرشوشة بماء الورد، والقُلة الخاصة بك تُعلق في حبل تيل وهي ناشعة بالماء البارد، ومداساتك تحت الكنبة لا تحتاج سِوى أطراف الأصابع دون بحث، حتى الطعام، تحتاج لمَن يسألك عن الأصناف التي تفضلها..

يختفي فجأة ذلك الشريط الحلو من رأسي، ويومض شريط آخر مُظلم، هل نسيت يا مروان، لقد تركت رفيقين خلف رحلتك المشؤومة؟ لا يجب أن تندمج في متع الحياة، ثم يخرج من داخلي صوت يقول عكس هذا الكلام، الحياة فرصة لن تأتي مرة ثانية، وليرحم الله كل مَن ماتوا.

لاحظ الأحول شرودي وسرحاني.

"مَن الذي أخذ عقلك يا فلسطيني؟"

كان يرشف من شايه ويستظل بشجرة تحمي صلعته من أشعة الشمس، سحب خرطومه ونفث منه دخانًا توسعت له فتحتا أنفه، وضع الخرطوم فوق المنضدة الصغيرة وأشار إليَّ، سحبت كرسيًا وجلستُ قبالته.

"أريد أن أتحدث معك في أمر مهم".

طال الصمت بيننا أكثر من اللازم، شُدت عضلات ظهري إلى أقصاها تحفزًا لذلك "الأمر المهم"..

" أنت صغير يا ولدي، وفلسطيني، يعني تنقصك الخبرة بالـ... والخبرة ببولاق، ولا أريد أن أكون سخيفًا بتدخلي في شؤونك، ولكن، ليعلم الله، أنني ما أردت إلا أن تعيش في سلام لأنك شخص مُخلص ومسالم".

بخَّرت هذه المقدمة كل المشاعر الجميلة التي كنت أشعر بها طوال الطريق.

"في بولاق لا أحد يجهل خلدون، كلهم يندون به علانية، لكنهم يعملون معه في السر".

كنتُ جالسًا فوق أريكة خشبية عالية، بوز حذائي يخربش التراب.. أنظر إلى الأرض وأنتظر مزيدًا من إعلان أمره المهم.

"هذا الرجل يا ولدي يبدو بعباءته ومسبحته وصوته الهادئ أقرب للسلف الصالح كما يصفهم الأئمة في خُطب الجمعة، لحسن حظ...

ام أعمل معه، لكنني شـاهدت بعيني نهايات كثيرة لأشخاص أعرفهم مر المعرفة، كلها كانت بسببه أو عن طريقه".

ثم ينشغل في خرطوم الدخان.

"لا فائدة من وضع المقدمات الطويلة يا ريس، قل ما عندك دون م ويق".

صفق الأحول بيديه الكبيرتين وطلب شايًا.

"خلدون يخطط لطردك، ليس من بولاق فقط، بل من مصر كلها، هذا ما أخبرني به فرجانـي صاحب القفة، فالزبالـون في بلادنا مخزن الأسـرار، معاملاتهم كلها مع الشـغالات والعبيـد، وطبعًا أنت تعرف السبب الذي من أجله قرر ذلك؟"

راودتني لحظة شجاعة كتلك التي تأتي في الأحلام.

"أنا لا أخاف من أحد يا ريس".

فـي تلـك اللحظـة بالذات كنـتُ أرتعش مـن الخـوف، فأنا أعرف طعمـه جيـدًا، ورثتـه عن أبي، يوم أن سـألته، يا أبي، كيـف تطلب مني الا أخـاف وأنـت تخـاف؟ المرتينـة فـي يدك وأنـت تختبـئ في حقل الزيتـون، وكلام المسـاومة فـي عقلك لا يـزال، بقايا الزيتون الأسـود يستخرجون منها الزيت، تتوقف الصفقة إلى المحلج، وعندما تصلك أنباء عن هجوم فرقة الدبابات على المخيم تهرب نحو الزرائب، ومنها إلى مئـات الزيتونات الحبلى بالثمر الأخضر، ترشـق بوز مرتينتك في

الطيـن، تصوبها إلى الأرض، لماذا لم تضرب بهـا على الدبابة وليكن ما يكون؟ سينفذ أمر الله أيضًا لو لم تخف.

أمسكتْ يد الأحْول الغليظة ذراعي وجذبتني لأسفل.

"اجلـس يا ولدي، الكلام أخذ وعطـاء، وأنت، كما قلت لك من قبل، غريب".

رغم النسيم الآتي من النيل بدأت أشعر بصهد يخرج من جوفي.

"سأقول لك ما في ضميري وأرجو أن تتحملني، أنا مثل والدك، مـا هـي صفـة وجودك فـي البيـت بعد غيـاب صاحبـه الـذي ربما لن يعود؟"

وفيما كنتُ أهمّ بالكلام قاطعني:

"صبرك بالله، ليس هذا فقط، بل كيف ستفسر سبب وجودك مع صبيـة مطلقـة ولا أحـد معكما في البيـت؟ يا ولـدي، لا يمكنك إقناع طفل يلهو في الشـارع بأن الأمور تجري داخل البيت بما يتناسـب مع الأصـول، أنت الآن، وأرجـو ألا تغضب، بلا صفة، هل لديك ما يثبت حقك في البيت أو في ابنه الشيخ منصور؟"

غِبـتُ عـن حديث الأحـول بعد هذا الـكلام، أصبـح أمامي مجرد صـورة متحركة، كتلفزيون بلا سـماعات، يفتح شـفتيه ويلوح بذراعيه ويلـوي عنقه، ولكنه لا يقول كلامًا، كنتُ أهز رأسـي عمال على بطال حتى انتهيت من شرب الشاي:

"هل يمكن أن تعطيني اليوم إجازة؟"

ودون انتظار رد تركته وطرتُ إلى البيت، طرقت الباب بنقر مُنغم، اخرجتُ مفتاحي وأدخلته في الثقب، لا أحد بالداخل، مريم، يا مريم، سمعت صراخ الرضيع وقد أهلكه البكاء، رفعته بين ذراعيَّ حتى يهدأ، خرجتُ ألفُ به صالة البيت، بعد قليل رأيتُ الباب الموارب من خلفي ينفتح، وتدخل مريم جريًا.

"كنت أشتري بعض البقالة والحليب".

وضعتْ ما في يدها من شنط، مددتُ يدي بقطعة اللحم التي تفوح بها رائحة الحليب والكراوية، عندما تناولت الحريرة لامست أناملها لحمي، كانت دافئة ومشبعة بحنين ورعشة، عبر النمل جيوشًا منتظمة كل جسدي، تركز نشاطه بطول العمود الفقري، بلغ أذني والفكين، اطبقت كفي على أناملها كأخطبوط البحر، لم تستطع التخلص مني، سحبت الحريرة ومشت باتجاه السلم الخشبي، بقعة الضوء النازلة من الكوة كنت أستمد منها جرأتي في الكلام..

"هنا اعترفتِ، وهنا أيضًا أعترفُ، مريم أنا أحبكِ، وأريد الزواج منكِ".

في اليوم نفسه تواعدنا وخرجنا بعد العِشاء وعدنا قبل منتصف الليل، كان في جيبي إيصال برتقالي، قال لي الرجل المُعمم ستستلم القسيمة خلال أسبوع، شهد معي الأحول ورجل آخر تفوح منه رائحة التوابل.

جلستُ بجوار مريم في عربة الحنطور منشغلًا بخيالات لا حدود لها، لم ننطق بفرحتنا بسبب غياب عم منصور، كانت الفرحة بوجودنا معًا مُعلقة في الهواء الذي نتنفسه، نشعر بها ولا نريد أن نذيع ذلك كلامًا.

نزلنا أمام مسجد السلطان أبو العلا، قبل البيت بمسافة طويلة، سبقتني مريم ولحقت بها بعد قليل، كأنه زواج في السر حتى يعود الغائب، ولتسامحيني يا صفية، جاءتني صورتها عاصفة مثل ارتطام، أخذت أنظر حولي بارتباك، ماذا حدث يا صفية، أبي، ماذا جرى لصاحب الشوارب؟ لم يوافق على زواجنا، عندما فتحت أمي أمامه السيرة سبَّها وقال، لن أزوج ابنتي الوحيدة إلا لتاجر كبير، لديه طين وشجر ومصالح مع القنصل الإنجليزي، أنا بحاجة إليكِ الآن يا صفية أكثر من أي وقت مضى، وأنا أيضًا يا مروان لا أريد سِواك، لكن ماذا سأفعل وقد ضرب أمي وكسر لها الحَلَق؟ هل يمكن أن نهرب معًا يا صفية؟ نهرب، إلى أين؟ لديَّ فكرة يا مروان، فبدلًا من أن نهرب معًا اهرب وحدك، غُص في الغربة سنة، كلهم يغوصون سنة ثم يعودون ليبنوا البيوت ويحوزوا المزارع، وهل عندما أسافر سأعمل سفيرًا لفلسطين في النمسا يا صفية؟ يقول الأستاذ سليم إن مَن يتغرَّب يعمل في الشيل والحط مهما كانت مؤهلاته، وسيخرج في نهاية رحلته بجيوب عامرة بالنقود وشباب منتهي الصلاحية وكرامة مستوردة، لقد قلت لك يا مروان، وعليك أن تتصرَّف، اجعل زيارتي سِرًّا، فلو علم أبي أنني آتي إليك سيكسر رِجلي ويسلط عليك قاطع طريق.

أدركتُ أنني لن أصل إلى أبعد ما وصل أبي، فقررت ترك فلسطين.

طالت المسافة وكرَّت الأيام، وأصبحتِ يا صفية مثل باقة ذابلة من الزهر الأحمر، ملقاة أمامي على الطريق، فقدت رونقها ونضارتها وبدت أقل جمالًا.

عندما دخلتُ البيت لم أجد مريم، كان الموقد ما يزال دافئًا، باب غرفتها مغلق، ومعها رضيعها، خرجتْ بعد قليل، رأيتها أمامي مريم اخرى، كتلك التي كانت تتسرب إليَّ في الأحلام.

"الرضيع نام، وأنا، طار النوم من عيني".

تفحصت الإيصال تحت ضوء نحاسي خافت يرسله القنديل، كانت الفتحة المُوصلة إلى السقف غارقة في الضباب، يظهر السلم الخشبي من تحتها كأنه سبيل للصعود إلى بقايا حلم. لا عين ترانا إلا القطة البيضاء، تموء وتقفز فوق السلم الخشبي، تموء وتجري، في قلب الليل تكف القطة البيضاء عن المواء، عندما ضاقت المسافة بيننا، لأول مرة عرفت أنني أطول منها بنصف رأس، كانت تحمل شيئًا صغيرًا في يدها.

"ما هذا يا مريم؟"

"هذا..."

تفرد كفها وتغمض قليلًا.

"قلم يرطب الشفاه، ويلونها. اشترته لي ماما أمل".

عـادت القطة تموء، وأنا، اقتربتُ مـن مريم، جذبتُ خصرها بقوة، تراخـت قبضتهـا ووقع منها القلـم، فكفّت القطة البيضـاء عن المواء، واختفت تمامًا.

منذ تلك الليلة لم أعد حرًّا في قراراتي، فاتحت مريم في السفر مع الريس زكريا.

"إنها فرصة ممتازة للبحث عن عم منصور".

كانـت تجلـس أمـام الموقد الصغيـر وتلقي بقطع من شـيء أبيض في إناء، انتفضت فوقعت من حجرها بقايا الشـيء، مسـحت يديها في جلبابها واقتربت، ضاقت المسافة بيننا.

"هل ظهرت أخبار جديدة؟"

"رحلـة لمدة ثلاثة أيام بالقرب من سيناء، قـال الريس زكريا إننا سنورد بضاعـة لأماكـن محـددة هـو يعرفها جيـدًا ثم نعود، وسـوف نسـأل عن عم منصور البدو وأصحاب الشـاحنات علـى الطريق، ولو استدعى الأمر فسوف أسأل المقاتلين الليليين وقُطّاع الطرق".

وضعـتُ مـا طهته من طعام وجلسـتُ، حكيت لها عـن حديثي مع الريس زكريا بالتفصيل، كانت تمضغ اللقمة ببطء، وتمضغ معها بعض الأفكار العابرة.

"هكذا سأفقد اثنين يا مروان، أبي وأنت".

وأُهدئ من نبرة صوتي لأطمئنها.

"قـال لـي الريس زكريا إنـه لا خطر في هذه الرحلـة، فهو يعرف التجار ويتعامل معهم منذ سنوات".

تقف اللقمة في فمها، فلا تمضغها ولا تبلعها.

"لـو وافقت فسـأعرضك للخطـر، ولو رفضت سـأفقد الأمل في العثور على أبي نهائيًا".

حين رأت مريم ملامحي راضية عن فكرة السـفر، لم تشـأ أن تنشر جوًا من الضيق بإذاعة مخاوفها، كان العرق ناشعًا فوق ناصيتي، وعيني دانها محشوة بالرمال.

"لا بد أن ترتاح يا مروان قبل أن تفكر في هذه الرحلة".

كنتُ شـاردًا، تقريبًا لا أسـمعها، هل أريد أن أبحث بالفعل عن عم منصور، أم أن بوصة واحدة تُقربني من جسر الزرقا ستفرق معي؟ لماذا أصبـح الوطـن غاليًـا بعد أن هجرنـاه؟ ربما لا هـذا ولا ذاك يا مروان، لمـاذا لا يكون الخوف من تحمل المسـؤولية الجديدة هو السـبب في التحمس للفكرة، ولماذا تسـميه سـفرًا، بينما اسـمه الحقيقي هروب؟ ولمـاذا تثـق فـي هذا الرجل الـذي لا تعرفـه، هل سـتظل حياتك كلها متنقلًا في سيارات لا تعرف شيئًا عن سائقيها؟

وصل بي حد الأسـئلة طُرقًا معتمة، فمسـحت ناصيتي بكمي وعاد إلـيَّ بعض اتزانـي، وهل هي معجزة أن أروح وأجـيء مثل خلق الله؟ ذات مـرة تهـت بالقرب مـن بيتي فلم أشـعر بأي غربـة، وجدتني أمي عالقًا بين أغصان شـجرة في طريق البحر، لم تفعل سـوى أن حضنتني

ونفضت التراب عن قميصي، فقط، ثم عاد كل شيء إلى سابق عهده، وعاد وطني يتمدد بداخلي كما كان.

محت ابتسامة مريم كل الهواجس الهمجية، أخذت تجري خلف الطيور وتمسكها من أجنحتها، تدخلها إلى القن وتقلد أصواتها، بق بق بقاق، تتقرفص وتقوم، تهرول وتقف، لم تهدأ إلا بعد أن حبستها جميعًا، ثم تفرغت لبعض الأسئلة.

"كم ستستغرق الرحلة مع ذلك الريس، وهل عرفت كم ستتقاضى أجرًا؟"

ارتبكتُ، فقد نُسِيت جميع المعلومات من رأسي، لكني سرعان ما استجمعتُ قواي وبدأت أتذكر كل شيء.

"قال الريس زكريا سنغيب ثلاثة أيام، وسأتقاضى أجرًا خمسين جنيهًا".

لم تكن مريم تهتم بالتفاصيل، كانت تريد خلق جسر من الكلام بيننا لأطول فترة ممكنة، حتى ولو سنتحدث عن أي شيء.

قرب الفجر، جلستُ تحت فتحة السقف، وجلست مريم بجواري، أسندتُ ظهري إلى السلم الخشبي ونظرتُ إلى أعلى.

"يا مريم".

رمت رأسها فوق صدري، خللت أصابعي في شعرها الأسود الذي يسقط عليه النور من أعلى فيعطيه لونًا فضيًا، كانت نسمات الصيف

في السَّحر محفزة على السرحان، لمسة من يد مريم تنهي تلك الجولة السريعة، بعد أن أخذني السلم وطار إلى مدينتي التي تتوج الساحل وتلامس البحر.

أخذتُ أعد درجات السلم الثمانية أكثر من مرة، رأيتُ عند آخر درجة الكاميرا اليابانية الرخيصة التي اشتراها أبي مستعملة من سائح يلبس "شورت وبرنيطة"، آلة بلاستيكية سوداء تصنع الذكريات، صورة لي وأنا ألعب في بهو المسرح الروماني المهجور، وصورة أخرى أضع النظارة الشمسية على وجهي لأرى البحر بلون العسل، الدراجة التي تكفل بتوصيل الطلبات إلى التل، والمرتينة التي لم تطلق إلا رصاصة واحدة على جذع الزيتونة، عندما قال صاحبها، لا تظن أن هذه هي التي ستجعل من الأسود أسودًا ومن الكلاب كلابًا، ويرد أبي، أنا أعتبر نفسي مواطنًا فلسطينيًا صالحًا، تمامًا مثل مذيع نشرة الأخبار، لو انفعلتُ مع الأحداث سأفقدُ وظيفتي.

أحضرت مريم جلابية من صوف الكشمير وشالًا مقلمًا، ملابس فاخرة مثل التي يرتديها العرسان في أفراحهم، يفوح منها مزيج غريب من العطر والنفتالين.

"ما كل هذا يا مريم؟"

تمد يدها بالمتعلقات.

"كان أبي يدخرها للمشاوير المهمة والسفر، صغَّرتها على مقاسك عند أبو بلال الخياط".

وضعتهما فوق الكنبة ومالت تحتها، أخرجتْ شنطة مربوطة، سحبتْ منها "بنص" أسود لامعًا، وإمعانًا في الاهتمام بالغتْ في مسحه بيدها العارية.

"وهذا أيضًا، لم تمسسه قدم من قبل".

أحسستُ وقتها أن الحياة تُعلن لي عن شكل آخر أقل قُبحًا.

بعد أن ارتديت الجلابية والشال المقلم ظلت مريم ترقبني بعينيها، كان لنظراتها بريق ووهج، وأنا أطارد خواطر بعيدة.

مدت يدها بورقة.

"هذا رقم دكان أدهم البقال، عندما تصل دق لي تليفونًا".

أخذت منها الورقة دون أن أفتحها، وضعتها في سيالة الجلابية وخطوت تجاه الباب، فسمعت صوتها:

"انتظر يا مروان".

انحنت تمسح بوز حذائي بقطعة قماش، قالت دون أن أرى فمها

"السيارة تجعلك كل ساعة في بلد، لا تصدق العجلات التي تنقلك من عالم إلى عالم، فأنت عالمي أنا وحدي، إن ضايقك أي شيء ارجع لي، أنا فقط أعرف علاجك من جميع أمراض الدنيا".

اعتدل عودها فتوهجت ملامحها، استقر دمها كله في الوجنتين، والشامة السوداء الصغيرة على خدها الأيمن استحالت إلى لون العنب الأحمر، وقفت على درجة سلم خلف الباب، أصبحت تساويني في الطول تقريبًا، قربت وجهها مني فلمعت عيناها وانساب صوتها:

"أعرف أن الدنيا طويلة وعريضة، لكن لم يعد لي فيها غيرك".

أخذت تجذب قبة الجلابية وتشد الشال المقلم وأنا أستعد لفتح رفاص الكالون، انسحبتْ إلى عمق البيت مولية عني وجهها.

"تذكر، أول حرف من اسم حبيبتك كآخر حرف".

تطلعتُ نحوها وتطلعتْ.

"أي إنني أول الدنيا وآخرها يا مروان".

كانت ذراعاها خاليتين من الحريرة الزرقاء، وفوق رأسها قمطة حمراء، رفعتُ كفها حتى مستوى فمي ولثمتها، فطبعتْ هي الأخرى قبلة على ظهر كفي، سحبتُ يدي من يدها، رأيتُ ملامحها مُضيئة وودتُ أن أقول كلامًا كثيرًا من ذلك الذي لا يُذاع، كالأسرار التي يشعر الإنسان بأهميتها كلما غاصت أكثر بالداخل، وقفت في فراغ الباب المفتوح فأضاء الصبح ملامحها.

"إن شاء الله سآتي إليكِ بأخبار حلوة عن عم منصور".

تتردد في التبسُّم قبل أن يقرر لسانها الرد:

"إن شاء الله".

رأيتُ النور الذي طالما حلمت به، النور الذي يجعل الأنثى الواحدة مُعبرة عن احتضان كل نساء الأرض، تجديد الحياة الذي احتاج إليه كلما خَبَتُ وماء الإحساس بحلاوتها، وأذكر أشياء لم أكن افهمها وأنا طفل، يوم أن عقد أبي صفقة مع تاجر سيشتري منه جلود

الغنم ليدبغها، كان التاجر يعد الفلوس وأبي ينظر لأمي نظرة المُنتصر، تلـك النظرة التي تُحس ولا توصف، حين تقـول لغة النظرات، ها أنا، الوتـد الأهم لبقاء الكرة الأرضية في مكانها، وترد أمي بلا كلام، توزع السـمن بأصابعها فوق فطير المسـخن، هذا هو الحُب كما أحسست به وأنا طفل، قبل أن تعرف قدمي أبي الطريق إلى بيت شفيقة.

"خمسة أيام عسل يا مريم".

"خمسة أيام يا مروان".

"مروا كلحظة".

"أو أقل".

عند نهاية الطريق وقفت برهة، التفت بجسـدي كله إلى طاقة النور التـي صغر حجمها بالخـارج وتضاعف بالداخل، فرأيتها واقفة تشـير إلـيَّ بكفها كما يفعل المسـافرون في السـينما، بادلتها التحية ومضيت أشق الطريق الجديد دون أن أنظر مرة أخرى إلى الخلف.

10

توجهتُ إلى المقهى الذي يرتاده الريس زكريا فلم أجده، ذهبت جريًا إلى إسطبل قُرشي، رأيته جالسًا أمام صبي يغسل ظهور الخيل بالماء والصابون.

"كنت أعرف أنك ستأتي يا مروان، ولذلك لم أكلم شخصًا آخر عن تلك المهمة طوال الأيام الفائتة".

جلست فأخذ ينظر بإعجاب إلى ملابسي الجديدة، نفض عن كتفي غبارًا لم يكن موجودًا، سحب نفسًا طويلًا وأخرج الدخان من منخاريه كشلال يعبر كوخين صغيرين.

"أعرف ما تفكر به، لا تقلق يا ولدي، أنا رجل حقَّاني، وأنت لم تعرفني بعد".

نقرتُ المنضدة الألومنيوم بأظافري.

"قلت إنني سأعود وفي جيبي خمسون جنيهًا؟ سأتقاضاهم الآن أم عندما نعود؟"

فرك الرجل كفيه.

"التفلسف في الكلام يضيع الرزق، قُل إن شاء الله".

ترك خرطوم الشيشة فوق المنضدة ورمى ببعض قروش سُمع لها رنين، وضع يده على كتف الصبي الذي يغسل الخيل، أخذ منه خرطوم المياه ورش به صندوق السيارة وسقف الكابينة، ثم التفت إليَّ، الدنيا حر، ولا نضمن ظروف الصحراء.

أشار بيده اليسرى التي حرقتها الشمس، لفَّ خاتمًا كبيرًا في إصبعه.

"لقد جاء دورك يا فلسطيني لتثبت جدارتك".

لم أكن أحتاج لإثبات جدارتي مثلما أحتاج إليها الآن.

"جئتُ إليك في الموعد، لكنني حتى الآن لا أعرف شيئًا عن طبيعة العمل الجديد".

كانت نسائم الصباح منعشة، والشمس تتسلل وتفرش الأرض بالصفرة، والسحاب ينقشع عن السماء بسرعة كأنه دخان الأحلام.

ترك الريس خرطوم المياه من يده.

"سنغيب يومين أو ثلاثة لا أكثر، مهمة نقوم بها على أكمل وجه لنكسب ثقة أصحاب العمل، وهذا أهم ما في الأمر، فذلك سيجعلهم يطلبوننا في أعمال أخرى، فقط إن كنا صادقين معهم".

لم يضف الكلام لي إلا مزيدًا من عدم الفهم.

"وماذا سنفعل في تلك الأيام الثلاثة يا ريس؟ هل سأُحمِّل بضاعة، أم سأقود سيارة، أم ماذا بالضبط؟"

كان سرحاني المتقطع يعطي الريس زكريا أهمية أكبر من حجمه، وبهاء لم يكن في ملامحه، فجعل يسترسل في الحديث ويخطب فيّ:

"هناك أمور تحدث في الحياة مرة واحدة، وما أريد منك أن تعرفه أن تلك الحرب الدائرة فوائدها عظيمة لنا".

"فوائد، الحرب، أي فوائد؟"

"صبرك بالله يا ولدي، أغلب السائقين قرروا، وقد قررت أنا أيضًا معهم، سأذهب لأرتزق بقرشين".

أخرج الريس زكريا علبة دخانه وهزها فلفظت السيجارة المطلوبة من فمها، أشعلها ونظر عاليًا، قال وهو يُطيِّر دخانه لأعلى.

"مستعمرة اسمها عوفيرا، يطلبون إليها إمدادات غذائية، تلك هي المسألة".

"وهذه المستعمرة تتبع أي دولة؟"

أخذ يدور السيجارة المشتعلة بين إصبعيه وينفض نفايتها.

"شوف يا مروان، أنا ليست لي أي علاقة بالسياسة، لا أعرف دولًا ولا يحزنون، كل هذا على رأي المثل في بلدكم، فشنك فشنك وطق حنك، الدولة الجيدة بالنسبة لي هي التي تقدرني وتعطيني حقي دون نصب، ولقد ذهب زملاؤنا إلى هناك وارتزقوا، إن كنت ستركز طويلًا في مسألة الحدود بين الدول وتملأ رأسك بالفرق بين المنظمات والتنظيمات وكل هذا البطيخ، فسأُكمل سيجارتي وأبحث عن غيرك، الرجال يملأون الأرض، ولكنني توسمت فيك خيرًا ورغبة صادقة في العمل".

ظللت أفرك كفي وأروح وأجيء دون مقدرة على اتخاذ قرار، فسألته بعد تفكير:

"وماذا عن الحرب الدائرة هناك؟"

قـام الريس زكريا وتـرك الحجر، جذب قبة الجلابيـة ووضع علبة دخانه في السيالة.

"يا حبيبي، يا نور عيني، الحرب هي موسـم الرزق، ولكن أغلب الناس يتملكهم الخوف ويطغى على كل شـيء، رغم أن الموت نفسـه هيبهـج الحانوتية وينشـئون مـن أجله شـركات التأميـن، فعندما تقوم الحرب في شارع، ستجد الناس في الشارع الموازي له يعيشون حياة عادية، يأكلون ويشربون ويرقصون، لا تضيق علينا الحياة يا فلسطيني، فنحن سنرتزق في الشارع الموازي وليس الذي فيه الحرب".

كان كلامه غريبًا، سألني فيمَ كنتُ سارحًا:

"من أي منطقة أنت في فلسطين؟"

احترت، هل أقول من قيسـارية، القرية التـي طُرد منها أجدادي، أم من جسـر الزرقـا التي ولدت فيهـا، أم من مخيم الوحـدات الذي كان آخر شـيء تركته في فلسـطين قبل مجيئـي؟ اخترتُ فـي النهاية تاريخ أجدادي البعيد.

"من قيسارية".

"لـم أسـمع عنهـا من قبـل، لكن كل إنسـان تكـون بلدتـه عزيزة ولا تشبه البلدات الأخرى، حتى ولو لم يسمع عنها أحد".

وأسرح من المكان كله، يخرج صوتي دون أن أدري:

"كانت قريتي تتوج الساحل وتلامس البحر".

"دعنا من الذكريات التي لا تعمر الجيوب، إذا قررت السفر معي
، خوض المغامرة فأنا جاهز لها، ولو فضّلت الجلوس هنا في سلام
فلا تشغل بالك بأي شيء آخر".

وقفتُ وأسندت ذراعي إلى صندوق السيارة، رفع الريس عمامته
قليلًا وحك ناصيته:

"هناك نسبة مغامرة يا ولدي، لكن منذ أكثر من أسبوعين
، السائقون يروحون ويجيئون ولم نسمع أن أحدهم فُقِدَ أو حتى
.سحِبتْ منه رخصة، فالمغامرة ليس معناها أننا سنذهب لنموت،
، المغامرة هي أن الدنيا دائمًا ليست شيئًا مضمونًا".

وأرى أمامي المسرح الروماني، يوم أن نصبوا خيمة في البهو
ايقدموا العرض التمثيلي، في العام 1960 كنت في الثانية عشرة،
ألبسوني بدلة واسعة تاه فيها جسدي الضئيل، وبرنيطة من قش، وقالوا
لي ستلعب دور جنرال إنجليزي، لزقوا لي شاربًا ووضعوا في حزام
بنطلوني مسدس خشب مدهونًا بالورنيش، لا أذكر دوري وماذا كنت
أقول، جملة واحدة فقط علقت في ذهني وتمردتْ على النسيان "لا
تجمَّعوا هكذا، تفرَّقوا، تفرقوا" فيهيج الأطفال الملزوق لهم الشوارب
الكرتون، كان اسم المسرحية عدالة السماء، فبعد ظُلم الجنرال طارده
الأهالي حتى أردوه قتيلًا، وأخذ الأطفال، الأهالي، يدورون حولي
، يقولون، انظر دائمًا إلى أعلى، وتذكر أن العَدل أعلى وأعلى وأعلى.

قام الريس زكريا ونفض جلبابه، توجه صوب سيارته، فرشت
مقعدته الكبيرة كرسي القيادة، أشار إليّ من الشباك، ثم تحرك بالسيارة

وتركني لا أعرف أي الطرق أختار، العودة الآمنة للبيت، أم طريق المغامرة في رحلة لا أعرف تفاصيلها.

قبل أن يغيب الريس زكريا مثلما حدث مع أبي الخيزران، هرولت خلف سيارته، واصلتُ الجري حتى لحقت بها عند سوق السبتية.

عندما رآني الريس ضحك ملء فمه.

"كنت أعرف أنك ستأتي، ولذلك أبطأت في السير، أهلًا بك في رحلة الرزق الوفير يا مروان".

أخرج من سيالته زجاجة صغيرة وبدأ يرشف منها على مهل.

"هل تذهب إلى مثل هذه الأشغال كثيرًا؟"

أنزل الزجاجة الصغيرة عن فمه.

"حسب المعلوم، الفلوس هي التي تحدد مشاعري تجاه كل شيء، لا يتسبب في دبّ الإنسان على بوزه إلا شيئان، الفلوس والنساء، نجمع الأولى لنضيعها على الثانية، هي الحياة ولن تتغير، عندما تصبح على مشارف الخمسين مثل محسوبك..."

يضرب صدره بقبضته.

"ستعرف أنه لا يبقى من الدنيا بعد طول جري إلا هاتان النعمتان فقط، وكل ما تحسبه مُهِمًّا ستدرك بعد ذلك أنه لا يبقى طويلًا في الدماغ".

أسرح في الكلام ولا أرد.

"ستقول عني شيطانًا، أليس كذلك؟ أعرف طريقة التفكير هذه، فقد كانت مُفضلة لديَّ وأنا في مثل عمرك، ولكن تذكر يا ولدي، الشيطان نفسه كان ملاكًا ذات يوم".

نظرت إلى الطريق، ثم ما لبثت أن عدت مرة أخرى أسأل قائدي الجديد:

"وهل ستتقاضى مثلي خمسين جنيهًا من هذه الشغلانة؟"

ضحك الريس وأخذ يضرب مقود السيارة ببطن يده.

"يبدو أنك بعيد عن اللف والدوران، ولذلك، فسأقول لك الحقيقة وأرجو ألا تغضب، لقد اتفقت على هذا المشوار بمئتي جنيه، ذلك خلافًا عن البنزين، هم مَن يحتاجونني، ومَن يرد الرطب بهز النخل، لا أفعل ذلك لوجه الله طبعًا، فأنا آخر شخص في الدنيا يمكن أن يفكر بهذه الطريقة، أنا لا أساعد إلا نفسي".

كان طوال الطريق يبتسم، يستبق كل ما سيحدث بالسخرية منه مقدمًا.

"جمع الفلوس ورميها في أحضان النساء ليس له نهاية، فهو متعة في حد ذاته، لذلك قررت العمل بالتجارة، الكلام فيها يتحول إلى جنيهات في لمح البصر".

"هل أنت متزوج يا عم زكريا؟"

"كنت، تزوجت ولم أجد في هذا المشروع أي فائدة، كل ما فعله أنه قتل بداخلي أشياء كانت جميلة".

تركنا شـوارع القاهرة العامرة بالمسـاكن والسـكان، وقطع الريـس زكريـا بالسـيارة مسـافة طويلـة في طريق السـويس، مدقـات الجيش، أجولة رمال تخرج من خلفها مواسير البنادق، وتماثيل لجنود يحملون الأسلحة بجسـارة، الشـوارع صامتة والريح تصفر، فلا يُسمع إلا أزيز العجلات وهي تسلخ الأسفلت السـاخن.

"لـم تقـل لي، هـل أنت فلسـطيني من الذيـن يريـدون لليهود أن يتركوا الأرض ويعودوا إلى حيث أتوا؟"

تعجبت من سؤاله:

"وهل يوجد فلسطيني لا يريد ذلك؟ أنت تتحدث عن الفلسـطينيين كأنهم طائفة تريد تأسيس نقابة".

نقر المقود بأطراف أصابعه وهو سارح.

"ولكن لا تؤاخذني يا ولدي فيما سأقول، فاليومية داخل إسرائيل ثلاثـة أضعاف اليومية داخـل الأراضي الفلسـطينية، وأنا أعرف بعض العمال الذين لا يستيقظون من النوم إلا إذا كان العمل في إسرائيل".

زفـرتُ بغضـب، وعرفتُ فـي تلك اللحظة شـيئًا مهمًـا، أن الناس لا ينظرون للفلسـطيني بطريقة واحدة، فمنهم مَن يراه مغلوبًا على أمره شـريدًا، ومنهم مَن يراه بائعًا لأرضه خائنًا يسـتحق الشنق، ومنهم أيضًا مـن هُم مثل الريـس زكريا، ينفخون فـي مثل هذه القصـص والأخبار حتى يجعلوها تلامس الحقيقة.

"مَن قال لك هذا؟"

يضحك القائد.

"أنـت لا تـزال صغيرًا، وهناك أشـياء كثيرة لا تعرفهـا، فمثلًا، لو تركـوا لكـم الأرض غدًا، سـتقفون عاجزين عن العودة لمـا كنتم عليه من قبل، وسـيحتاج هذا الأمر عشـرين عامًا أخرى لتتآلفوا مع الوضع الجديد، سـيولَد خلال تلك السـنوات مَـن يولد ويمـوت مَن يموت، وتكـون الدنيـا قد أصبحتْ غيـر الدنيا، حتـى أنت، هه، أنت نفسـك، ستصبح شخصًا آخر".

كان ينظـر فـي عينـي مباشـرة بجـرأة غريبة، لـم أرد عليه، ويسـود صمت.

أخذت السـيارة تقفـز في طُرق غير ممهدة، عبرنا دُشـمًا عسـكرية ومراعي غنم ومزارع مهجورة.

أردتُ تغيير تلك السيرة، فمهما تكلمت لن يفهم.

"لكـن هـذه الرحلة بها شـيء مـن المخاطـرة، وأنت تقـول إنك صاحب مزاج، فهذه المغامرة ليس فيها نساء".

"ألم أقل لك بأنك ما زلت صغيرًا، النساء ليسوا بالخارج، لكنهم هُنا".

وأخذ يملس فوق صدره.

كان منشـغلًا بأسراب طيور تعبر الأفق، أخرج علبة دخانه ومد يده لي بواحدة.

"أنا لا أدخن".

يصر الريس فأتناولها منه.

"التدخين ربما كان عادة سيئة على صحة الجسم فقط، أما في الخيال، آه يا ولد، هو غرام، كل السائقين بدلوا الكبريت بالولاعة، أما أنا، فأحب الاحتكاك الذي يصنع الشرر، يمر العود على الشطاطة مرة ومرتين حتى يشتعل، أنا أعتبر نفسي عود الكبريت، وكل نساء العالم مجموعة من الشطاطات، عندما يسخن العود ويبدأ بالاشتعال تقوم في رأسي الحرائق".

يضحك والسيجارة على جانب فمه، تهتز ويلاحقها بالنار، ثم يمد يده بالعود أمام وجهي دون أن ينظر إليَّ، أسحب نَفَسًا وأسعل، تدمع عيني ويضحك الريس من جديد.

"الولاعة مملة لأنها متاحة طوال الوقت، تمامًا مثل الزوجة، أما العود فيحترق ويذوب إن لم تحسم قرارك بسرعة".

وقع رماد السيجارة على ملابسي، لم أكن متدربًا على نفضها بالخارج كما يفعل الريس زكريا.

بدأت أحب رائحة التبغ، فهي بشكل ما رائحة الرجال.

طوت السيارة الطريق بسرعة شبه ثابتة، أمامنا وخلفنا لا توجد سيارات تقريبًا، شريط الأسفلت لا نهاية له، يبدو كأنه يلتحم بقوس الكرة الأرضية، لم أرَ إلا الرمال والجبال وصفحة السماء، بعد قليل

ظهـر البحر في الأفق، ازداد الهواء تدفقًـا وتلطف الجو قليلًا، فأعدت السؤال على مسامع الريس:

"وهل يوجد في المخاطرة أي مزاج؟"

ينهي آخر نفَس من سـيجارته، ثم يطيح بالعقب من الشـباك بشكل تمثيلي، يضغطه بين سبابته وإبهامه، ثم تطيح به السبابة، يختفي العُقب في الفراغ ويلتفت الريس زكريا إلى يمينه.

"شوف يا مروان، الحياة بلا مخاطرة كالدواء المُر، دعني أقُل لك أولًا، إنـك في كل طُرق الحيـاة دائمًا تمر بين طلقتين، وتصبح نجاتك هي الأعجوبة والمتعة في الوقت نفســه، دائمًا الحياة فرصة، لن تتكرر حتى ولو دخلنا الجنة، سوف أعود إن شاء الله بعد هذه الرحلة وأرتمي في أحضان النسـاء من جديد، سيشتعل مزاجي أقوى من عود الكبريت الذي أشعل السيجارتين".

يضحك، تدمع عينه ويمسحها بكم جلبابه الواسع.

"ربمـا لا يـبدو ذلـك علـى مظهـري، الشـباب فـي مثـل سِـنك لا يصدقـون أن كبـار الســن أمثالـي كانـوا يعشـقون ذات يـوم، أعرف ذلـك جيدًا، لكـن يجب أن تكون ذاكرة الإنســان قوية، فضعيفو العقل فقط هم مَن يعتقدون أن العجوز وُلد عجوزًا".

أخذ ينقر عجلة القيادة بكفه السمينة ويدندن أغنية لا أعرفها.

"تبدو من احمرار وجهك أنك من أسرة ميسورة".

يشير الريس بسبابته إلى صدره.

"أنا؟"

يضحك بصوت رنان، شعرتُ أنه يتألم من شدة الضحك، بعد أن هدأتْ ملامحه تأملني كأنه يحلل شخصيتي.

"لقد وجدت نفسي مع تسعة أشقاء، كلهم ذكور وأنا أصغرهم، وأب لا يحب زوجته، كنا نذهب أنا وأخي الذي يكبرني مباشرة نطلب قرشًا من أبي، فيخترع لنا مهنة أصبحت يومية، نتناوب عليها مع أشقائنا الآخرين، يناولنا سلة فارغة ولا يعطينا نقودًا، ثم يشرح لنا المطلوب، نذهب إلى الأسواق أواخر النهارات، في عقب السوق البضاعة رخيصة، لكننا لا نملك النقود مهما رخصت البضاعة، ننتظر حتى تفسد الخضراوات والفاكهة، ويلقي بها البائعون بجوار صناديق القمامة، فنُعبئ منها ما استطعنا حمله، تنتقي منه أمي ما يصلح لإطعام كل هذه الأفواه المفتوحة، تعلمت الدرس القاسي من أبي، فالرجال لا يشعرون بمعنى الحياة إلا عندما يمتلكون أموالًا أو يعشقون، وأبي لم يكن هذا ولا ذاك، الزواج المقترن بالفقر جعله يرتدي الخِرق ولا يطيب له التودد للنساء، وذات صيف، جاءنا رجل غريب في ملابس قسيس، قال لأمي، جبر الشلقامي تعيشي أنتِ يا ست، وأخذنا جريًا ونحن حفاة لنرى أبي ممددًا في مستوصف طبي لكنيسة، همس القِس في دائرة شكلتها رؤوسنا، طِبّ ساكت في الشارع، وكنا أقرب إليه من أي مكان، شدوا حيلكم يا أولادي، شدي حيلك يا ست، ومن يومها يا مروان، لا أريد أن أكون مثل أبي، أهرب من مصيره قدر

استطاعتي، أما أمي فقد ماتت ودُفنت وأنا في السفر، عدت إلى البيت أفكر فيها كما يفكر شخص في حلم، وإخوتي، لم تعد لديَّ أي علاقة بهم، كل واحد منهم في دنيا مختلفة عن الآخر".

أشعل سيجارة لنفسه دون أن يعطني واحدة حتى يستطيع أن يُكمل:

"بعد أن تخطيت الثامنة عشرة بدأتُ أشعر بتغيرات عجيبة، كأنهم أصبحوا فجأة يرشون حلاوة على البنات وعطورًا، وبدأت احب فجأة أن أستمع إلى ضحكاتهن في مجالسهن، والتلصص على أصواتهن الساحرة، فأشم رائحة جُمار النخل في أعناقهن، وأتخيل روحي تطلع وأنا أكافح فوق صدر إحداهن، وفعلت مثلما يفعل الشباب، تزوجت، وانتهيت مثلما ينتهون، مللت، وتبدلت كل الصفات الجميلة في زوجتي، لم يعد أي شيء يغريها فيَّ إلا جيبي، ولا يخرج كلامها الحلو إلا عند الصائغ وهي تفاضل بين أشكال الغوايش ومقاسات الحلقان، بعد سنة واحدة لم تعد زوجتي تهتم بي، أو بالأدق، لم تعد تهتم بمطالب الرجل، كانت بلهاء، تعتقد أن للرجال كلهم مطلبًا واحدًا، ولا تولي أي اهتمام للطقوس، فلا تغسل أسنانها بمسحوق الطوب الأحمر كما كانت تفعل قبل الزواج، وتنام في ثوبها الذي تطبخ فيه وتعرق، لا تعرف شيئًا عن تنظيف وجهها بالحلاوة مثل النساء، وكان من الصعب أن يفاتح رجل زوجته في مثل هذه التفاصيل، نصف ما أعمل به كنت أرميه في حجرها، ودائمًا يصاحبه إحساس بالذنب، والنصف الآخر أذهب به إلى العوامات، أسهر

وأُعبِّر عن نفسي فتعلو الكهرباء في مخي وشراييني، مع مرور الوقت تحول البيت إلى لوكاندة، لا أكل ولا كلام، فقط نوم في نوم، وحتى في المنام أحلم بنساء العوامات، أجساد طرية كالملبن وأصوات ناعمة كالحرير، وبدأت أعرف شيئًا جديدًا عن نفسي، أنني مخلوق من أجل المغامرات، وأن الحياة المملة تقتل في نفسي كل الأشياء الجميلة".

كنت أتابع الطريق بطرف عيني، وأستمع إلى كل هذا الكم من التفاصيل بنصف وعي، والطريق طويل لا ينتهي، فأشرد في جوانب أخرى من الحياة، أفكر في مريم وعم منصور، في أمي وأبي، في أسعد وأبي قيس، يتداخل ما أقوله لنفسي بما يحكيه الريس زكريا، فيصنع الخليط إحساسًا غريبًا بالخدر ورغبة طاغية في النوم.

كنت أرى الطريق بعين مُتعبة، لقد شهدتُ مفاجآت بما فيه الكفاية، وكأن كيانًا هائلًا مد لي يده وقال "لدينا كل شيء فهل تأتي؟"، بكيتُ فجأة بلا سبب، أو بسبب كل شيء دفعة واحدة.

عدت للهروب من نفسي مُجددًا، وشعرتُ أن من خلفي شيئًا ما لم أفعله على أكمل وجه، ربما كان هذا الشيء أنني قَبِلتُ العودة إلى الحياة؟ وتعاود الأسئلة نفسها المرور، مثل إبرة الخياط في الثوب، هل كنت على صواب عندما اتخذت قرار ركوب سيارة أبي الخيزران منذ البداية؟ الخبز لم يبقَ منه إلا الفتات في قعر العيَّاشة، كان لا بد لي إذن أن أسافر، فحين يتعلق الأمر بالرغيف لا أحد يستطيع أن يُخطئ، فالحقائق الكبيرة لا يحتاج مجيئها إلى مناسبات، وعندما حدث لي ذلك الشيء الغامض الذي هو العودة إلى الحياة، انقلبت أيامي رأسًا

ملى عقب، أصبحت أحيا بنصف روح، بربع روح، تمتلئ راحتاي بالعرق كلما ذُكِرت سيرة الموت، وها هي الحكايات تتكاثر مرة اخرى.

سعلت ومسحت وسخًا تحت أنفي وسرحت، في تلك اللحظة تمنيت لو أسْتلُّ روح أبي الخيزران من عروق رقبته، فما الذي سيحدث إن فرغتْ العيَّاشة من الخبز؟ كان من الممكن أن نُكمل أيامنا التالية من الطابون، أمام بيت النار، يقف الفرَّان غائبًا عن الدنيا، يلقي بالنقضة تحت طاولة كبيرة، ما المانع لو أكلناه بوجه محروق أو قعر مبقور؟ الأرغفة الأربعة بثمن واحد من فوق الطاولة، ألم يكن ذلك في بلدتي أفضل من تلك المساومات؟ ولكن ما ذنب أبي الخيزران لأُزهق روحه؟ ألم يكن الرجل يمارس عمله ونحن الذين وافقنا على شروطه؟ السبب هو أبي، لو لم يترك البيت كنت سأشعر ببعض الاستقرار والرضا، لا ليس أبي، شفيقة هي السبب في كل ذلك، فلو لم توافق على أن تصبح زوجة ثانية كان سيعود إلى أمي ويعتذر لها عما مرَّ بخاطره، أنا غير متأكد من أن شفيقة هي السبب فيما حلَّ بي، فالمرأة على مشارف الأربعين، والعمر يجري لو لم يلحق به صاحبه، صفية، لا، ليست صفية، فأبوها صاحب الشوارب هو سبب كل المصائب، لا بل أبو قيس الذي وافق على خطة تهريبنا في الصهريج، لا، الرجل صاحب المرتينة، بل منصور الذي جلبني إلى هنا، لا ليس هذا أيضًا.

طن رأسي بالعبارات الغاضبة، هذا ربي هذا أكبر، ليس هكذا يكون البحث عن الأسباب.

دائمًا يا مروان تشعر بالذنب، وكأنك نسيت أن تفعل شيئًا ما.

توقف الريس زكريا محاذيًا جانب الطريق، في ظِل سور طويل ركن السيارة، نزل يطرقع ظهره ويسحب في يده لفافة كبيرة، جلس على حافة الصندوق ووجهه عكس اتجاه السير، تدلت قدماه فجلست إلى جواره، فتح لفافة سندوتشات تحتوي على أصناف كثيرة، كان سخيًا معي، سجائر لا يغيب دخانها وطعام من شتى الأصناف وحكايات لا تنقطع، كان يحكي لي عن خرافات لا تخطر على بال جدَّة متفرغة لتربية أحفادها، ويُقدم إليَّ النصائح دون ملل:

"الجزء الأفضل من الحياة يمضي سريعًا، الجزء الذي أنت فيه تمامًا يا فلسطيني، استمتع بحياتك ولا تسأل كثيرًا عن الأسباب، الشهوة وحدها قادرة على تفكيك كل شيء وحل جميع المشكلات، وعندما تغرب عن الإنسان، يستطيع أن يتقبل فكرة الموت بنفس مُطمئنة".

كنتُ أتفاعل معه بنصف تركيز، فالنصف الآخر يحدد طعم ما أدسه في فمي من طعام:

"ذات مرة فكرتُ في سرقة بنك لإرضاء نزواتي مع النساء، لكني لم أكن مؤهلًا لاستمرار التفكير في هذا الأمر".

أثنـاء اندماجنا في الطعام وتأمـل الرمال المحيطة بنا من كل جانب ،حنـا جنديًا يقترب بخطوة عسـكرية جادة، يحمل سـلاحه ويلوح به ي انجاه السير، فهمنا أن الوقوف هنا ممنوع بأمر عسكري، نزلنا جريًا ي جري ونحن نحمل ما تبقى من طعام، دور القائد المحرك وتهادت السيارة حتى أخذت سرعتها.

طوال مدة الطعام لم نتكلم، فضَّل الريس زكريا حشـو فمه بالطعام .بلًا عن الكلام، وأنا، كنت قد اقتربتُ من حالة نوم مكتملة الأركان، ،سقط رأسـي على صدري فيقـع فتات الطعـام فوق الشـال النظيف، . عدني الريس في كتفي.

"فتَّـح عينك يا مـروان، اضحَ، الطريق طويل، لو اسـتمر وضـعك هكـذا فلديَّ حـل أمثل في ثلاث خطوات، الخطـوة الأولى أن أحكي لـك حكايـة، فإن غلبك النـوم أيضًا سـأقذف بالماء في عِبـك وقفاك، وإن تملـك منك النعاس فليس لديَّ سـوى الحل الأخيـر، فرملة قوية نحل وسطك وتجعلك تنطح الزجاج".

"أين نحن الآن؟"

كنتُ أحاول الاندماج في الكلام من جديد وأصحصح نفسي.

"لقـد تركنـا الآن سـيدي غريـب وسـندخل بعـد قليـل ميناء السُّخنة".

قبـل أيـام قليلة كنتُ أحسـبُ أن قيـادة السـيارات لغز كبيـر، الآن يمكنني إزاحة الريس زكريا وأحل محله بمنتهى السهولة.

وقبـل أن أكمـل تأملاتي في عجلـة القيادة والفتيس وتـوازن القدم بيـن الدواسـات، سـمعتُ دبًّـا رهيبًا، كمطـارق تنزل من السـماء تدق الأرض، علق قدمه بسـرعة على دواسـة الفرامل، التفتنـا خلفنا، فرأينا حاجـزًا حديديًا كبيرًا يحجب عن أعيننا الأفـق والرمال، نظرت أمامي فلمحـت مدرعتيـن ضخمتيـن تغلقـان الطريـق، توقفت الأفـكار في رأسي، وتحجرت عيني.

غابت الشـمس ولـم أرَ في الطريق إلا ظلالًا رمادية وسـماءً بعيدة، توقفت السيارة بين جبلين، بدت الشـمس أقل إضاءة، والليل يقترب بسرعة من كابينة القيادة.

11

رفعتُ يديَّ عاليًا، أجبرني على ذلك تصويب ماسورة بندقية إلى رأسي، بجواري كان يقف الريس زكريا ويضع يديه فوق رأسه أيضًا، صَمَتَ وتبخرت كل شجاعته الكلامية، المكان الذي استوقفونا فيه كان واحة صغيرة تحيط بها سهول رملية، وعلى بُعد أمتار قليلة، حمار يشرب من ينبوع فوّار، يحدثنا رجل يرتدي ملابس عسكرية بلغة عربية مشروخة، يعلق في رقبته سيرًا ينتهي ببندقية سوداء لها فوهتان عظيمتان، اسمك؟ ويرتعش صوت الريس:

"زكريا جبر الشلقامي".

"وأنت؟"

"مروان يحيى سعيد".

يكتب المُسلح في دفتره ويأمر جنوده بدفع سيارتنا بعيدًا عن الطريق، ثم يشير لأحد زملائه فيقترب، يتحدثان بصوت هامس، ينصرف زميله ويشير إلى الطابور، أكثر من عشرين رجلًا أُبعدوا عن سياراتهم ودوابهم، يتبعونه وهم يشمشمون في ظهور بعضهم بعضًا، يستقر بهم المطاف في مدرعة رابضة تحت سفح جبل، يفتح أحد الجنود مؤخرة المدرعة ويحشوها بالرجال، ثم يغلق الباب، عرفتُ بأنها بدأت تتحرك عندما اهتززنا بالداخل.

توقف الجوف الذي يقلنا، همدت الحركة ولم ينقشع الظلام، فتح أحدهم المؤخرة الحديدية فلفظت الرجال ونحن معهم، أمرنا

أحد المسلحين بأن نخلع ملابسنا، وقفنا جميعًا أشباه عراة نرتجف، لم يطلب منا المُسلح أن نتنازل عن المزيد من الملابس، رفع سِجلًا كبيرًا في يده وبدأ يتلو علينا المكتوب، لم يحمل صوته سوى بيانات عن المقبوض عليهم، عندما جاء نصيبي من السجل وسمعت اسمي خرجت عن الصف، وقفت بملابسي الداخلية، ظهري للجبل ووجهي للرجال، عندما اكتمل الصف وقف شخص آخر يخطب فينا:

"أنتم هنا الآن ليس بإرادتكم، وهذا أول شيء نريد منكم أن تحفروه في أدمغتكم".

انسلختُ عن الصف وقلت رأيي:

"نود فقط أن تُعرفونا لماذا نحن هنا أصلًا؟"

دوى القلم على وجهي في لحظة.

"ارجع إلى صفك وإلا دُفِنت موضع قدميك".

يشير الرجل الذي يرتدي الملابس العسكرية إلى باقي الرجال، وقبل أن أعود إلى الصف سمعت صوتًا من خلفي:

"ها، أنت، تعالَ".

أرجع إلى صاحب المسدس ورأسي مدفون بين منكبي:

"إن أردت أن تنجو ببدنك فلا بد أولًا أن تعرف كيف تسير الدنيا؟ هيا، اذهب، هيا".

أنظر حولي وألفّ دورة كاملة بكعبي، يقترب مني الرجل مرة أخرى:

"هـل تعتقـد أنني سـأصدر أوامري وأقـول لهم، أعطوه ملابسـه واصرفوه لأنه غبي؟"

لم أجـرؤ على الرد، كنت أتأمل الواقفين في الصف، وهم يتأملون الفراغ ويرتجفـون، كل جـزء مـن الثانيـة تتدافـع الأفكار إلـى ذهني، أتابـع الرجل الذي ضربني وإصبعه معلقـة على زناد البندقية المُخيفة، سمعت صوته:

"إن لم تلتزم بالوقوف في الصف."

ثم لم يقل شـيئًا، فرقع المُسـلح عبوة ديناميت في الجبل، أصبحت اسـتجابتي لما يحـدث بالخارج بطيئة، أتابع المشـهد كلـه وكأنني في حلم.

زاد شـعوري بالذنـب، وترسـخ إحساسـي بأنـي نسـيت أن أفعـل شيئًا ما.

خرج رجل من كابينة خشـبية مطلية بالأسـود يظللها جبل، سحب مسدسـه من جرابه الجلـدي وصوبه تجاه الواقفين، كان يشـير به أثناء الكلام فيرتعش في يده، لمحت بطرف عيني أسراب غربان تحوم فوق رأسي، وخُيل إليَّ انتشار قطع فضية بحجم العملة في السماء.

وقـف صاحب المسـدس خلفنا، كنا نرهف السـمع لدقات حذائه علـى الخـط الفاصل بيـن حافة الأسـفلت وحدود الرمـال، تك، تك، أغـوص فـي داخلي، والريس زكريـا لا ينظر إليَّ أبدًا، يمشـي صاحب المسدس ببطء مقصود، وقف أمامنا وأشار بطول ذراعه.

"فـي هـذه الصحراء رمـال تكفـي لمليون قبـر، لن نعـدم الحبلـ
إن أردنـا دفن عشـرين رجـلًا، نعلم أنكـم مدنيون، ولا ذنـب لكم في
الحـرب، ولكـن في تلك الحرب أيضًـا أُخذ الكثير مـن رجالنا، وأنتم
مَـن سـتعيدونهم إلينا، ولكـن إلى أن تسـتجيب حكوماتكـم لطلباتنا،
ستقومون ببعض الأعمال الخفيفة".

قال صاحب المسـدس ثم اختفـى عن المكان، وفُرِشَ الأسـفلت
بمسلحين آخرين، خرجوا من تحت الأرض.

وقفنـا ملتصقين في طابور، كان الريس زكريا يقف خلفي مباشـرة،
فحّ صوته في قفاي:

"لا تصدقهـم، فـلا توجد لديهم أعمال خفيفة، سـيجعلوننا نزرع
ونحصد ونحفر وتردم حتى نموت في هذا التيه".

التفت برأسي قليلًا:

"وما الحل يا ريس؟"

خرجت الكلمات من تحت ضروسه:

"اتبع ما سأقوله لك تنجُ بنفسك".

خـرج الريس زكريا نصـف خطوة عن الصف، فاقترب منه مسـلح
تبتلع نظارة شمسية سوداء نصف وجهه.

"كنت أريد أن أُري سعادتكم شيئًا، فنحن لسنا أعداءكم يا سعادة
السيرن".

لا يرد المُسلح، يدخن سيجارة وينفث دخانها في وجوهنا، يبتسم الريس وهو يستنشق الدخان المندفع إليه.

"اسمح لي فقط بالتقاط ملابسي، ففيها جميع الإثباتات".

صرّ المُسلح أسنانه.

"وأين ملابسك؟"

أشار إليها الريس بيد مرتعشة، فصحبه المُسلح وفوهتا البندقية مصوبتان إلى نافوخه:

"يا سعادة السيرن أنا رجل محترم، عملت في هذه المنطقة والمناطق المجاورة لها فترة طويلة جدًا، أعرف أيضًا أننا قريبون جدًا من عيون موسى، وبعد قليل سنمر على خان الحجاج وبيوت المصيفين، أنا أعرفها والله، وأقيسها أيضًا، فمحسوبك، سائق للسيارات الكبيرة، بالأمارة نحن نبعد عن السويس من هنا مسافة...".

يقاطعه حامل السلاح:

"إن استمرتْ ثرثرتك طويلًا، فسأقتلك قبل أن تصل إلى ملابسك".

يصيب الخرس الريس زكريا حتى يصل إلى كومة الملابس على بُعد خطوات، عندما يرى صدريته يجثو وينكب فوق محفظته، يرفعها بين يديه، ثم يُخرج منها إيصالًا أصفر.

"ها، هذا هو سعادتك".

يفرد المُسلح الورقة ويخلع نظارته الكبيرة:

"آه، عـ.. و. فيـ را، هذا إيصال تسليم مهمات".

"تمام جنابك".

يغمغم المسلح:

"آه. وهل هو مختوم؟"

يعلو صوت الريس زكريا:

"يـا جنابـك أنا رجل محتـرم، لا أحب الحروب ولا سـيرتها، أنا رجل سلام".

مـد يده بحـرارة للمسـلح، فصافحـه الرجل ببـرود، قلـب الريس الإيصال الأصفر وغرز سبابته في الورقة.

"هـا، هذا هو الختم، تأمله جيدًا سـعادتك، هـو باهت قليلًا لكنه موجود، اذهب إلى الظل، هه. سيتضح أكثر.."

"اخرس قليلًا حتى أستطيع التركيز".

يصمت الريس وينظر إلى حذائه، يتأمل المسلح الإيصال جيدًا.

"وهل هذه هي أول مرة تخدم في المستعمرة؟"

"أول مرة جنابك".

ابتعد المسـلح حتـى التقى بزميل لـه، أطلعه على الورقـة الصفراء وأخذا يقلبانها طويلًا، ثم عاد المسلح الأول بالإيصال.

"تمام، هيا، ارتدِ ملابسك واذهب، وسوف أعطيك إيصالًا آخر مختومًا لكيلا يعترضك أحد في الطريق".

لا أذكر هل انحنى الريس زكريا على يد الرجل وقبّلها أم همَّ فقط بذلك.

"أشكرك، أشكرك، يا سعادة السيرن".

ثم أشار بطول ذراعه إليَّ.

"هذا الشاب أيضًا كان ذاهبًا معي إلى عوفيرا".

تأمل الضابط الصف.

"يعمل مساعدًا لي".

"اذهب وأخرجه عن الصف".

عبر الريس زكريا الأسفلت وهو يفط.

"مروان، يا مروان".

جذبني من ذراعي وعاد بي جريًا إلى أكوام الملابس الملقاة أسفل الجبل، كان الجنود قد سحبوا السيارة وألقوا بها في منحدر، لم يتمكن من إيقافها عن السقوط إلا عشب جبلي كثيف في دغل خلف الطريق، جرى الريس زكريا باتجاه الثياب، وأنا كنت أجرجر عظامي، ارتقيت وهادًا صُفرًا امتصت صلابة ساقيَّ، كل ما أردته في تلك اللحظة أن أختفي من نقطة الاستطلاع بأي طريقة، فالخيام السميكة المشدودة مكدسة بالأسلحة، وسمعت جعجعة مركبات مجنزرة تقترب، لا أعرف كيف دخلت في ملابسي بهذه السرعة.

"عَجِّـل يـا مروان، هذا هو قميصك، بسـرعة إلهي يرضى عليك، الطائرات تحوم حولنا".

نسمع ضجيج مروحية ترفّ.

"انظر، ألم أقل لك، هذه طائرة أخرى تمُر، أسرع يا مروان، القبلة سيهلكنا؟ أسرع، أسرع".

كانت الشمس تصب لهبًا فوق رأسي، اجتزت بقاعًا صلبة، وعبرت صخورًا بُنية مثل الشظايا، ثم صعدت كثبانًا واطئة ذات قمم مسطحة

لففت رأسـي بقطعة بفتة كالمنديل، لكنها لم تكن ذات جدوى في رد اللهب، بل خُيل إليَّ أنها آخذة، هي الأخرى، في الاحتراق، رفعتُ رأسي عن الأرض لأرى السيارة، كان الأفق حزمة من خطوط برتقالية مُستقيمة، وآلاف الأصوات المتشابكة تعوي في رأسي، وشعرتُ لوهلة، أن الطريق والصحراء ونقطة الاستطلاع مجرد أمر خيالي، لم يحدث.

جلسنا في السيارة واطمأن كل منا داخل ملابسه، بعد أن سمعتُ صوت المُحرك استدرت بكل جسدي تجاه المقود، بادر الريس بفتح الكلام بعد طول صمت:

"هل رأيت يا مروان، إنهم بشر مثلنا، لهم رأس واحد وليسوا بثلاث أقدام، طيبون، أليس كذلك، وإلا لماذا تركونا نمضي بسلام؟"

لم أكن مرتاحًا في ملابسي، وكأني لبستُ شيئًا ما بالمقلوب.

"وهل غصت بداخلهم يا ريس حتى تعرف فيمَ يفكرون؟ ثم ا هم تركونا بعد أن أخرجت لهم ورقة صفراء، ما هذا الشيء الذي ا مرجته لهم كي يتركونا؟"

لم يرد، تبحث أصابعه عن عصا الفتيس وهو يتأمل الطريق، أكرر السؤال:

"ما هذا الشيء؟ هه".

يفكر برهة قبل أن يرد والرذاذ يتطاير من فمه:

"بخبرتي في الحياة، وبتشغيل هذا".

يضع سبابته فوق أذنه.

"أمكنني أن أحافظ على حياتك، ولولا عملت حسابي لجعلونا نخدم في معسكرهم حتى نذوب في الصحراء مثل السمن في الطاسة، أنا قائد في الحياة قبل أن أكون قائدًا للسيارات، أخرجت لهم ما يُخرس ألسنتهم ويبعد عنا رصاص بنادقهم".

"إيصال أصفر، رأيته، ولكن ماذا يعني هذا الإيصال الأصفر؟"

مسح الريس على وجهه بسرعة وضيق.

"ورقة تثبت لهم مع مَن نعمل وأين كنا ذاهبين؟"

أشحتُ بذراعي فارتطم بالزجاج أكثر من مرة.

"أنت أثبتّ لهم هُم، لكني لا أفهم حتى الآن شيئًا، أجبني عن تلك الأسئلة حتى أستريح".

كان ظهري يؤلمني أشـد الإيلام، تجمدت عيني على الطريق وظل
الريس ضاغطًا على دواسـة البنزين بالسـرعة القصوى، حتى شـعرتُ
وكأننـا ننزلـق فوق بسـاط لا يلتزم بسـلطان الجاذبية الأرضيـة، الهواء
ساخن ولزج، محمل بغبار يلبد في كل شيء، كنتُ أفتح عيني بصعوبة،
الأفق أحمر أرجواني، ووجه الريس زكريا، كأنه مطلي بالكركم، يسرح
ثم تبدأ الشفتان المتشققتان في إخراج الكلمات بصعوبة:

"يجب أن تنتبه إلى التعليمات التالية حتى نستطيع مواصلة الرحلة،
أولًا، أنـا القائـد في هذا التيه الكبير، وبناءً عليـه، لا بد أن تنفذ ما أقوله
لك دون تفلسف، ثانيًا، أي مغادرة للسيارة في تلك الظروف دون إذن
تعنـي الموت الفوري، ليس لك فحسـب، وربما لـي أيضًا، ثالثًا، نحن
في ظرف صعب يحتاج لحسـم جميع الأمور بسـرعة، فلا راديو يذيع
لـك الأغاني ولا تليفون تصـرخ فيه الحقوني، انجدونـي، رابعًا، ليس
مفروضًا عليّ أن أقول الكلمة أكثر من مرتين، فربما لا تسـمح ظروف
الصحراء بقولها مرة ثالثة، خامسًـا، وسادسًـا وعاشـرًا، لن أسمح لك
بأن تكون سـببًا في إلقائنا مع المحتجزين في نقاط تفتيش أخرى، فقد
خرجنا هذه المرة بسلام، ولا أضمن لك تكرار ذلك، سنذهـب معًا إلى
عوفيـرا، نقدم لهم ما يطلبون حتى نعود بسـلام، هذا هو السـلام الذي
أعرفـه، اليـد التي لا تسـتطيع قطعها يجـب عليك أن تُقبِّلهـا، وأعِدك،
عندمـا نصل إلى حـدود القاهـرة سـأرقص وأغني وأُطعِمـك دجاجة
مشوية وحدك في أول استراحة".

عندما ابتعدنا عن نقطة التفتيش بمسافة آمنة توقفت السيارة، تركتُ طريق الأسفلت وغاصت عدة أمتار في الرمال، خرج الريس زكريا وصفَقَ الباب بعنف.

"أنت لا تزال صغيرًا، لا تعي شيئًا، بيني وبينك ثلاثون سنة في العُمر، وألف سنة في الفهم".

أخذ يدب على غطاء الموتور بكلتا يديه.

"سنخطو خطوة واسعة جدًّا، ويجب عليك أن تساعدني حتى نجتازها، هؤلاء الجنود لديهم مستعمرة جديدة، يحتاجون نقل كل ما يخطر على بالك إليها، طعام وطوب وحديد وأدوات، كل شيء، كل شيء، ونحن، ما جئنا هُنا إلا لنرتزق، سنحمل إليهم في هذا الصندوق المستلزمات المطلوبة، وفي المقابل، نخرج بجيوبنا عامرة، ما المشكلة إذن في ذلك؟ هه".

فتحتُ الباب وخرجتُ من السيارة، الشمس حامية والريح الساخنة تطير غبار الرمل الناعم:

"هل هي مستعمرة إسرائيلية يا ريس زكريا؟"

"لا تحاصرني بحديثك كالداعية، كلمني بالوقائع، أنا رجل واقعي، أفضلُ النظر تحت قدمي، فهو المكان الوحيد المضمون في هذا العالم، أما الأحلام التي تنقلب فيها الأحوال وتجري مياهها في العالي، فلا تزورني أبدًا، لا في الصحو ولا في المنام".

قال ثم خرج وصفق بابه بعنف.

"لا تتقمص دور البطولة يا حبيبي".

عندما حاولتُ أن أكون هادئًا معه زاد الضغط بداخلي.

"أجبني يا ريس، هل هي مستعمرة إسرائيلية؟"

وضع يديه في جنبيه وأخذ جذعه يهتز كنخلة في يوم عاصف.

"نعم، هي مستعمرة إسرائيلية، هل هكذا ارتاح ضميرك يا حبيبي؟"

كدتُ أقص عليه بعض الأشياء، ثم أقنعتُ نفسي بأن السكوت هو الأفضل، نفرت عروق رقبتي مع خروج الكلمات:

"وهل قطعنا كل هذه الكيلو مترات حتى ننقل مستلزمات ونقدم خدمات لمَن أخذوا وطننا؟"

رفع الريس جلبابه عن الرمال حتى يستطيع الخطو مسرعًا.

"تعود لتقمص الدور مرة أخرى، أنت وأمثالك كان يجب أن تفرقعكم القنبلة عند نقطة التفتيش، أتدري لماذا؟ لأنكم أغبياء، لا تفهمون ما يحدث، أقطع ذراعي من هنا".

وأشار إلى كتفه.

"هذا إن كنت تعرف أعداءك من أصدقائك، لقد عرفتُ من أي صنف أنت يا فلسطيني، أنت من النوع الذي يسلم نفسه للقدر، أما حياتك الحقيقية فهي مشروع لم يرَ النور بعد".

تسحب منّي صراحته خيط الكلام، فأتلعثم بسهولة.

ابتعدتُ عن السيارة، تعمقتُ في الصحراء ووقفت وحيدًا كحجر لا يعرف إلى أي جبل ينتمي، ثم التفتُّ للريس:

"هؤلاء يريدون أن يبتلعونا، لا تقل لي إنك لا تعرف هذه المعلومة، وكل مَن يفكر مثلما تفكر يخدمهم في ذلك".

كانت أمامي نخلة دوم وحيدة في المحيط الأصفر الشاسع، أخذت ألف حولها حتى رأيت جرذًا كبيرًا تبرق عينه وهو ينط ويعبر الطريق، فرفصت تحت الدومة.

"مثلما خدعَني أبو الخيزران وقدمني للموت في الصهريج، فعلت أنت مثله تمامًا وقدمتني للموت في عوفيرا".

ضرب الريس زكريا جناح سيارته المغبر وسار أمامي إلى عمق الصحراء.

"ماذا تعتقد؟ هه، أنك ستُصلح الكون؟ كفاك دلالًا، وما دمت نبحث عن الآلام اذهب وتألم وحدك".

شعرت برأسي يطن مثل خلية، والريس زكريا يبتسم بطريقة هازئة، تطاولت ابتسامته فانفجر ضاحكًا:

"كُن عاقلًا يا فلسطيني، سيسلمنا الرجال النقود ونعود بعد يومين، فنحن، أنا وهم، متفقون فيما بيننا، لقد اجتزنا الجزء الأخطر من الرحلة، ولم يبقَ لنا إلا فرصة الحصول على الأموال، أنا مئة وخمسون، وأنت خمسون، وأي كلام غير ذلك مضيعة للوقت".

عندمـا خرجـتُ من السـيارة اتخذتُ قـرارًا بعدم العـودة إليها مرة أخـرى، فكلمـات الريـس زكريا حاسـمة ونهائيـة، "خمسـون جنيهًا، ألا تسمع، لقد قلتها مرارًا، خمسون هه" لم تكن لديَّ فكرة محددة عن وجهتـي الجديدة حتى أرفض الصفقة صراحة، اقترب مني زكريا وهو يقبض على سلسـلة المفاتيح في يده، ثقل جسـده يجعله يمشـي فوق الرمـال ككائن خشـبي، عندما أصبـح في مواجهتي وضـع يديه خلف ظهره.

"لن أذهب معك مهما حصل".

تغيرت ملامحه فجأة وتوقف عن التوغل في الرمال.

"يا أخي، يا روحي، لا أحد يجبرك على الالتصاق بي، البلد مليء بالوطنييـن، فلمـاذا لم تفكر بالارتـزاق معهم وتتركنـي أنا في ضلالي المبين؟"

لفَّ حولي وهو يضم شفته السفلى بإبهامه وسبابته:

"ثـم اسـمع، ما رأيك فـي أن نقلب الآية، هه، تعـالَ نفترض أنني أنـا الـذي أقـف في وجـه التيـار مثلك، أتحـدث كثيـرًا عـن المقاومة والتصـدي والتحـدي وكل هـذا الكلام، ثـم أوقفتنا الدوريـة، دون أن يكـون معنـا الإيصـال الأصفر، هه، مـاذا كنا سـنفعل؟ هـل تعرف أن الكثيـر من أمثالك دخلوا السـجون قبـل أن تولد ولم يـروا النور حتى الآن، أتـدري ما السـبب؟ أن هناك أفكارًا لا تتجـاوز عقولهم، أقنعهم بعض الجبناء أنها صالحة للتحقق".

كلما أشعر بأن كلماته تصلح للإقناع أقف ثابتًا مثل عمود خشب منغرز في الرمال، لا أرد، أريد فقط أن أعرف سبب ذلك الشعور الذي يكبر بداخلي، والذي يوحي لي بالاكتفاء والارتياح بما أقتنع به، شعور يشابه ذاك الذي كان يراودني بعد أن أنتهي من مشاهدة فيلم سينمائي، أرى الحياة كبيرة وواسعة، وأنني سوف أكون في المستقبل واحدًا من أولئك الأبطال الذين يصرفون حياتهم، لحظة إثر لحظة وساعة إثر ساعة، على أمل أن يشعروا بالامتلاء في نهاية الطريق.

رفعتُ قدميَّ عن الرمال بصعوبة، لم أعد قادرًا على التعبير برفع ذراعي.

"ربما تعرف يا ريس كيف تجري الأمور، ولكني أحسها".

جمعتُ شجاعتي كلها وحشدتها في لساني حتى أستطيع النطق بهذه الكلمات، اقترب زكريا من نخلة الدوم القصيرة، شد منها جريدة، ظل يهزها ويشير بها، ثم قذفها كالسهم فرشقت في الرمال، نفخت الريح كالتنين وغطت السماء بغيمة صفراء، فبانت السيارة من بعيد كحجر يحترق.

"هذا هو ندائي الأخير لك، نُكمل الصفقة لنخرج غانمين في سلام".

وأحاول أن أصيغ له نداءً أخيرًا أنا الآخر:

"ولماذا لا نعود كما كنا ويا دار ما دخلك شر؟"

يحـاول زكريا الهدوء والسـيطرة على نبـرة صوته حتى يخرج بأي مكسب:

"وهل يوجد شـيء يعود كما كان يا مروان؟ المعركة لا يكسـبها القـوي، بل الذكي، فالحياة ليسـت شـربة لبـن يا ولـدي، ضعها حلقة فـي أذنك يـا مروان، هـذا زمن تمشـية الحـال وليس زمـن المقاومة، فالمقاومة كالمسـامير، مرور الزمن يجعلها دائمًا قابلة للصدأ".

كان هو وأبي وجهين للعملة نفسها، يعبر صوته جبال وبحار ليطن فـي أذني، المقاومة الوحيدة التي لا تفشـل خطتها أبـدًا، هي ألا يكون لديك مقاومة من الأساس.

نظرتُ إلى الريس وأنا أبحث عن الكلمات، هدأتْ نبرة صوته وهو يقول:

"وليكن وسـمعتُ كلامك، هل يمكن أن تقول لي كيف سنعود؟ لو أمسـكوا بنا هذه المرة واكتشـفوا أننا نحاول الهـروب فلن يبقى منا ذرة غبار تدل على أثرنا".

تفكك جسـدي، لسـت أدري ما الذي يتوجب فعله حتى أسـتطيع التفكير السليم.

عاد الريس زكريا إلى السـيارة، أخرج منهـا علبة صغيرة لها غطاء، اقترب مني وأعطاني شيئًا مستديرًا وملفوفًا بالسـوليفان".

"خُذ، هذه لا تخرج إلا للعزيز يا فلسطيني".

كنت قد نسيت أن الجوع ضربني، مددت يدي وتناولتها، ما إن ألقيت بها في فمي حتى ذابت.

"ما هذا؟"

قضمتها فملأ فمي شيء منساب، خليط من العسل الأسود والشوكولاتة والحليب.

"هذه الكُرة الصغيرة ستدفع بالدم إلى مخك، ستجعلك تفكر في مصلحتك، ستطحن المشكلات في رأسك، تسحقها كالبصلة، وتعود كأنك ولدت من جديد".

لم أُبدِ اهتمامًا لما أسمعه، كنت منسجمًا مع ذلك الطعم العجيب الذي يملأ فمي، وبالفعل، بعد أن أكلت اثنتين، سلكت تشابكات كرة الصوف في رأسي، فذهبت إلى الدومة ونزعت قطعة جريد، ألقيتُ بها في الرمل دون سبب، ثم قلت بصوت حاولتُ أن يكون هادئًا:

"إنني أجيد إطلاق الرصاص".

أعطاني الريس زكريا كرة بُنية أخرى، فضضتُ سوليفانها وقضمتها، فملأت فمي وفاضت، سال العسل الأسود فوق شفتي وذقني.

"إجادتك لإطلاق الرصاص لا تعني أنك تستطيع القتل يا فلسطيني، فأنا أيضًا أجيد إطلاق الرصاص، لكني أوفر مجهود الشر هذا لعدوي الحقيقي".

صعد تلة صغيرة وبعيدة عني، لملم في قبضته عباءته التي تلبدت بالعرق والوسَخ:

"سأذهب إلى سيارتي وأدير المحرك بعد قليل، فعلى ماذا تنوي، هل ستأتي معي أم ستقضي ليلتك مع الجرابيع وابن آوى؟"

قوّست شفتي، كأنني على وشك البصق، أو البكاء.

"أنت عديم الأخلاق".

فرك سبابته بإبهامه كأنه يُنَعِّم بينهما شيئًا غير مرئي.

"القرش يأتي أولًا، ثم تلحق به الأخلاق على مهلها".

أشار إليَّ بطريقة وداع المسافر، وعلا صوته:

"ما أكلته كان شوكولاتة بالويسكي يا مروان، أشتريها من جروبي بأغلى الأثمان من أجل مزاجي، ادعُ لي يا فلسطيني، فقد وزنت مزاجك أنت أيضًا".

12

باءت بالفشل محاولات زكريا في أن أعود معه، فأكمل الطريق وحده إلى المستعمرة.

لماذا غضبت منه لأنه انبطح سريعًا ولم يقاوم، ألم يكن أبوك يقول دائمًا إن المقاومة الوحيدة التي لا تفشل خطتها أبدًا، هي ألا يكون لديك مقاومة من الأساس؟

لماذا لا تحاول العودة إلى فلسطين وتتجنب كل ذلك، على الأقل لن يناديك أحد هناك بالـ "فلسطيني"؟

اتكأت بظهري إلى جذع الدومة، تمددت تحتها وأغمضت عيني، سلَّمت نفسي إلى الصمت والظلام، خفَّ لهيب الشمس التي استحالت إلى أسطوانة ملتهبة وسقطت خلف الجبل، قبل أن يضيع صفاء روحي في متاهة الصحراء من جديد، راودتني رغبة مُلحة في النداء من جديد.

"أنا مروان يمَّا".

كانت أسراب الطيور تعبر السماء على ارتفاع مُنخفض، أسمع رفيف أجنحتها كلما اقتربتْ، بدأ الجو يأخذ طريقًا تدريجيًا نحو الهدوء، والسماء تزداد فيها الزرقة، والطيور تحوم في دورة واسعة وتصنع قوسًا بحدود الكرة الأرضية، فيختلط في عيني وأنا نائم قرص الشمس مع قمة الجبل مع الخيمة الرمادية المتحركة التي ترفرف في السماء.

"يما، هل تسمعينني؟"

الأرض يُرحل عنها لكنها لا ترحل، باتت مقولة الأستاذ سليم سخيفة، بهتت وخفت بريقها.

لقد قال أبي إن الحياة أمر عجيب، وقال أيضًا إنه يريد أن يستقر في شيخوخته، لا أن يجد نفسه مُجبرًا على إطعام كل تلك الأفواه، ومنذ انقطعت أخبار أخي زكريا وأبي أصبح مجرد كلب، قال بعظمة لسانه، راح زكريا، زكريا ضاعت أخباره، ويقصد الجنيهات التي كان يرسلها أخي لإطعامي وأخويَّ، قال مَن الذي سيُكمل تعليم مروان، ومَن الذي سيشتري ملابس ويحمل خبزًا لسلمى وحسن؟ فاستسهل أن يتزوج من شفيقة، كان يحارب بـ"..." وكف زكريا ليس فقط عن إرسال النقود، بل عن إرسال الخطابات أيضًا، أخوك تزوج يا مروان، مَن الذي أخبركِ بذلك يا أمي؟ قلبي يا مروان، فالشباب يكفّون عن إرسال الأموال لذويهم عندما يتزوجون أو... بعيد الشر عن أخيك يا ولدي، مؤكد أنه حي يُرزق، ولكنه أصبح في رقبته امرأة، قلبي يقول لي، فبعد أن ذهب أبوك إلى شفيقة ابنة عرفان، أصبح كثير الثرثرة وقليل العمل، يريد مَن يصرف عليه ويدس النقود في جيبه وهو نائم، هل تحسب أن أمك لا تعرف القصة كلها؟ أبوك يريد أن يُقنعني بأن هجرانه لي ولإخوتك أمر رائع وطبيعي، يريد أن يمحو ما حدث يا مروان، أنه هرب، هرب وترك القضية، تمامًا كما فعل زكريا، كل هروب يؤدي إلى عقاب، قال أخوك سأسافر شهرين فقط يا أمي، البصرة قريبة، وبعدها، ستنامون فوق ريش النعام وتغرقون في الخير،

فالمدرسة أصبحتْ فجأة سخيفة ولا يُقال فيها كلام مفيد، ولا بد أن أغوص في الحياة العملية مع مَن غاص، لكن يبدو أنه سيغوص للأبد، عشر سنوات مرتْ، تاهت القضية وتبدَّل الكلام، سأصرف على مروان حتى يصبح طبيبًا، وستغدو سلمى محامية تحمل الليسانس، أما حسن.. لا يا مروان، لم يحدثني عن حسن، فقد وُلد وأخوه الكبير في الغربة، ولو قابله في بلاد الله البعيدة فلن يعرفه، في البداية ترك فلسطين وذهب إلى العراق، ثم قال في خطاب إنه ترك العراق وذهب إلى الأردن، ثم قبل سنتين قال زملاء له من جسر الزرقا إنه الآن في الكويت، ولم أعد أستطيع أن أحصي أسماء الأماكن في خطاباته، خرجت من الرملة وكفر زيتا، وصلت بحمد الله يا أمي إلى بعقوبة، أنا الآن عند مفرق النهرين الكبيرين دجلة والفرات، لا، لقد تركت النهرين وأكملت الرحلة، أنا عند مركز الحدود العراقي، أصبحتُ في بغداد، السفر غدًا سيكون إلى جبل عمان، الإتشفور، المطلاع، حدود الكويت، لقد دختُ يا ولدي بين بلدان الكرة الأرضية، ولم أعد أعرف أين الوطن الذي يُفترض أن ينتمي إليه أخوك؟ أنا أكره زكريا يا أمي، أكرهه وأكره كل زكريا في هذه الحياة، فبسببه يجب أن أترك المدرسة وأغوص في المقلاة، لكن لا تخافي يا أمي، فسوف أرسل إليكِ كل قرش أحصل عليه، سوف أُغرقكِ وأُغرِقُ إخوتي في الخير، وأجعل من كوخ الطين جنة إلهية على الأرض، وسأجعل أبي يأكل أصابعه ندمًا، وقبل أن أريها عرض أكتافي نادت عليَّ، اسمع يا مروان، لقد جاءتْ طوافين كثيرة، ولم أضع أحدًا منكم تحت قدمي لأنجو، لكن إن حدث وانقلبت الآية، فلا تهتم بي وانجُ بنفسك، لا تدخل في أي

معارك، فالمعركة دائمًا لا يربحها أحد، دعك من كلام الناس، فالناس تعشق الأقاويل، اذهب يا ولدي وغُص في المقلاة، فقد أصبحتُ أنا المكنة التي تُفرخكم من أجل المقلاة، لا تبكي يا أمي، والله لأغرقكِ وإخوتي في الخير، لا تُقسم إلا على ما تقدر عليه يا مروان، أنت تتكلم الآن بالمشاعر وستذهب غدًا إلى عالم تتضارب فيه كل المصالح، اذهب إلى مصلحتك ولا تشغل بالك بحالنا.

كان العرق يتصبب باردًا على جبيني، وكأن كل مشهد في الحياة يتكرر مرتين، تركتُ الدومة وانحدرتُ إلى الطريق الأسود، رمال وأسفلت وصفير يعوي، كانت الريح لسبب ما، تشتد، كنس الغبار الناعم ارتباطات التفكير ومقاصد الكلام.

سرت بمحاذاة الشريط الذي يظهر آخره في البعيد كذيل ثعبان، دهست بحذائي زهيرات صغيرة نابتة بين حدود الأسود والأصفر، في البداية، تابعت بحمية خطواتي كأنني أعدها، بعدما أصبح العدد متواضعًا توقفت عن المشي، بدا لي أن بروز سيارة كبيرة حمراء في رأس هذا الطريق النائي أمر خيالي وسخيف، فليست في كل مرة تسلم الجرَّة، لم يكن ثمة غير سيارة أو سيارتين واقفتين بعيدًا عن طرف الشريط الأسود، صِدام حدث في زمن غير معلوم، عَجَنَ السيارتين فجعلهما واحدة، أو هي واحدة شطرتها قوة الحادثة فجعلتها اثنتين.

في غبشة الليل أخذ الكلام يروح ويجيء في رأسي كبندول الساعة، هل كُتِب عليك يا مروان أن تتحمل كل الوزر وحدك؟ فطست البضاعة

ذلهـا هُناك، إلا واحد، لماذا قُدر أن يكون أنت هذا الشـخص الخيالي الناجي، هل لتموت في مكان آخر؟

قـال أبـي إن رحمة ربنا كانت واسـعة بجدي سـعيد، فقد مات قبل ليلـة واحـدة من نكبة ثمانية وأربعين، خطفه الطائر الأسـود في الوقت المناسب، أنقذ الله شيخوخته قبل أن يلحق به ذلك العار، هل كان أبي يقصد عار الهزيمة أم عار الحياة؟ إذا متّ وهاجموا فلسطين أيقظوني، قـال لـي أبـي ذات حصـاد زيتونـي، الآن، هاجموا كل العـرب فكيف ستتصرف يا أبي؟

غطـى الظلام كل شـيء، تسـاوى الأسـفلت الأسـود مع السـهول والوهـاد، لـم أجـرؤ علـى الابتعاد عـن حدود الشـريط، فلـو تعمقت وغصت داخل الرمال سيتوه مني الطريق.

كان يجـب أن تأمـن الحياة أولًا، ثم تشـرح رأيك فيهـا، لا أظن أن أحـدًا مـن السـائقين الذين صحبتهـم في الصحـراء يريـدون الموت، ربمـا كانت المشـكلة متعلقة بي، أنا الذي أرفـض الحياة، هل أنا الذي تعلمـت بالخطـأ كره أعدائي؟ مـا هذا الصوت، مَن هنـاك؟ تناهى إلى مسـامعي صـوت عطاس، تلفـتُّ حولي فلمحتُ خيوطًـا تتحرك فوق الرمال، وبدأ خيالي ينسـج مخاوف تفوق ما تراه عيني، سـرت بجوار الشـريط حتى أصبحتْ كل عضلة في جسـمي تُعبر عن ألمها منفصلة، قاومت السـقوط أكثر من مرة، كنت أعتقد بأنها الأخيرة إن لم أسـتطع التغلب على التعب.

بالنسبة للكثيرين نحن غير موجودين إلا في نشرات الأخبار، كم فلسطينيًّا قُتل اليوم، خمسة وعشرون، تسعة وأربعون، عدد فقط، أرقام تتحرك على الأرض، لا تجد حتى مَن يسجلها بدقة، لم يبقَ لنا إلا الأساطير والخرافات، إما أن نعترف بمَن سرقونا أو نُقتل في صمت، أنا لست متعصبًا، أنا فقط أبحث عن درجة معقولة من الصفاء، كأي إنسان يريد أن يكون حُرًّا حتى وهو يفكر، فالكلاب يمكنها ببساطة رفع عقيرتها إذا أرادت النباح، والأعشاب تنمو حين تتوفر لها الظروف المناسبة من تربة ومناخ، وعند دخول الربيع، ترفع الطفيليات رؤوسها هنا وهناك فوق الأوراق المبللة، أما أنت يا ولد، أما أنت يا فلسطيني، فَمُتْ وأنت ساكت.

رفعت قدمي وأنزلتها عند الخط الفاصل بين الأصفر والأسود، كأنني في مارش عسكري مهيب، الحرب خطة، الحرب خدعة، الحرب برنامج يذاع في الراديو، يأخذون عنه التمثيليات التي تنتهي عادة بالنواح، المجد العربي في الدولة العباسية، والمجد الإسلامي قبل أن تسقط الأندلس، البواخر المحملة بالتمر والقش تمخر شط العرب، وأبي ينام في أحضان شفيقة، وأمي تدور بالطاسة باحثة عن حليب، ثم يتأكد الطنّ في أذني، صوت مكتوم كضرب طبل في بحر، دون أن يُسمع كلام، شكرًا، شكرًا، هذه كراكة وليست مروحة، تطير الأوراق من أمامي، ولكن دونها ليس بوسعي أن أتنفس، ها، ماذا قررت؟ هل أنت متأكد من أن الدليل الذي سترسله معنا لن يهرب؟ كيف يهرب أيها الغبي؟ ستكونون أكثر من عشرة أشخاص، لن يكون

بوسعه أن يهرب منكم، وإلى أين سيوصلنا؟ حتى طريق الجهرة، وراء المطلاع، قُرب الإتشفور، وهناك، ستكونون داخل الكويت، هل سنمشي كثيرًا؟ ساعتين أو ثلاث ساعات فقط، أبو الخيزران، يلعن أبوك، يلعن أصلك، هل قلت شيئًا، مَن، أنا؟ لا شيء، لا شيء، هل ستعطيني النقود الآن؟ مَن، أنا؟ نعم، هناك في الكويت يمكن للمرء أن يجمع نقودًا في لمح البصر، وحينما تُعلن سيرة النقود، يسود الرضا والصمت.

لم أجد في كل هذا المساحة التي تكفي لإقامة وطن إلا قشر بيض، لم أفكر في احتياج جسمي للكالسيوم، فقط كنتُ جائعًا، تكسير القشر الجاف كان الصوت الوحيد الذي أسمعه، لكنه خفت قليلًا، ثم تلاشى.

لم أشعر إلا بيد قوية ترفعني من تحت إبطي برفق، تمددتُ فوق شيء يتحرك، يضرب في عيني نور أبيض مُشرَّب بحُمرة، الرمل يتحرك يمينًا ويسارًا، وجبال تميد ثم تعود راسخة إلى أماكنها مرة أخرى، رأيت ضوءًا يبرق من هنا وهناك، عندما أرخيت جفنيّ ارتعش الضوء، عيناي تقبضان، ما زالتا، على بعض المشاهد الليلية، أحسستُ برمل في حدقتي ونمل في أذني، لم أعرف أنني محمول على جمل إلا من الرائحة، صوف الإبل المختلط بغبار الصحراء وبول راكد، المزيج يتأرجح معي، مهما كانت العواقب فقد وجدت نفسي حيًّا رغم كل شيء، يهتم بي أشخاص لا أعرفهم، حتى بعد التأمل الطويل، لا أستطيع تخيل مصيري وأنا ممدد فوق ظهر بعير، عندما عاد إليَّ

بعض من وعيي شعرت بأن الرغبة في الموت شعور مُلفق وغير طبيعي، فقد تقرر، دون أن أعرف السبب، مَنْحي مُجددًا نتفًا مزيدة ومنقحة من الحياة.

ممر ضيق عبرت منه القافلة، جبلان يكادان ينطبقان فوق الجميع، لم أشعر مِن كل جسدي إلا بتيبس في كاحلي، ودوار في مؤخرة رأسي، وتنميل في أنفي وفكي، توقف الرَّكب عند تلال رملية خلفها بساط ممتد مزروع بأشجار، أيادٍ كثيرة أنزلتني ممددًا وأراحتني فوق الأرض، وسمعت صوتًا:

"ستتركه معك كما قلنا لك، لا تجعله يتجرع الزجاجات كلها، ولا تسقهِ ماءً حتى لو طلب، من أي بلد أنت؟"

صوت غريب يسأل.

"من قيسارية، لا، من بولاق، لا لا، من جسر الزرقا".

ثم انقطعت جميع الأصوات، وبعد قليل، امتلأت السماء بأسراب طيور، كانت تروح وتجيء في مواكب جماعية.

أثناء نزولي تحركت من حولي قوائم الدواب، عاصفة غُبارية اصفرَ لها الهواء، أرهفتُ السمع وأنصتُّ لصوتٍ يهمس:

"ستظل ضيفي حتى تعود القافلة".

شعرت بدوار خفيف عندما حاولتُ ثني جذعي لأتأمل مُحدثي، تحسستُ رقبتي فكانت متورمة قليلًا، تنبض عندما أهمّ بالكلام:

"مَن أنت يا ريس، وأين أنا؟"

قبض الرجل على زجاجة، كانت مُغطاة بقطعة شاش لها ذيل معقود، رفعها وخلع عنها العمامة ومد بها يده إليَّ، "خُذ، لقد طلب سيدي عُمران أن تشربها قبل الضُّحى"، نظرتُ إلى الرجل، كانت بشرته شديدة السواد.

"ما هذه الزجاجة؟ ومَن أنت؟"

"هذا ما كنت أعمل حسابه يا ضيفي".

مسحت على ناصيتي فظفرت بغبار رملي ناعم في كفي، العرق والأوساخ جعلاه كالغِراء.

"ما هو ذلك الشيء الذي كنت تعمل حسابه؟"

يقوم الرجل الأسود فيبدو عملاقًا عندما أنظر إليه من أسفل.

"أن تكون أسئلتك أكثر مما هو مسموح لي بالرد".

ابتعد قليلًا، وقف أمام إناء توقد من تحته نار، مد عصا فخرجت من الإناء وفيها قطعة قماش كالخيش، غطَّسها في سائل أصفر ثم ألقى بها على وجهي، وضع كفه الكبيرة فوق جبيني وقال كلامًا يشبه الأشعار في نغمته والتعاويذ في صعوبة تفسيره، عندما عاد لكلامه المفهوم. كنت قد ضقتُ بالخيشة المنقوعة في الصَّفار.

"احمد الله يا ضيفي، كان زمانك وجبة للسباع".

أزحتُ جزءًا من غطاء وجهي.

"هل تعرف ما الذي حدث لي يا سيدي؟"

يجلس الرجل، يضم ركبتيه ويسند عليهما رأسه، شرد وهو يتأم
الجمل الوحيد الواقف يلوك شيئًا غير مرئي.

"أنا لستُ سيدًا لأحد، أنا عبد".

قالها كمَن يناجي نفسه، ثم قام مرة أخرى رفع مجرفة كبيرة تلي
بضخامته وظل يحفر، كانت الرمال بين يديه هشة وخفيفة كالتبن، بعد
أن صنع ما يشبه مغرفة كبيرة في جوف الأرض حملني كأب يحمل ابن
إلى فرشته بعد أن غلبه النعاس، جثا على ركبتيه، برفق وضع حمول
في الحفرة، وبالمجرفة ردم نصفي الأسفل حتى سُرتي.

"ما اسمك؟"

"أنا عبدك مشعل".

كان كلامه قليلًا وحركته كثيرة، ربَّتُّ الرمل الندي الذي يغطي
خصري.

"ألم يلغوا الرِّق؟ على حسب علمي فقد توقفت العبودية منذ
أكثر من مئة عام أو يزيد".

"أنا أعمل عبدًا، هذا شُغلي لدى سيدي عُمران، ولا أعرف شيئًا
غير ذلك، ويُفضل ألا تتكلم كثيرًا حتى يرسلوا لك مَن يأخذك من
هنا".

بدأت أشعر بضغط الرمال على عمودي الفقري وكليتي، ابتعد
مشعل عني وذهب يتابع عملًا آخر، وقف بجوار ماء يتسرب من

. فوق الحجر، يرفع سطلًا مربوطًا بحبل، يُفرغ الماء في جدول ،جري صغير، يصب الجدول في غدير يجري إلى حديقة كبيرة باسقة ،ى حدود الجبل، بعد أن صب الكثير من الدلاء تمدد فوق الرمال الساخنة بالقرب مني فسألته:

"ماذا كنت تفعل يا مشعل؟"

فترة صمت طويلة مرت، حتى تخيلت أنه لم يسمع سؤالي، لكنه ، د دون أن يُحرك رأسه:

"آخذ من الفائض وأعطي المحتاج".

"وهل الماء القليل الذي أخرجته سيكفي كل هذا الزرع؟"

"لا، أنا أسلي نفسي حتى يأتي سيدي بالمكنة".

كانت ردوده المُقتضبة تحيرني، فلا أعرف هل ما يقوله نوع من الحِكم، أم هو زاهد في الكلام؟

أحسستُ بصداع شديد يكاد يفلق رأسي، وعدد لا يُحصى من لنمل يعبر الأفق أمامي، بدأ الجبل البشري يتحرك، عندما اعتدل في جلسته رفع جذعه كتلة واحدة، كأنه مبطن بالخشب، انتصب عود مشعل فبدا مهيبًا في حجم الجبل البعيد، سحب كرسيًّا من خيزران جدول وجلس أمامي يهتز به.

"لا تؤاخذني يا سيدي، كنت سخيفًا أكثر مما يليق بضيف، لقد عشت أربعين سنة، تعلمت فيها أن اللسان هو سبب كل المصائب،

فـلا أتكلم إلا لضـرورة، ولا أتمادى فيما لا أعرف، وما لا أعرفه كثير، كثير جدًّا، ولذلك، تعلمت من الصحراء الصمت والاستماع".

"ماذا حدث لي يا مشعل وكيف جئت إلى هنا؟"

أخذ العملاق يهتز بالكرسي أكثر وهو ينظر إلى السماء.

"عندمـا كنـت أسـير مـع أسـيادي لمحتك ممـددًا فـوق منحدر، والهـواء يحـرك الرمـال فتُغيـر عليـك وتـكاد تدفنـك، مِلـت عليـك وتأكـدت أن صدرك يعلو ويهبط فناديتُ، يا سـيدي عُمران، يا سـيدي عُمران، وتوقفنا، تأملك سـيدي وقال، هذا الشاب مُصاب بالمنجلي، كان ذلك قبل أن أكتشـف لدغة واضحة في ذراعك، عرفت من حجم الجرح وبياض جلدك أنها القزمة، الأفعى السـامة الملعونة التي أكلت مـن لحمـك ما يملأ فم فـأر، لكنها سـممتك بما يملأ معـدة فيل، كان ذلـك بعـد الفجـر مباشـرة، أضاءت خيـوط الصبـح الأولـى وجهك وكشـفت عن عِلّتك، أوقف سـيدي عُمران القافلة وساعدني في إنزال محفـة قش نحتفظ بها لمثل تلك الحالات، حملناك فوقها وسـرنا بك ثلاث ساعات، حتى وصلنا إلى هنا".

هـبَّ مشـعل من كرسـيه كأنه تذكر شـيئًا مهمًّا، غاب قليـلًا في قبو خلـف البئر، ثـم عاد بزجاجـات صغيـرة مربوطة في حبل كمسـبحة، اقترب مني بمسـبحته فهبت رائحة غريبة، قلويـة ومثيرة للنفور، أقوى مـن أن أسـتطيع معها التنفس، فتح واحدة فـازدادت الرائحة فواحًا في الجو.

فرش العبد بساطًا مزخرفًا ووضع فوقه حمولة الزجاجات، سمعت .ونًا يشبه الإكسليفون المدرسي، جعل يُفرغ قطرات في زجاجة .مافة، ثم يتبعها بتفريغ سوائل مختلفة من زجاجات أخرى، كانت ..نرتفع بمقدار محسوب وتقطر القدر المطلوب من الجرعة.

"لديّ أنف موهوب في التمييز بين الروائح، ستشعر بتحسن كبير مد أن تتناول التركيبة يا سيدي".

حركت ذراعي بالكاد كأنني أقاوم الغرق، حاولت أن أطرقع ..لمي المدفون فلم أستطع.

"أنا لست سيدًا، اسمي مروان".

لم يظهر على ملامح مشعل هل وَصَلَهُ الكلام أم لا، يندمج كما هو في عد القطرات، حركة شفته السفلى بالكاد تُلاحَظ، فأسمع صوته واضحًا هذه المرَّة:

"قطرة زائدة يمكن أن تؤدي إلى كوارث يا سيدي مروان".

ثم جعل يوازن بين قطراته ويعدها.

كانت أفكاري مشدودة كالجلدة على قعر طبلة، الآن فقط استرخيت، انفصلت عن العملاق وذهبتُ جريًا إلى بيتي المبني من الطين، لماذا يا أمي جرت قدمك إلى قبو الحلبية لتقترضي منها بالربا ثمن الكساء والطحين، لأن أباك أصبح فيلسوفًا بعد أن ارتاحت معدته واسترخى بدنه.

آه يا صفية، لو تعلمين ما وصلتُ إليه بسبب العودة لكِ بقرشين؟ أسبوع قبل السفر، ولا أسمع إلا الأسطوانة نفسها، الرجال يذهبون إلى الكويت للارتزاق، أما أنت فما زلت صغيرًا يا مروان، رحتُ أصرخ في جنون، أنا رجل كبير، أكبر من كل مَن يتحدثون عني باستهانة. أنا لست طفلًا بريئًا يشرب الحليب قبل أن ينام، لم أجد طريقة أعيد بها الثقة إلى نفسي إلا قبول السفر، ندت عن أمي ضحكة مكتومة، وحزينة، أنت أفضل من كل الرجال، سواء قررت أن تُغادر أم تبقى، وصفية قالت، أنت حبيبي، لكنك لن تصبح رجلًا ناضجًا في عين أبي إلا عندما يسمع هذه الجُملة، عاد ابن يحيى سعيد من السفر بجيب عامر من خيرات البلاد البعيدة، ويمكن بذلك أن تدعمي موقفي يا صفية وتقولي لصاحب الشوارب، يا أبتِ، لقد أصبح بإمكان مروان أن يشتري بيتًا ويشيده بالأسمنت، سأُزف إليه في الفورد المكشوفة، وتخرجون مع الخلان المعطرين والأطفال الذين يلبسون السواريه، تتفرجون على النساء وهن يرقصن الدبكة على نقر الطبل، وتفخرون بالخيل العربي عندما يُحرك الفرس قوائمه على نغم المزمار، ويعج شاطئ جسر الزرقا بالفرح حتى يظهر الخيط الأول من الفجر.

دائمًا يا مروان تشعر بالذنب، وكأنك نسيت أن تفعل شيئًا ما.

كانت عينا مشعل شاخصتين إلى الأرض، يحصي ما تبقى من القنينات الزجاجية التي لم يأخذ منها القطرات.

"كيف تحافظ على هدوئك كل هذه الساعات يا مشعل؟"

كان على وشـك إنجاز المهمـة، غطى جميع الزجاجات المفتوحة .ادة الفلين كما كانت والتفت إليَّ.

"وما هو البديل يا سيدي؟ البديل أن تنفعل مع ما يجري".

رفع الزجاجة إلى أعلى يقيس شيئًا في الشمس، رجَّ بعض العبوات التي جمع فيهـا كل أنواع السـوائل من الأخلاط الأخـرى، فتح غطاء الفلين فأصدر طرقعة.

"خذ، اشرب هذه، وستكون بخير إن شاء الله".

لـم أفكر طويلًا، أخذت منـه الزجاجة الصغيـرة، رفعتها على فمي ، جرعتهـا فنزلت فارغة، حاولت تحديد طعم السـائل وفشـلت، كأنه مزيج من فاكهة فاسـدة مُضاف إليها سـبرتو وبعـض توابل، لم أتوقف طويلًا أمام فك شفرات المخلوط.

"لم ترد عليَّ يا مشعل، ألا يهمك أن تكون صاحب قرار؟"

"لا، لا أنشغل بذلك".

كانت شـمس يوليو قد اشـتدت وبات من الصعب تجنب حرارتها العالية، أحضر مشـعل دلوًا وأخذ يرش الماء حـول مرقدي، بعد قليل تناول المجرفة وأخذ يزيح الرمل الندي عن نصف الجسـد المدفون، أصبـح بمقدوري أن أحـرك قدمي بعد سـاعتين من الثبـات، طرقعت أصابعي وهممت بالوقوف، أسند مشعل يدًا فوق المجرفة ومد لي يده الأخرى، عندما جذبني السـاعد القوي وقفـت وأخذت أدب الأرض بقدميّ، كأنني لم أكن سقيمًا أواجه الموت منذ ساعات.

"لو جاءك شخص ليُهربك من هنا ويحررك تمامًا من العبودية، هل ستقاومه؟"

وضع مشعل يده فوق اليد المرتكزة على المجرفة.

"لا، لن أقاومه، بل سأقتله".

يرفع المجرفة أكثر من نصف متر ويغرسها بقوة أسفل قدميه، يغوص الجزء المعدني بالكامل في الرمال ولا يبقى على السطح إلا اليد الخشبية، يبتعد عني قليلًا.

"ألهذه الدرجة أنت مرتاح هُنا؟"

"لا، لهذه الدرجة أعرف أن الحياة لا راحة فيها".

سار باتجاه طريق أشجار ممتد فتبعته ولفتُّ نظره لما نسيه.

"ألن تردم الحفرة؟"

يتوغل مشعل في طريق الحديقة.

"تُسند إليَّ بعض الأعمال، أما الطبيعة فتتكفل من تلقاء نفسها بالبعض الآخر".

أزاح بيديه بعض الأغصان المائلة حتى يمكنه العبور، قطف من ثمار تشبه البرقوق، لكنها في حجم البرتقال، أعطاني واحدة.

"برقوق سُكري، نسميه هنا كهرمانًا عنبريًّا، ثمار ليست موجودة في هذا الوقت من العام إلا هنا، عندما تأكل ما تستوعبه شهيتك ستكون قد شُفيت بإذن الله".

كانت الثمرة، بُنية مائلة للسواد، لها فلقتان عند منبت القطف، ملمسها قطيفي كبشرة طفل، تنتشر فوق الحبَّة بُقع، مثل بدن رجُل مثقب بالرصاص، أما عن الطعم، فقد توقفت طويلًا حتى أستوعب حلاوته، أكلت ثمرة ثانية، فثالثة، فرابعة، فخامسة، حتى انطلق صوت جعلني أتراجع.

"يمكنك أن تأكل منه ما تشاء، لكن القافلة ستأتي عند أذان العصر، رحلتك طويلة والإكثار منه يُحسن عمل الأمعاء ويُلين الهضم".

حاولت تخطي الرمال المبللة، عندما وصلنا إلى الحفرة التي غطس فيها نصفي الأسفل أكثر من ساعتين، كانت نخالة الرمال التي تحركها الريح بسهولة قد غطتها، وفي البعيد لمحت جملًا يسعى في الطريق إلينا، كان قائده صبيًّا صغيرًا مقارنة بحجم الجمل، ما إن اقترب حتى لوح مشعل بيده الكبيرة.

"مع السلامة سيدي مروان، لا بد سنلتقي يومًا ما، مؤكد ستذكرني في حكاياتك لشخص ما لا أعرفه، هي الحياة ولن تتغير".

وقف الجمل فأناخه الصبي بسهولة، أخذ مشعل بيدي حتى اعتليت السنام وأمسك الصبي بالمقود.

"لم تعد تحتاج إلى المحفَّة القش، اصلب عودك كمقاتلي الصحراء".

قام الجمل وبدأت استكمال رحلتي، نظرت خلفي إلى الجسد الأسود الضخم الذي يلوح لي بإخلاص.

"مع السلامة يا سيدي مروان".

كانت حدة حرارة الشمس قد خفَّت، وبدأت نسائم المساء تلفح وجهي، لم أكن أعرف إلى أين ستكون وجهتي، فأخرجت برقوقة من جيب قميصي وبدأت في التهامها.

13

قبـل أن يشـتد الظلام، سـلَّمني الصبي إلى قائد شـاحنة كبيرة، كان بانتظارنـا على الجانب الآخر من الطريـق، انصرف بجَمَلِه وظل يبتعد حتى اختفى خلف جبل، اتبعت التعليمات كشـيء يمثل أنه كائن حي، اتكأت وأسـندتُ مرفقي على صندوق السـيارة الكبير، كنسـت بكفي أثـر رمال كانـت تفرش السـطح الحديـدي الدافئ، نمـت على جنبي ووضعت يدي تحت رأسي، اختفى الأسفلت والطريق ورحت في دنيا غير الدنيا، غابت الأسـماء وكثرت الألوان وخفَّت الأجسام، وصارت جميع الوجوه في رأسي شبكة من ملامح غير مُحددة المعالم، وجميع الأفكار خيوطًا من غبار.

ظلت السيارة تترجرج حتى غاب طريق السـويس عن الأفق، عندما اختفت مدقات الوحدات العسكرية وأجولة الرمال بدأ الطريق يزدحم بالسـيارات الصغيرة، أدركت أنني على مشـارف القاهرة، توقف السائق فطارت السـيارات بجواره سـريعة كالشـهب، نزلـت مـن كابينة القيادة العاليـة، سـاعدني الرجـل علـى النزول، ثـم أخرج من عمامته عشـرة جنيهات ومدها في وجهي.

"الريس عُمران أوصاني بذلك".

أخذتها وطلبت منه زجاجة ماء، فأخرج السـائق واحدة من جراب صغير يتدلى أسـفل الصندوق، أشـار لي بكفه وهو يتسـلق سلم كابينة القيادة.

شـقت السيارة الكبيرة الطريق بشموخ، وقفتُ بين طريق الأسفلت والرمال، طويت الورقة النقدية ووضعتها في جيبي، عدت إلى هوايتي التـي لا أملُّ منهـا، قذف الحصى ببـوز حذائي طـوال الطريق، عالمي الصغيـر الذي يحتويني ويجعلني أُعبِّر عن غضبي دون أن يعرف أحد، السيارات من حولي كثيرة، لو أشرتُ بإصبعي لتهاووا فوقي كالذباب، لا يمكـن أن يعثروا على زبون مثلي، شـخص هرب من الموت مرتين وتاه في الصحراء ثلاث مرات، ورغم ذلك، في جيبه عشـرة جنيهات، ولا يزال يستطيع التفكير وقذف الحصى.

الزمامير المُكبرة تعطي للطريق مهابة ورهبة، والسـيارات الصغيرة يتوه صوتها في زحام شاحنات نقل البضائع وأتوبيسات نقل الركاب.

ترددتُ في الإشارة لسيارة تُخرجني من هذا الضجيج، كل ما أريده أن أمشي، فقط تتحرك قدمي للأمام، دون غاية محددة.

توقفت أمامي أخيرًا عربة نقل، تفاوضتُ مع السـائق على الأجرة، فأشـار لي بأصابعه وحدد عدد الجنيهات التـي يريدها دون أن يتكلم، كانت السـيارة مُحملة بمواسير حديد، السائق الجديد ذو ملامح ثابتة، يغطي رأسـه بكاسـكيت متسـق مع ملامحه كأنه مولود به، يميله على أذنـه التي يريـد أن يقيها حرارة الشـمس، لم يتفاعل فـي الكلام معي، يوحي تجمده على المقود بأنه شخص آلي، يبدو محنطًا لولا عينه التي ترف لتغسل العرق عن جفنيه، لم يتجاوب مع كلامي، الطريق، الحر، العـرق، الزحام، أكل العيش، الدنيـا، الناس، لم أكن في ذلك التوقيت ميـالًا للثرثـرة، أريـد فقـط أن أثبـت لنفسـي أن آرائي لا تـزال صالحة

للاهتمـام والنقاش، وأنني أسـتطيع رغم كل شـيء اختـراع الحياة من ..اقشات بسيطة مع الآخرين، كانت الجثة تدخن طوال الوقت وتنفث الدخان.

بعد مدة طويلة تكلمت الجثة:

"يقولـون إن قائـد السـيارات الكبيـرة يُخطـئ مـرة واحـدة فـي حياته".

"هل الأمر خطير إلى هذه الدرجة؟"

حرَّك الكاسكيت فوق رأسه.

"هـذا الـكلام ليس صحيحًـا، لأنه يُخطئ مرتين، الأولـى أنه قَبِلَ العمل في هذه المهنة من الأساس".

أغراه صمتي فأكمل:

"من أي بلد أنت؟"

كانت بداية جيدة للتفاعل.

"من فلسطين".

التفت إليَّ الرجل وعدل وضعية الكاسكيت قليلًا:

"أنا لا أحب الكلام في السياسة، ولكني أحب فلسطين".

ياه يا صاحب الكاسكيت! لو تعلم كيف أعطتني هذه الجملة روحًا فيَّاضـة؟ هـل يمكن أن تُبـدِّل جملة، مجـرد جُملة، كل هذه المشـاعر

السلبية بمحبة مفاجئة للحياة؟ ترك الرجل السيجارة تهتز في فمه وأكمل:

"بلدكم منكوب لأن الجميع يعاملونه كما يعامل السائق الطريق، عندما يقع حادث مفاجئ، تسير السيارات في طريقها المعتاد، لا يتدخل أحد للمساعدة، وكأن شيئًا لم يحدث، وكأن السائقين جميعًا في مأمن من الحوادث، رغم أن القضية كلها لا تحتاج إلا إلى رجال".

التفتُّ إلى السائق بكل جسدي وتأملته جيدًا، هذا الرجل صاحب الكاسكيت ليس جثة، إنه أكثر حياة من أولئك الذين يروحون ويجيئون كثيرًا دون جدوى، الذين يتكلمون كثيرًا عن القضية وكأنها شغلهم الشاغل، هذا الرجل يعرف أن فلسطين بلد منكوب، ويعرف السبب، تمنيت لو أصطحبه وأذهب به إلى أبي الخيزران والريس زكريا وكل مَن شابههم، هذا الرجل صاحب الكاسكيت الملبد بالعرق والأوساخ أشرف منكم جميعًا، لقد توصل لأساس المشكلة وهو يشفط آخر نَفَس من سيجارته الفلوريدا، ليتني قابلتك أنت بدلًا من أبي الخيزران، ليت وجودك تصادف مع احتياجي للقرش بدلًا من الريس زكريا الذي لا يعمل مخه إلا عندما يلتهم كريات الشوكولاتة بالويسكي.

"وهل من نصيحة يا عم؟"

ألقى الرجل بالفلتر من الشباك:

"أنا لا أجيد الخُطب والنصائح، لكن يمكن أن أطلب منك شيئًا، عندما تعود إلى بلدك قُل للكبار فيها لا تصافحوا أعداءكم إلا وفي

بدكـم الأخرى سـلاح، فالسـلام الخالي من الأسـلحة هو استسـلام، الطفـل الصغيـر يعرف ذلـك، لا توافقوهم وتسـيروا معهـم في طريق الموت الكبير".

تأملتُ ملامحه جيدًا حتى تُحفر في ذاكرتي:

"وما هو طريق الموت الكبير؟"

"السلام بيد مرتعشة والمدفع مصوب إلى رأسك. انتصر أولًا ثم صافح العالم كله".

هدَّأت السـيارة من سرعتها، ثم توقفت تمامًا، قفز السائق وفي يده بعـض الأوراق، تقـدم منه أحد الواقفين في نقطـة التفتيش، اطَّلع على الأوراق بنظرة سـريعة، عاين الأرقام المحفورة على لوحة السـيارة ثم نظر إلى أعلى حيث أجلس:

"ومَنْ هذا الذي معك؟"

"شـخص كان عالقًا بين الجبال، الليل والصحراء والذئاب، أنت تعرف".

اقترب الرجل من زجاج السيارة الأمامي وهو يحمل دفاتر وأوراقًا، أصبحت أنا وهو وجهًا لوجه، ثم قال للسائق:

"وهل فعلت ذلك لوجه الله أم أنك طلبت منه أجرة؟"

"لم أطلب منه أجرة".

ثم كبس الكاسكيت أكثر في رأسه:

"لكنه أعطاني ثمن علبتي سجائر فقط، نفعل الخير وبالمرّة لا مانع من قرشين، أنا لا أقول إلا الحقيقة ورزقي على الله، وأنت تعلم ذلك".

يطوي رجل المرور أوراقه، يلوِّح إليه ونصف ابتسامة عالقة على جانب فمه.

ظلت السيارة الكبيرة تمخر الظلام، وشريط الأسفلت كالأيام لا ينتهي، جموح رفيق خدَّرني تمامًا، ابتسامة الطريق تشبه الثغر المفتوح، تبتلع ومض الكشافات وتهضم المنعطفات والمطبات، استغرقت في نوم غريب، كنت أشعر بكل ما يحدث من حولي، الزمامير التي يعلو صوتها عندما تعبر أذني، الأسفلت وهو يسلخ العجلات، رجرجة الكابينة واهتزاز المرآة العريضة، كانت تعرض المَشاهد كما السينما، من أين تنمو أجنحتك الخيالية يا مروان، رأيتني جالسًا وظهري إلى الحائط، أنا وأبي، تستيقظ أمي من فرشتها والرضيع مُعلق بين يديها، يوم أن كُسِر الباب، اسمك؟ سأل رجل تُميزه ملابس عسكرية كاملة، يحيى سعيد أبو غيث، وأنت؟ أنا مروان، يطير كعب البندقية في صدغي فيشخب الدم من بين أسناني، اسمك بالكامل يا بن الـ...، بالراحة يا سيدي، الولد صغير ويعتمد على أنك تفهم أنه ابن يحيى الذي دونت اسمه في دفترك منذ قليل، اسكتي يا ست، يلعن أبو يحيى على أبو مروان، وهل نحتاج لأسمائكم في الأمم المتحدة؟ يلتفت بدفتره ومن خلفه مجموعة من الملثمين، يصوبون بنادقهم الكبيرة على رجل يرتجف وامرأة بدينة وثلاثة أطفال، خُيل

لي أن جبيني يتصبب دمًا، وأن كل ما يحدث من حولي أمر خيالي سخيف، رأسي يطن كالخلية، لم أعد أستطيع تمييز كلمات الرجل الغريب، اسمع يا يحيى، تلك الفدادين الأربعة التي تزرعها بالزيتون نحن في أشد الحاجة إليها، لا حاجة لنا بالزيتون، نحن نريد الأرض، سنشيد فوقها مُعسكرًا إن شئت جعلناك حارسًا عليه بمرتب معقول، وإن لم تشأ بدلنا لك الأرض بضِعفها خَلف القلعة، يحاور أبي الرجل المُحتمي بالأسلحة وهو جالس، ولكن الأرض خلف القلعة لها أصحابها، ويُكمل الرجل كتابة الكلمات في دفتره، كأنه مُحقق يدون أقوال مُتهم، سنأخذها منهم يا يحيى كما فعلنا معك بالضبط، المسألة بسيطة، نحتاج لأرض لا يحتاج إليها أصحابها، وسنبدلهم غيرها، هذا كل ما في الأمر، قُم، قُم معي ولا تخف، يغرز فوهتي البندقية في كتف أبي الذي يتصبب عوده تحت تهديد السلاح، يضرب الرجل الشباك المتداعي بكعب بندقيته، فتقع منه ضلفة في الشارع، انظر، ألا ترى معي أن هذا الشاطئ الرائع، مع شريط أخضر يحتوي على ألف نوع من الزهور، وهنا، مركز ثقافي، وهنا، شريط ممتد للمصيف، تتوسطه حمامات سباحة مستديرة، هذا هو مشروع الريف الإسرائيلي، يتأمل أبي البحر الكبير دون أن يستطيع العودة بنظره إلى الداخل، كنت أنتظر منه أي تعبير لأتخذه دليلي في استيعاب ما يحدث، لكنه ظل ذاهلًا لا يمكنه حسم موقفه، كل ما يفكر به هو أرضه التي تمنى لو استطاع الدفاع وعدم حيازة هؤلاء الأغراب لها، جسر الزرقا هي القرية الأولى التي كانت فأر تجارب للتهجير المنظم، تصدى أبي وجدي لفرق الهاجاناه، قال جدي سعيد لأبي، يا يحيى، خذ كل الأشياء بقوة فهذا

زمنـك يا ولد، لقد وصلتنا أخبار مـن القرى المجاورة، قالوا إن جنودًا كالجـراد حطـوا في البلـدات بعتاد عسـكري يهدم ويفجـر، ولن تنفع معـه النبـال والمرتينات، لديهم سـرطان فـي أدمغتهم اسـمه الحرب، ولا أعـرف يـا يحيى ما هو اسـم نوع السـرطان الـذي أصابونا به حتى نتوقف عن محاربتهم، اسمع يا يحيى، نعم يا أبي، كان أبوك يعيش في علب قصدير قذرة، بناها "اليشوف" تحت أشجار البرتقال، كنا نضرب بدافـع اليأس لا الانتقام. ويصنع سـعيد النبال مـن كاوتش الدراجات القديـم، قـذف واحدة فاخترقـت أذن جنـدي الهاجاناه الـذي يمتطي ظهر البعير، سـرعان مـا أصبحت أيادي الرجـال والصبيان تقبض بعد سـاعات على نبال من صنع جدي سـعيد، في المساء ظن الرجال أنهم انتصروا بالشـجاعة على فِرق الخيّالـة والجمّالة، لكن في صباح اليوم التالي فوجئ الأهالي بغارة دبابات على القرية، حاصرت الأرض كلها من البحر وحتى حدود الجبل، اصطادت المرتينات برصاصها الدقيق الرجال من فوق أسطح البيوت الواطئة، في مساء اليوم نفسـه كان أغلب الرجـال والصبيان بين قتيل وطريح الفراش، في أياديهم نبال محشـوة بحجارة في حجم الزيتونة، ومن رءوسهم تبخّر حلم البقاء فوق أرض وُلِدوا عليها ولا يعرفون غيرها.

نهـض الأحياء فـي الصباح ليدركوا حجم المأسـاة، رجال آخرون مدفونـون في الوحل، وقعوا صرعى فوق تعاريش الزرائب، كان هناك ثمانيـة رجال مفقودين، ومعهم طفلان وامرأة، تشـكلت عصابات من أفـراد لا يفقهـون الفـرق بين المرتينـة والنبـوت، ترك الرجـال قراهم فدخلها اليهود بسهولة من ثغرات الحقول.

لم يتمكن أبي من جمع البرتقال، برتقالُه، لا بد أن يتوظَّف أولًا من
ال "الهستروت" أخبرني أبي بما حدث، وسمعتها كحكاية من طرح
الحبال، كان المتبقي على سبوعك فقط يومين، اشتريت لك قطعة
قماش لتخيطها جلابية، لم تُسترد من عند الخياط حتى الآن، لا أتذكر
أبي، لا أتذكر، لا أعرف إلا ما رأيته بعيني قبل عشر سنوات، في
العام 1957 عندما نفَّذ الرجل حامل الدفتر وعده، وسرعان ما انغرست
المدقات وطوقت أشجار الزيتون التي لم تكن ثمارها قد نضجت
وأينعت، انهالت الكوابيس على أبي لليالٍ طويلة، ظل الحديد على حاله
لأكثر من عام حتى ضرب الصدأ مُعظمه، حصدت معه المحصول في
تلك العام والعام الذي يليه، لكننا فوجئنا بمجيء رجلين، كل منهما
يحمل في يده عتلة، وخلال ساعتين خلعوا كل الحديد الذي كان
مدقوقًا حول المزرعة الصغيرة، ثم عاد إلى يحيى الرجل حامل الدفتر
مرة أخرى، لكن بلا أسلحة أو ملابس حربية هذه المرة، كان رقيقًا في
كلامه إلى أبعد حد، لقد غيرنا رأينا في عرض العام الفائت، سنقتسم
معك حقلك الصغير، اعترضت بغلة الدار الواقفة في شموخ تنظر إلى
شاطئ البحر، رفعت قائمتيها الأماميتين ثائرة، لكن أبي لم يثر، وافق
من غير تفكير على العرض الجديد بعد تعديله، فبعد أن كانوا سيسلبونه
كل ما يملك أصبحوا سيشاركونه فيه، تداخل الكلام وتعددت أنواع
الكذب، فهذا كذب أبيض وذلك أحمر ناري وذاك أصفر شاحب.
في تلك الليلة نبتت في قلب أبي بذور العلاقة الغرامية مع شفيقة، أو
بالأدق، علاقة مع أرضها، فلديها خمسة أفدنة خصبة، وأصبح بعد
التقسيم الجديد لا يملك غير اثنين، وبهذه الحسبة البسيطة لن تنكمش

أرضه، بل ستتمدد، سيدافع عن نصيبه من الأرض بطريقته، في الـ
نفسها التي انتصبتْ فيها أعواد الحديد فكر أبي في تأجير المرتبة
لكنه تراجع عن ذلك لاحقًا، فعندما زاره صاحب الدفتر واقترح عل
خطة التقسيم، أعاد أبي صاحب الأرض التفكير بطريقة أكثر تعقلًا، ل
قاوم فهناك احتمال أن يُقتل، ولو وافق على العرض فلن يعرف طعم
الطمأنينة، المرتينات مصوبة فوق أغصان الأشجار، والمصفحات من
السهل عليهم تسريبها عبر البحر كما حدث من قبل، يا أبي، لا أريد أن
أبتعد عن بلدتي أبدًا، ففيها تسكن البنت صفية، يا أبي، أنا أحبها، في
الصباح ألعب معها نط الحبل والغُميضة، وفي المساء نلعب السبع
حجارة ورن يا جرس حود واركب على الفرس.

في مساء اليوم الذي غادر فيه صاحب الدفتر قريتنا، سحبني أبي من يدي وجلسنا أمام البحر وقال، ليس كل ما يحلم به الإنسان يستطيع تحقيقه يا مروان، كان الزبد يرتطم بالحجارة فتصلنا نسائم باردة مُشجعة على مواصلة الكلام، هل تعرف يا مروان؟ هذا الرجل صاحب الدفتر، تمنيتُ لو أخيطه في زكيبة وألقي به في البحر، هذا هو الحلم، أما الحقيقة، أنه هو الذي يمكنه فعل ذلك بنا، ولماذا لم تستخدم المرتينة لتواجهه بها فتدافع عن أمي وعنا؟ يا مروان، الله وحده يعلم، ربما لو استخدمتها لمُتنا جميعًا يا ولدي.

أخذ يلقي بحصى صغير يصعب عليَّ رؤيته بعد أن يفارق كفه، ثم سرح بعيدًا عند أسراب الطيور التي تعبر البحر وقال، كثيرًا يا مروان حلمتُ بأن أشتري ذهبية وأسبح أنا وأنت بها حتى نصل إلى شواطئ الإسكندرية.

كانت السيارة لا تزال تترجرج، لمحت بطرف عيني كاسكيت مائلًا وسيجارة ترقص وخيوط دخان، أحسست بعضلة ساقي تكورت ولم أعد أستطيع ثنيها، عندما هززتها انتفض سائر بدني، فأدركت موقعي جيدًا في الكابينة.

رأيتُ الشوارع قد تغيرت، ازدحمت وضاقت بالبشر الذين يخرجون من تحت الأرض، عندما كانت السيارة الكبيرة كالجبل وسط التلال، تأكدت من أننا أصبحنا في قلب القاهرة.

لفظتني السيارة في ميدان باب الحديد، تابعتها حتى غاصت وابتلعها الزحام، عزمت على المسير حتى البيت، اختصرت الطريق فاخترقت شارع المسابك ومصانع الأقمشة وورش النجارة، كان جميعها مُغلقًا، كلبان يشمشمان في بعضهما وعِرسة تضغط جسدها وتدخل تحت باب دكان، غطى الليل كل شيء، كانت الإضاءة شحيحة ومخنوقة، تخرج من فوانيس معلقة أمام المحال المُغلقة، في تلك الليلة الطويلة لم أقذف الحصى بحذائي، لم أستطع رفع قدمي عن الأرض.

كان ما بقي من خطوات أكبر مما بقي من جهد، عشر خطوات، سبع خطوات، سمعتُ صرير بوابة، منزل صغير بجواري هو مصدر الحركة، ويد تسحبني إلى الداخل.

"مروان، تعالَ معي، تعالَ".

أسمع النداء ولا أرى المنادي.

لا إضاءة في مدخل البيت الضيق، وجسدانا قريبان جدًّا من بعضهما بعضًا، وصوت غريب لم أسمعه من قبل، فكرت في جذب ذراعي ورسم خطة سريعة للهرب، لكنني ترددت، فربما كان المنادي يحمل سلاحًا غير مرئي، فضَّلت أن أتعامل باللين حتى أفهم ما يجري أولًا..

"مَن أنت، وماذا تريد مني؟"

أسمع الصوت نفسه بمستوى منخفض كالوشوشة.

"يا حبيبي اهدأ، أنا ماما أمل".

صعدتُ معها السلالم كأني عربة تجرها أحصنة غير مرئية.

في شقة مُرتبة وأنيقة وضعت السيدة أمامي عصير ليمون وجلستْ.

"سأحضر لك العَشاء، لكن اشرب هذا أولًا".

تأملت الشقة جيدًا كأنني في حلم.

"لماذا خطفتيني من الشارع يا ست؟"

ربتت كتفي ومررت أناملها فوق خدي برفق.

"أنتظرُك هنا طوال الأيام التي غبتها، لأني أعرف جيدًا أنك لو أفلتَ من تحت نظري ومررت دون أن أراك، فلن تخرج من بولاق للأبد، قضيت الأيام أتابع المارة من البلكون لأراقب لحظة مجيئك، فلا يمكن أن تذهب إلى البيت وحدك، سيأكلونك".

رفعت كوب الليمون، لكني أنزلته مرة أخرى دون أن يصل السائل إلى فمي.

"أين مريم؟"

فُتح باب غرفة جانبية خافتة الإضاءة، اللون الأبيض يكافح للتغلب على الأصفر، تخرج مريم فأقف، تتعلق في رقبتي وتبكي، تنهرها ماما أمل، مريم، هل هذا ما اتفقنا عليه؟ تجلس بجواري وهي تحاول استعادة توازنها، كانت ملابسها فضفاضة أكثر من اللازم.

"الجلابية تُفصل منك اثنتين يا بنت منصور".

تقول ماما أمل، ولا تتفاعل معها مريم.

"بعد أن تستقر الأحوال سأقص لكِ فستانًا بكالوش، وقمصان نوم مقورة".

ابتسمت زوجتي الصغيرة وعينها تلمع بالدموع.

"خذني معك يا مروان".

"ما الذي حدث يا مريم؟"

تعتدل مضيفتنا الأربعينية في جلستها.

"أخاف أن أقول الحقيقة كاملة فتفلت منا وتُهلك نفسك".

"وهل ستكذبين؟"

تزغر لي مريم بنظرة جانبية، وتكمل مُضيفتنا:

"لا يا مروان، لن أكذب، لكن هل يمكن أن نؤجل كلامنا حتى الصباح؟"

الأفكار تتكدس في رأسي، كُرة الصوف تداخلت وتعقدت.

"سامحيني يا ست، أريد أن أعرف الآن".

الملامح في وجه ماما أمل لم تكن واضحة، الإضاءة خافتة، والظلال تضاعِف الأجسام.

"هناك أشياء كثيرة فسدت، وقد أقسموا إنهم إن لمحوك سيدفنوك في بولاق، لكن لا تخف يا مروان، فعندما يعود منصور سيتحسن كل شيء".

أخذتْ مريم توزع نظراتها بيني وبين ماما أمل قبل أن تهدأ وتتكلم:

"هددني خلدون، لا بد أن تعودي لأمير، لم يصدق أنني أصبحت امرأة متزوجة، قال لي إن كل رجالكِ ذهبوا ولن يعودوا، بصقت في وجهه فصفعني وقال، أعدكِ يا بنت منصور لو رأيت هذا الولد الفلسطيني في الطريق فسوف أقتله، في الليلة نفسها صحوت على صهد يخرج من أصابع قدميَّ ولا أستطيع التنفس، استيقظت فرأيت الدجاجات هائجة عند الباب، عدت إلى الداخل أتخبط، كنت وحيدة والاختيارات أكبر من استيعابي، استأنفت الجري، تجمع الجيران بالجرادل والحلل والمقشات، لكن مجهوداتهم فشلت في إخماد الحريق، أخرجوا ما طالته أيديهم، أكوام سوداء متفحمة لا تنفع في

: ي،، وسط الزحام وجدتُ أمامي ماما أمل، في ملاءة سرير دثرتني، .رت بي الطريق وأخذتْ تقول، لا تقلقي، لا تقلقي، لفّتني طبقة فوق ا خرى حتى انعزلت عن الدنيا، لم أنسَ منظر البيت الذي احمرَّ أمامي :م اسودَّ، فغابت عنه كل المعالم التي أعرفها".

أحضرتْ ماما أمل صينية صغيرة فوقها طبقان.

"الآن لا بد أن تنام، أنت مُتعب".

مدت يدها لمريم.

"كُلي أنتِ وزوجكِ، أريحيه كما يمكن لامرأة أن تريح زوجها".

ابتسمت وأغلقنا الباب.

طالما اشتقت للغياب عن العالم، أمنية ملحة، ومطلب ليس لي سواه الآن، تمددت في غرفة صغيرة ونظرتُ إلى السقف، المروحة تدور بطيئة، النبش في الماضي مُخدر، له أسنَّة جارحة تأكل في العِظام.

رفعت مريم صينية الطعام ووضعتها فوق السرير، تعلقت في رقبتي مرة أخرى.

"الأيام الفائتة كانت صعبة يا مروان، تمنيت أن أراك ولو لثانية واحدة، تُطمئنني بعد أن زادت فوق رأسي أعباء الحياة".

أغمضت عيني، الكلمات تختلط في رأسي، أفتح فمي ويجري على لساني سؤال:

"مَن تكون ماما أمل هذه يا مريم؟"

"امرأة وضعها الله في طريقي لتوازن الدنيا".

"فقط يا مريم، أقصد أنها، هه، أليست قريبتكم؟"

"كل ما أتذكره أنها أصبحت متواجدة أكثر في حياتي بعد أن ماتت أمي، كانت تتحدث عن أبي كثيرًا، تقول إن قلبها ينبئها بعودته، دائمًا تتحدث عنه بود لا أفهمه، ومبالغة في بعض الحكايات القديمة، تُعيد تشكيله في تصوري، وكأنه ليس أبي الذي أعرفه، ذات مرة قالت، إن أبي مثل كوكب صغير معلق بين السماء والأرض".

ظلت تهمس بالكلام حتى تمددت بجواري، راحت في النوم بسرعة، أما أنا، فظللت أنظر إلى مروحة السقف التي تدور ولا تُنبئني بأي شيء. برقتْ أمامي فجأة ملامح المرأة التي نحن ضيوف في بيتها، وتأكدتُ أنها هي نفسها المرأة التي كانت تتدثر بالملاءة السوداء وتُلوح لعم منصور من بعيد، مَن تكون ماما أمل هذه؟

14

خرجتُ من غرفتي متسحبًا، لا أعرف هل قصدت ذلك أم لا، كنتُ اريد أن أتحدث مع مُضيفتنا الأربعينية لأعرف منها بعض التفاصيل، سمعت همهمة في الغرفة المجاورة، غرفة ماما أمل، لم أستطع منع مسي من التطفل، جرَّتني قدماي إلى مصدر الهمهمة، كان الباب واربًا، الغرفة مضيئة بالداخل والمكان الذي أقف فيه مظلم، رأيتها سحب صندوقًا خشبيًّا من تحت سريرها، أخرجت منه صورة بعد اخرى، أزَّ سريرها عندما ألقت فوقه الصندوق الثقيل، كانت عيناها المكحولتان تنظران بِوَلَه لأوراق أخرجتها وأخذت تتفحصها، اخرجتْ بعض الصور الكبيرة الموضوعة في براويز مذهبة، أثناء تأملها وقفتُ وتركت السرير، جسدها مشدود داخل فستان كحلي لم تكن تلبسه منذ قليل، بدأ صوتها يعلو دون أن تدري، كل صورة تنظر إليها كأنها تكتب رسائل وتتلقى رسائل، تحادث نفسها عن شخص تسميه "الرجل البعيد" تتأمل الصورة وتقول، آه يا بن الكلب، ستظل كما أنت، الرجل البعيد، وأنا ارتضيتك هكذا، بعيد، ارتضيتك لأنك أقرب إليَّ من أنفاسي. ماذا قرر أبوكِ أن يفعل يا مريم؟ سألتها هذا السؤال بعد أن مرَّت أربعون سعاد، كنتَ مسافرًا، عاودت السؤال، ماذا قرر أبوكِ أن يفعل؟ وترفع ابنتك الطفلة حاجبيها ولا ترد، لماذا جعلتني أرسم مشاريع المُستقبل في خيالي، كنت تزورني في أحلامي، الدفتر الكتوم، في كل مرة أستدعيك كنت ألبس لك هذا الفستان الأزرق، كأن ذكرياتي معك تراني.

أخذت ماما أمل تدور حول سريرها وهي تحمل صورة بعد أخرى، يدور فستانها كالمروحة ويرتفع عن الأرض حتى تنكشف ركبتاها، توقفت عن الدوران وجلست فوق حافة السرير، تصفح الصور يا بن الكلب يساعدني على تصفح الأيام، كلاهما يكرّ ويجلب للنفس الفرح والأحزان، هل تريد أن تعلم إلى أين وصلتُ؟ إلى يوم أبحث عنه كثيرا قبل أن أنام، يوم أن كانت أمي تتحدث باللهجة ذاتها، إذا خطبكِ منصور فلن أقول "لا" سأقول كما يقول أبوكِ للخاطبين "أهلًا وسهلًا " أختك سعدية، ألا تتذكرين؟ يوم أن كان كتابها يُكتب في الغرفة المجاورة، بصّم المأذون أباكِ في دفتره وخرج للوافد الجديد، قال له "أهلًا وسهلًا " يومها ناديت عليه وسألته، يا رجل، ابنتك يُكتب كتابها وأنت هُنا تستقبل عريسًا آخر لها، ما الذي جرى لعقلك؟ جذبني من ذراعي وقال، لا شيء مضمون في هذه الأيام، فربما يرجعون في البيعة عند الاتفاق، وعندئذ يكون لديَّ بديل، والبنت مثل النار في البيت، أتدرين ما النار؟ النار، كان يمط الألف الأخيرة ويشدد على الراء، فعرفتُ أن عقله يزن بلدًا، أما أنتِ يا أمل، فكل يوم والثاني تأكلين بعقلي حلاوة، سيخطبني اليوم، بعد أسبوع، في بداية الصيف، عند دخول الشتاء، ولا يأتي منصوركِ هذا أبدًا، امتنعتُ عن التلفظ بأي شيء لأحد يا بن الكلب، امتنعت مرة عن الطعام فضربتني أمي، راح مَن كان مخه يزن بلدًا، سأكسر عنقك إن اعوججتِ، لو تقدم هذا العريس لكِ فسأقول له لا، ولن أقول مثل أبيكِ "أهلًا وسهلًا " لماذا التمسك بشخص لا عمل له؟ إنه يعمل يا أمي مساعدًا لسائق، قولي صبيًّا، في الخامسة

، العشرين ويتقاضى خمسين قرشًا في اليوم، يا أمل، كان أبوكِ تاجر
،بفاتورة، يلعب بالآلاف لعبًا، لا أريد غيره يا أمي ولو سنخرج من
..ولاق ونبني بيتًا فوق جبل المقطم، أحبه يا أمي، ألا تعرفين الحب؟
احنمعت أمي بأخويها وزوج أختها، واقترحوا الموافقة على خطبتي
الك، لكن بشرط أن يسلموه تجارة وعباءة جوخ ليشبههم ويشرفهم
في الأسواق والمجالس، لكنك رفضت البيعة يا منصور ورفضت
اقتراحاتهم، لن أقبل ذلك يا أمل، ستسهل هذه الطريقة معايرتي، كان
أبي كلّافا، وحالي أفضل منه، سأصبح قائد سيارة في أقرب وقت،
ورفضَتك العائلة بالإجماع، في تلك الأيام تقدم للزواج مني ثلاثة
من أبناء تجار بولاق، امتنعتُ أن ألقي عليهم نظرة الفحص، فأنا
مكتفية بما في داخلي، فقد أصبحت علاقتي بك جوانية، خيالية إلى
حد بعيد، أنتظرك في رأس الطريق وأقضي معك دقائق مسروقة، لها
طعم العسل وإحساس الخيال وحرارة حطب يحترق، كنا ننفرد بالليل
دون وسيط، أصبحت معك كفراشة تدور بجنون حول حبها، لا تنتظر
اللحظة التي ستحترق فيها، بل تنتظر دائمًا أن يشرق على هذا الحب
النهار. وبعد أن تخطيت الثلاثين عرفت الحقيقة، الراهبات أكثر عددًا
من الرهبان، وحبيبي لا بد له من الزواج، وما دامت عصابة العائلة لن
تسمح بإتمام هذا العقد فلن أتزوج من شخص آخر غير ابن الكلب
الذي أحبه، منصور، هل تذكر يوم أن تقابلنا ذات مساء؟ قلت لي،
كيف تتعلمين الخياطة في أتيليه الزمالك يا أمل وتتركين الفِتل تتدلى
من الإسورة؟ يومها قبضت على الفتلة وقبل أن أنتزعها قلت، انتظري،

ستكرَ الإسورة كلها، دعيني أقطعها بأسناني، رفعتُ لك يدي فتناولتها ولثمتهـا في الظلام، استعذبت كفـي طعم الجلد الدافئ في شـفتيك، أضاءت روحي بمشـاعل لا يراها أحد، ولأن الرياح لا تعرف ما تريده السـفن، فقد تزوجتَ من سعاد بعد شهرين، تنازلتَ بسهولة عن حبك الجامح لأنهم رفضوا الخطة، لن يتزوج مسـاعد السائق من ابنة التجار ووكلاء المنيفاتـورة، فالتجار رفضوا وتعنتوا في الرفض، وأحسست أن جـزءًا بُتِر من معصمي، أصابنـي جنون من نوع خاص، فعادة، يرفع المجانيـن الجدار الذي يفصـل بينهم وبين العالم، وفعلت أنا الشـيء نفسه، لكنني بدَّلتُ العالم كله باسم جديد، أنت "الرجل البعيد".

أعطاني الظلام حماية وأمانًا، كان صوتها أقل حدة عندما أخرجتْ من الصندوق بعض الصور الصغيرة..

تزوجت يا بن الكلب وتركتني أتقلب في جمر دائم، قالت لي أمي إن جوهـرة البنـت تلمع حتى الحادية والعشـرين، بعد ذلك تبدأ دقات بابها في التناقص، وكنت أنظر إلى أوراق النتيجة، ثم النتيجة التي تليها، بدت لي أوراق التقويم وسـاعات الحائط غيـر ذي نفع، أمر خيالي لم يحـدث، فلا أنظـر إلا للضوء الداخلـي الذي ينمو ولا يشـعر به أحد، كنتُ كتومة لا أذيع سـرّي لأحد، في جميع الحالات لن يفهمني أحد، أمي تقول، أصبحتِ في الخامسـة والعشـرين يا بنـت بطني، أصبحتِ في التاسعة والعشـرين يا نور عيني، لم يعطها العمر الفرصة لتعايرني، أصبحتِ في الثلاثين يا أمل، قلتها لنفسـي بعد أن أصبحتُ بطولي في الشـقة، كان بينـي وبينك ثلاثـة بيوت، وثـلاث دقائق، وثلاثـون أمنية

لا تتحقق، وثلاثون ألف هاجس وحلم وتصور، وذات شتاء قاسٍ، جاءني الخبر، تدثرت في أفضل ما لديَّ من ثياب، تصيّغت وتكحلتُ، تعطرت حتى فاح الشارع كله بعبيري، فأنا حلوة من يومي وأنت تعرف، وقفت أمام بيتك وخيوط المطر تقطر من فستاني الفرو، هل صحيح ما سمعناه يا مريم، أملكِ تعيشي أنت؟ وقبل أن أتلقى جوابًا، خرج الصندوق الخشبي الكئيب وارتمت فوقه مريم، يلملم المقرئ الضرير ماءته وتنخفض إضاءة الكلوبات، وأنت لا تزال تقف بين أصحاب الواجب وتصافحهم، تمنيتُ لو ألقيت بنفسي في حضنك وبكيت، لو فكّت الدنيا فجأة جميع ارتباطاتها المُجحفة، كنتُ سأفتح عباءتك البنية بطول ذراعيَّ، أدخل وأغلقها عليَّ من الخلف، آه يا منصور لو تعرف، كنت أريد أن أصبح أول امرأة تصرخ في وجهك وهي تهز كتفيك، آه يا منصور، كنتُ على مشارف العشرين عندما أحببتك، وأصبحت على مشارف الأربعين وما زلت أحبك، آه لو تعرف يا ابن الكلب، ذهبتُ إلى المقابر في موكب دفن امرأة لا أهتم بها، فقط كنت أريد أن أراك لأطول وقت ممكن، في المقابر، وقفتُ تحت قصف نظراتك الجامدة، الغريبة، كأنني أراها لأول مرة، وجهك الخشن، لحيتك القصيرة التي اتخذت لونًا رماديًا، حاجباك يتصلان فوق عينيك السوداوين الضيقتين، وفوق جبينك المستقيم يلتف شعرك الأسود حول نفسه ممتزجًا بالغبار فيبدو فضيًا لامعًا، كنت أمامي وحيدًا في الجنازة، المغنم يلمع في العين ومن السهل تمييزه، كف يدك التي تصافح المشيعين كبيرة وصلبة، وبشرتك شديدة السمرة، تلك السمرة التي لا يكتسبها إلا الجسد الذي احترق بشمس حقيقية

جيلًا وراء جيل، تبدو وكأن بشرتك غُسلت بالطين والدم معًا، ثم أضيف إليها بعض الحليب، فأصبحت حارة ولها معنى، ماتت سعاد ولم يعد لديك حجة يا بن الكلاف، يا مَن سحرت لي وأبقيت نفسك بداخلي طوال كل هذه السنوات، سيُقال فيما بعد إن ما حدث كان مستحيلًا، أما الآن فسيقولون إنها مغامرة، وأنا أقول إنها الولادة، الحقائق الكبيرة لم تكن في البدء إلا أحلامًا ساذجة صغيرة، والمسألة مسألة وقت ليس غير، كذلك تبدأ القصص الكبيرة، وكذلك تنتهي، لن أتركك هذه المرة تفلت من يدي، فالعمر الواحد لا يتسع لأكذوبتين كبيرتين.

كنت تراني مجرد جارة طيبة وحب قديم، لثمت يدي مرتين وتمشيت معي على كورنيش الجزيرة ثلاث مرات، قبَّلت شفتي في مدخل بيتنا مرة واحدة، هذا كل ما كنت تكنه لي، لكن ما أحتفظ به لك يا روحي فهو كالبحر، لا نهاية له، فكرت أن أُهديكَ فطيرة في أسبوع زفافك الأول على سعاد، عجنتها بالسمن والسكر ودم حيضي يا حبيبي، سيُسمم بدنك بالبطيء ويغيب عقلك عن العالم يا منصور، لكنني تراجعت في اللحظات الأخيرة عن تلك الفكرة، فما الذي سأجنيه إذا ترمَّلت امرأة لا أعرفها؟ لكن الفكرة عاودتني مرة أخرى بعد موت سعاد بأيام، لففت الفطيرة وأعطيتها لابنتك، لا يأكل منها إلا أبوكِ يا حبيبتي، هي مصنوعة له مخصوص بالسمن البلدي، لا تهضمه معدتكِ الصغيرة، ويمر يوم ويومان وشهر وسنة ولا يحدث لك شيء، تسافر مثل صبي العشرين إلى الكويت ثم تعود، ربما لم يكتب لك الله أن تلحق بسعاد على يدي، عِش يا منصور، عِش يا بن الكلب، ولكن

مهما امتد عُمرك فستصبح عاجزًا عن كل شيء، سأصير أنا حُلوة دائمًا، أما أنت، فعاجز، لا تستطيع المشي ولا الضحك ولا الرجوع إلى بيتك دون مفاوضات تزيد من ضعفك أكثر فأكثر.

نزلت عن سريرها وجذبت فستانها الأزرق لأسفل، كان محبوكًا على خصرها، وقفتْ تتأمل نفسها في مرآة ثم طلعت فوق السرير بركبتيها، ظلت تُملس على الأعمدة النحاسية المحفور عليها وجه أسد، جذبت الصندوق الكبير إلى حضنها، قلَّبتْ في محتوياته، أخرجتْ صورًا أخرى وفرشتها كالزهور من حولها، رفعت بروازًا كبيرًا قُرب عينها، بداخله صورة لعم منصور يقف خلف ذبيحة طازجة، يشمر جلبابه ويلبس حذاءً أبيض برقبة طويلة، تبتسم أمل ابتسامة هازئة بجانب فمها ويعلو صوتها، هل كنت صبيًّا لجزار يا عشيق الأمس، أم أن أباك الكلاف أرسلك لتأخذ نصيبك من الصدقة؟

حضنت البرواز وألصقته في صدرها، أغمضت عينيها وأطفأت النور، ولم أسمع شيئًا بعد ذلك.

فشلتُ في توضيح الفرق، الحقائق والأحلام ليسا شيئين، فما يحدث أمامي هو المعنى المجسَّم، أما الأفكار فتُدَّخر لأجسام أخرى، الحياة لا تتحمل الحالمين، سيطر عليَّ هاجس، وددتُ لو بدأت حياة أخرى بطريقة مختلفة، فلا يُعقل أن تكون تلك هي الحياة التي تركت أهلي وأرضي من أجلها. يا مروان، الوطن يعيش أطول بكثير من الأرض، يا أمي الوطن هو الأرض، لا يا حبيبي، سيبدلون أرضنا في يوم ما ويقولون إن هذا هو وطننا الجديد، وهل سنصدقهم يا أمي؟ أنا لن

أصدق، لكن جيلك والجيل الذي يليه سيصدق، لا بديل عن الهرب يا مروان، افعل مثلما يفعلون ولا تندم.

خرجت في ذلك الصباح من البيت، قصدتُ دكان الرجل السمين الذي يتولى تهريب الناس إلى الكويت، فوجدتُ نفسي في شارع مسقوف ومزدحم، تفوح من الأرض رائحة التمر وسلال القش الكبيرة، لم تكن لديَّ أي فكرة مُحددة عن وجهتي الجديدة، فهناك، في الدكان، تقطعت آخر خيوط الأمل التي شُدّت لسنوات طويلة كل شيء بداخلي، كلمات الرجل السمين حاسمة ونهائية، خمسة عشر دينارًا، ألا تسمع؟ وقاطعت صوته الخشن، ولكن... ويرد السمين، أرجوك، لا تبدأ بالنواح، كلكم تأتون إلى هنا ثم تبدأون بالنواح كالأرامل، يا أخي، يا روحي، لا أحد يجبرك على الالتصاق هنا، لماذا لا تذهب وتسأل غيري، لن أدفع خمسة عشر دينارًا، قلت له، ستأخذ خمسة دنانير وأنت مبسوط، وإلا... وإلا ماذا؟ نظرتُ في عين الرجل السمين وتأملتُ ملامحه الغليظة، وإلا فضحتك في مخفر الشرطة، قام الرجل ودار حول مكتبه، ثم وقف أمامي مباشرة، حدق فيَّ وقاسني من رأسي حتى قدمي، ثم رفع يده الثقيلة في الهواء... تريد أن تشكوني إلى الشرطة يا بن الـ... عندما هوت اليد الخيالية فوق خدي ترنحتُ، ضاعت جميع الأمنيات في الطنين القوي، المَعْبَر الرابط بين أذنيَّ يدوي، للحظة، لم أستطع أن أحتفظ بتوازني، فخطوت إلى الوراء خطوتين صغيرتين، أيها السمين، أنا من سلالة مجيدة، كان جدي يقتل الهاجاناه يوم أن هجم علينا الإنجليز، ويرد السمين بوجهه

ذي الملامـح الغليظة، لم تعد هـذه البضاعة رائجة يا حبيبي، أصبحتُ نصلـح في الكتب فقط، وضعـت كفي فوق أذني التـي لا تزال تُصفِّر، هل يمكن أن يرمم إنسان كرامته بأثر رجعي؟

دائمًا أشعر بالذنب، وكأني نسيت أن أفعل شيئًا ما.

في الصباح، وقفتْ ماما أمل وعدلت من وضعية فستانها الأزرق، بـان خصرها نحيفًـا إذا ما قورن بأعلاه وأسـفله، كانت تبتسـم بعذوبة وحنـان، وتعابيرهـا مفعمة بالتفاؤل، أخذت تتخطَّر في مشـيتها رواحًا ومجيئًا، كأنها تجمع في كل خطوة الكلمات التي ستنطق بها:

"اسـمعي يـا مريم، ليس بوسـعي أن أفكر مثلك، أنـتِ في مقتبل الشـباب، لمـاذا لا تشـترين بيتًا فـي المناطـق الجديدة، وأنـا، يمكنني بيـع هذا البيت المحـروق بثمن معقول، كانت بولاق الميناء الرئيسـي للقاهـرة في زمـن لم يعد موجـودًا، أما الآن فالدنيا تغيـرت، أصبحتْ مجرد منطقة شعبية يكثر فيها التجار واللصوص، ما رأيكِ في العباسية؟ هناك يبنون بيوتًا جديدة، مُقسـمة إلى شقق وأدوار، كهارب وأسانسير وغُرفة للبواب، وفوق ذلك، كل شقة لها بلكون تشوفي منه الدنيا".

أحضـرتْ مامـا أمل مائـدة صغيرة، فطائـر وبيض مسـلوق ومربى وزيتون.

"اسـمعوا يا أولاد، لقد أصبحنا نحن دقة قديمة، والشـباب لا بد أن يفكروا بالمستقبل".

وضعتْ أمامي طبق بيض ملآنًا.

"والمستقبل في المناطق الجديدة".

أفرغتْ عبوة مربى كاملة في طبق ووضعته أمام مريم.

"هناك مكان جديد اسمه مدينة نصر".

قسمت بيضة نصفين وتوقفت بها يداها.

"لكنني أفضّل العباسية".

كانت تتعامل مع موضوع بيع البيت كما لو كان أمرًا مفروغًا منه، نظرتْ مريم إليَّ ولم تتكلم، فقلت:

"وهل سيتم بيع البيت بسهولة؟"

جلستْ صاحبة الشقة فتقمط فستانها وكثرت ثنياته عند البطن.

"ليس سهلًا بالطبع، فبيع بيت محروق أمر صعب، أنت تعرف الناس يتشاءمون، لكن لنعرضه للبيع أولًا ثم نرى".

ورغم أنه لا أنا ولا مريم كان لنا موقف محدد من هذا الأمر، فقد رشقت ماما أمل سبابتها في رأسها وقالت:

"الليلة سأحسم كل شيء، وفي الصباح، يكون كل شيء جاهزًا، البيت يا مريم يساوي ألفي جنيه، قال لي بائع البيوت ذلك".

مرَّ الغد يومًا عاديًّا لا جديد فيه، أصبح اليوم يومين، وثلاثة، ولم تجد ماما أمل مشتريًا، حتى جاءتهما في مساء اليوم الرابع ومعها البشارة:

"وجدتُ المشتري، بأعلى سعر، ثلاثة آلاف جنيه".

فـي تلـك الليلة لم تنـم مريم، وضعـت صغيرها في فرشـته بجوار السرير، وظلت تدور في الغرفة.

"هل تعلم يا مروان؟ ماما أمل قالت إن الشـقة في العباسـية بألف جنيه، ماذا سنفعل بالمبلغ المتبقي من بيع البيت، إنه كثير جدًّا؟"

"لست أدري يا مريم".

"لماذا تهرب من تحمل المسؤولية؟"

"أنا لا أهرب، هذه أموالكِ أنتِ، فلماذا تسألينني؟"

لـم أكن أريدهـا أن تسـمع صوتي الحقيقـي، الهارب مـن الموت لا تهمـه الأمـوال وحسـاباتها، أنـا أكره النقـود، فهي التي تسـببتْ في فُرقـة عائلتي، لـولا الأموال ما تركنا زكريا وتسـبب فـي كل ذلك التيه والضياع.

فـي الصبـاح تولَّـت ماما أمل كل شـيء، جـاءت بموظف الشـهر العقاري، فرش دفاتره وأختامه، وأخذ يشـرح وجهة نظره وهو يشرب الشاي.

"أنـا لا أخـرج مـن مكتبي لـو قامـت القيامـة، الناس يأتـون إليَّ ولا أذهـب لأحـد، ولكـن مامـا أمل ليسـت أي أحـد، جميـع الرجال يتمنون رضاها".

ضحك الرجل فاهتز شاربه الصغير فوق شفته، كتب الأسماء ونسخ الأرقام وضاهَى المستندات وعقود المِلكيَّة ببعضها بعضًا، بصَّم مريم

ثم لملم أوراقه ووقف، قبل أن ينصرف مدتْ ماما أمل يدها إليه بورقة نقدية واقفة كالعصا.

"خُذ، لقد أتعبناك معنا".

قبَّل يدها الممدودة وأخذ يلعب بحاجبيه كالمخبول.

"تعبك راحة يا ست الكل".

قال ثم جرجر حقائبه وركبتيه وانصرف.

استدارت ماما أمل وقالت لنا بصوتٍ عالٍ:

"ألف مبروك يا أولاد، ألف مبروك".

لم أشأ أن أقول كلامًا صريحًا وحاسمًا في أي شيء، أصبحتُ كابن آوى، أخشى رؤية ظلي، وأخشى سماع صوتي.

15

بـدأت رحلة الخروج فـي الصباح، عربة كارو كبيـرة يجرها بغل، في مقدمتها رجل يقاوم النعاس بإشعال بوز سيجارة من عقب أخرى، حمَّلتها بكل ما طالته يدي، المكنة الـسنجر الـسوداء التي احترق نصفها وتقشَّرتْ منها البوية، وضعتها في منتصف العربة بجوار سالم.

من بولاق إلى العباسية لم يكن الطريق طويلًا، ولكن هناك ما جعله يطـول، في اللحظـة التي قفزت فيها فوق الكارو تسـاءلت، أين حدث لـي كل ذلك؟ عندما نهضت كأن المقعـد قذفني آلاف الكيلو مترات، حين بقيت أمي صامتة متكئة إلى جدار كأي زوجة قديمة تزوج رَجُلها من امرأة أخرى بسهولة، على مرئى ومسمع من الجميع، حين خدعها وذهـب بكامل إرادته إلى أرض جديدة لم تهلكهـا أربعة بطون، قالت له وهي تنزل السلم ذاهبة إلى دجاجات القن، أنا موجودة يا يحيى، إن أردت العودة فـستجدني، وإن أخذتك دنياك الجديدة فسـأربي مروان والبنـت والرضيـع ولن أُقصِّر، ويخـرج أبي دون أن يـرد، كان مهزومًا ومنسحقًا أكثر منها، صَفَقَ الباب وراءه دون كلمة واحدة، وساد صمت القبور في الدار، أحسسـت في تلـك اللحظة بريح باردة تنخر عظامي، ألهـث دون أن أبـذل أي مجهود، لكنـه لهاث مَن يسـقط من حلم إلى هاوية، أتنفس بصفير مسموع. بعد أن خرج أبي مبتلعًا صوته استدارت سـيارة أمام البيت فالتمع الكشـاف الأحمر في مؤخرتها، وأثناء ذوبان الضوء في شـبورة الليل نزل منها صاحب الدفتر، قال لأمي، لقد تنازل يحيى عن الأرض، وهذا هو المستند الرسمي الذي يُثبت ذلك، أخرج

ورقـة مكتوبة بلغـة غريبة، قال إنهـا الدليل الدامغ علـى صحة كلا٠٠،
ليـس بمقـدوري أن أصدقك، قالـت أمي، ثم سـحبتني خلفها، ولـ
بمقدوري أيضًا أن أكذِّبك، ولكن بمقدوري أن أفلق رأسك إن اقتر
من أرضي، واسـتلَّت فأسًـا لا أعرف من أين أحضرتها بهذه السـر
حملتهـا على كتفها ووقفت تشـير إلـى الغريب باتجاه بـاب الخرو
لا تـأتِ إلى هنا مرة أخرى، والشـيء العجيـب أن الرجل القوي امتثل
للكلام دون رد، أخذت نسـائم باردة تغسل صدري حين رأيتُ الضو
الأحمـر يتلاشـى فيعم الليل السـكون والأمان كما كان، يـوم، يومان،
شـهر، شهران، والرجل حامل الدفتر، والذي كان حاملًا للسلاح ذا
يوم، لم يأتِ مرة أخرى، وفي مسـاء شـح فيه الخبز جذبتني أمي عنو،
اسـمع يا مروان، لا تظن بأن أمك تلبسـتها روح الشـجاعة فجأة لتهت
فـي رجل لديـه دبابة محشـوة برجال يحملـون ما لا أسـتطيع عدّه من
المرتينات، كل ما في الأمر أنها محاولة يائسـة، فإن عاد إلى البيت من
جديـد سـأجر معه الكلام الناعـم، أما أنت، فـلا أود أن تكون موجودًا
عندما يعود، سافر يا مروان مثلما طلب منك أهل صفية، سافر وجرب
حظـك يـا ولدي مثل زكريا، سـأرتاح وأنت بعيد، لـديَّ مرتينة قديمة،
سأجعل تاجر السـلاح يعبئها لي وأخبئها خلف السجادة المُعلقة فوق
الحائط، وعند اللزوم، سيفعل الله ما يشاء، قال مُدرسك ذات مرة، إن
بلدنا له تاريخ طويل ومُشـرف، وأنا لا أفهم في هذا الكلام، كل ما في
الأمر أنني أريد فقط العيش فوق أرضي ولا يأخذها مِنّي أحد، لن أغلب
بأختك سلمى وأخيك الرضيع، وربما أبيع السيد فيلبس وأشتري بدلًا
منه مكنة سنجر تساعدني، فلا أمد يدي لأحد، اذهب يا بن بطني، ربما

،مود سالمًا غانمًا، إن عدت ووجدتني سأرقص لك الدبكة وأذبح ،مروفًا، وإن لم تجدني فأنت تعرف المكان، اذهب واقرأ لي الفاتحة ،أطعِم أعمى وكسيحًا، هي الحياة يا ولدي ولن تتغير. رقّاص ساعة الحائط فوق رأس أمي يدور، الزمن فقط يمر ولا معنى لذلك.

كان الصداع يحطم رأسي، بعد ساعة من الفرجة على الناس والأشياء وصلنا إلى العباسية، نقلت مقتنياتنا البسيطة من الكارو إلى الأرض، أعطيت العربجي الأُجرة وعدت إلى مريم لأحمل منها المكنة، وضعتها على مهل بجوار جدار، ثم تأملت المكان من حولي.

"هل تهت عن العنوان يا مروان؟"

"لا يا مريم، لكن ماما أمل قالت لا بد أن أذهب أولًا إلى مكتب رجل يدعى الشنصار وقالت إن مقرّه بعد المستشفى الإيطالي بثلاثة بيوت".

لم يكن في الشقة الجديدة مرآة، فقط فوق عمود صغير ملصوق قطعة صغيرة في حجم كف، لا تستوعب الوجه كاملًا، داهمتني رغبة مُلحة في أن أرى نفسي، أتأكد من وجودي، كانت القطعة الصغيرة تسمح بأن أرى جزءًا من وجهي فقط، نزعتُ المرآة الصغيرة عن الجدار، حين مررتها فوق بطني وصدري، بدا لي جسدي قِطعًا غير موصولة، ليس جسدي فقط هو الذي تجزأ، أفكاري أيضًا، وكلامي، ذكرياتي حيث ضاقت ممراتها واختنقت، وأخيرًا، لم أستطع التفكير

طويـلًا، ارتميتُ بفعل الإجهاد فوق مرتبة ملقاة على الأرض، تمددتُ بعد أن هدني التعب، إن أفضل شـيء لقتل الوقت دون شعور بالذنب، هو النوم.

أول مـا خطر ببالي في الصباح هو البحث عن عمل، مرَّت برأسـي الأعمـال المشـهورة في بلدتـي، كانت جسـر الزرقا قريـة صغيرة، أما العباسية فمدينة، لا يوجد بها فخراني أو صانع شموع.

عملتُ في مهن كثيرة، لم أسـتمر بإحداها أكثر من أسـبوع، ذهبتُ مع عمال يسـمونهم "الأنفار" كنا نكافح مثل نمـل بأيدينا وأكتافنا، في اليوم الأول أخرجنا جرَّافة من بطن شـاحنة على السـقالات بسواعدنا العارية، وفي اليوم الثاني شـرعنا في إزالة أكوام قمامة عن مسطَّح كبير يلـف حوله سـور، حددوا لنا مربعًـا من الأرض ببودرة بيضاء، فرشـنا فيهـا الطمي بالمجاريف، وفي اليـوم الثالث غبت عن العمل، وقررتُ ألا أذهب إلى أعمال من هذا النوع مرة أخرى.

بعد أيام قصدني رجل عجوز في مهمة قال إنها لن تستغرق أكثر من ثلاث سـاعات، وافقتُ لأن الأجر كان معقولًا، حملت منجلًا ومقصًا حديديًّا كبيرًا وذهبت مع العجوز، عملتُ معه مساعدًا لبستاني، نشذب الأشجار في الفلل والبيوت الكبيرة، ونُعبئ العشب الجاف في شكائر، ذهبـت معـه مرتين، تبدو مهنـة نزيهة إذا مـا قورنت بسـابقاتها، لكنني وجدتهـا مرهقـة للغاية، بعد أسـبوعين، وعندما فرغ جيبـي من النقود عملـت في محل بامبـو، كنتُ أجدلُ الخوص للمقاعد وأضفرُ سـلال القـش، أنقع النبات الجاف في براميل المياه ثم أشـدّه خطوطًا متوازية

على مقاعد الكراسي ومساندها قبل أن يجف، طقطق عمودي الفقري ونيبستْ عظام فخذي بعد خمسة أيام عمل فقط، فعملتُ مع كهربائي متخصص في الضغط العالي، كنا نُصلح الأعطال داخل غرف حديدية صغيرة، مرسوم على بابها جمجمة وعظمتان متقاطعتان.

آخر عمل في هذه السلسلة الشاقة كان وقوفي في كشك سمك تابع للجيش.

فشلتُ فيها جميعًا، ما زلتُ أشعر بأن مكاني الطبيعي هو المدرسة، متعلمًا أو مُعلمًا، وأي شيء غير ذلك هو غير حقيقي وغير موضوعي.

الكلمات ترن في نفسي، كأنها صدى قادم من مكان بعيد.

أثناء مروري لمحتُ مطعمًا، كنتُ جائعًا، دخلتُ متبعًا نداء بطني، انحنى أمامي رجل يحمل فوق ذراعه فوطة بيضاء بشكل دائم:

"لدينا لحم ضأن معمول في الفرن، مرشوش عليه قدر لا بأس به من الفلفل الهندي الحار والبردقوش ومسحوق جوزة الطيب".

"كم ستأخذ مني؟"

رفع الرجل حاجبيه بدهشة، فيما نظره لأسفل كما هو.

"هذا ليس مهمًّا في الواقع".

"إنه المهم".

ابتسم الرجل ابتسامة واسعة، فانشقَّت شفتاه عن صفين من الأسنان الكبيرة ناصعة البياض، وعاد صوته يتخذ طريقه التدريجي للهدوء.

"أنا تحت أمرك فيما ترى".

وضعت يدي في جيبي ومضيتُ أتحسس ما فيه من نقود، ثم سرتُ في خطوات واسعة بعيدًا عن المطعم، فنادى عليَّ الرجل حامل الفوطة وهو منتصب القامة، قال بأناقة شخص مسؤول عن مظهره:

"هل ستمضي بسبب النقود؟"

وقفتُ والتفتُّ:

"لا، سأمضي بسبب التوتر، أريد أن أعرف مقدمًا المبلغ الذي سأدفعه؟"

اقترب الرجل خطوة، أخرج ورقة من جيبه وفردها.

"إن كان لا بد أن تعرف، فوجبة لحم الضأن المُتبل بمئة وخمسة قروش".

"لا أملك إلا جنيهًا".

"تعالَ، سأحضر لك ما طلبتَ".

غمرتني سعادة كبيرة للفوز بتلك الوجبة التي اشتهيتها، الجوع والرائحة ووصف الرجل الذي يسيل له لعاب الشبعان، أشرتُ إليه بإنزال الطلب على مائدتي.

عندما سـألت عـن الدفع تعجب حامـل الفوطة الأنيـق، رأيتُ في عينيه أن السـؤال عن سـعر الوجبـة قبل تناولها يُعد نوعًـا من الجلافة، عطّف عليَّ الرجل ذو الابتسـامة الثابتة والعيـن المنكفئة دائمًا باتجاه نعليـه، اجتاحتنـي رغبـة غريبـة في التهـام أكبـر كمية ممكنـة من لحم الضـأن، كل مـا بلغني من روائـح كان يصل إلى حواسـي دون المرور على وسائط أخرى.

منذ قليل ضربني الجوع، والآن وخم عقلي من الشبع، خرجت من المطعم وأنا بالكاد أسـتطيع المشـي، بعد قليل قررتُ أن أكمل الطريق سيرًا حتى البيت.

قـذف الحصى ببوز الحـذاء أصبح لعبتي، الشـارع المفعم بروائح الشـواء لم يعد يغريني، كل شمس تشـرق عليَّ في مكان مختلف تُغيّر أفـكاري وقناعاتـي، لـم أعد متحمسًـا لفكـرة المقاومة أو العـودة، أنا لستُ أسـطوانة مسجلًا عليها أشـعار الفدائيين وموسـيقى المارشات العسكرية، يمّا، أنا لستُ خاتنًا للأفكار الكبرى، ولكنني مثل كل البشر، أجوع وأشـبع، أحب وأكره، أنام وأصحو، أجذب برفق ذراع أحلامي حتـى تلتفـت وتراني، عندما كنـتُ جائعًا لـم أفكر في أحـد، لا زكريا ولا أبـي ولا صفية، سـامحيني يمّا، ولا حتى أنـتِ، لا أتخيل أن أقاوم شـيئًا أكبر مـن إرادتي، الاسـتمتاع بالحيـاة دائمًا أكبر من الشـعارات، لا أدري يمّـا، هـل بـدأتُ أرث جينـات أبي التـي طالما اشـتكيتُ من تحكمها في روحه ونفسـه؟ كان يفعل ما يحلو له لا ما يعجب الناس، تـرن جملته الخالـدة في أذني كثيرًا هذه الأيـام "وإيش يفيد لو رضيت

النـاس وزغَّلت نفسـي". عندمـا كبرت يمّا اكتشـفت أن قسـوة الناس تزداد أكثر على رأس المظلوم، فلا يحلو لهم ذِكر الطعام إلا أمام جائع، ولا ذِكـر الحرير إلا أمام عريان، ولا الحديـث عن حنان الأم وفضائل الأب إلا أمام يتيم، ولا ذِكر معنى وطن دافئ إلا أمام فلسطيني، الحياة تكـذب علينـا عندما ترسـم تصوراتنا، لا قدرة لي على العودة، رأسـي أصبح كطاحونة مُعطلة، وصرتُ لسبب لا أعلمه، منبوذًا من داخلي، لا أسـتطيع أن أحب نفسي، لا أستطيع أن أفكر في الحب، ورغم زواجي لم أنجب يمّا، هل انتابتني رغبة في أن أكون عقيمًا، رغبة غائرة مخفية، مـاذا إن وُجدتْ، وما هو السـبيل لوقف مفعولها؟ هـل لا يريد الله أن يهبنـي روحًا جديـدة تتعذب مثلما حدث معي؟ قال لـي أبو الخيزران عندما تذهب إلى الكويت سـتتعلم أشـياء جديدة، ربما تعلمت أشـياء جديـدة، لكني لم أذهـب إلى الكويت، وقال أبو صفية ذو الشـوارب، اذهب وغُص في المقلاة مثل زكريا، أنا لا أعرف كل شـيء في الدنيا، فالكـون مليء بالألغاز. يمّا أنـتِ تعلمين، كل عمري كنت على طرفي نقيض مع زكريا، بل إننا في الواقع، نكره بعضنا، زكريا لـم يكن يستطيع أن يفهـم قـط، لماذا يتوجب عليـه أن يصرف على العائلة طوال عشـر سـنوات؟ بينما يروح ويجيء مروان إلى المدرسة مثل الأطفال، كنتُ أريد أن أصبح طبيبًا، وزكريا يمّا، أنتِ تعلمين جيدًا، لن يفهم قط معنى أن يتعلم إنسـان، فقد ترك المدرسـة حين ترك فلسطين، وماذا ترك لي بسـفره؟ لا شيء، لا شـيء غير أنه وضعني أمام ضميري وجهًا لوجه، فـكان لا بد لي أن أترك أنا الآخر المدرسـة وأغـوص في المقلاة، كما

يحب زكريا دائمًا أن يسمي الغربة إلى البلاد البعيدة، لا بأس، لا بأس، أيام قليلة وسأصل إلى الكويت، وإن لم تصل يا مروان؟ لا بد أن يساعدك زكريا، فذلك أفضل يا ولدي، لا تخافي يمّا، إذا تجاهلني فلسوف أعرف كيف أهتدي إلى أول الطريق كما اهتدى كثيرون، ولسوف أرسل لكِ ولإخوتي كل قرش أحصل عليه، سوف تغرقون في الخير بعد ذلك.

الحصى لا ينتهي، ورغبتي في القذف به بعيدًا لا تنتهي أيضًا، لم أستطع أن أكمل خطابي إليك يمّا، فالقروش القليلة التي بعت بها سمكًا في كشك الجيش، وجدلت بها كراسي الاستراحات والمصايف، وشذبتُ بها صفوف الأشجار في الفلل، أكلت بها لحم ضأن متبل بالبردقوش ومسحوق جوزة الطيب والفلفل الهندي الحار.

16

امرأة ببطن مترهل ومنقوش، هكذا أصبحتْ مريم.

لم تعد نضارتها كما كانت منذ أن تحولت إلى زجاجة حليب.

كان ثدياها تفاحتين.

ثم أصبحا رمانتين.

ثم خرج الموضوع بعد ذلك عن السيطرة.

وأنا..

أبحث كل صباح بين فخذيَّ عن البضاعة.

أتأكد أنها ليست، بوم، مثل أبا الخيزران.

يوم أن طار منه كل شيء.

لو كان كل شيء على ما يرام.

فلماذا إذن لم أنجب الولد حتى اليوم؟

وضعتْ مريم ما تبقى من ثمن البيت في البنك واطمأنتْ.

لم أعد أحتاج إلى عمل.

فقد أصبح لي صاحب.

كنتُ قد رأيته مرتين، الشيخ سيد.

رجل طيب على مشارف الستين.

يصلي بنا إمامًا في مسجد خاتم المرسلين بميدان العباسية.

كنت أنسى كل أزماتي الطاحنة كلما جلستُ معه في بيت الله.

يا مروان، لماذا لا تُصلح مع الله ما فسد بينك وبين البشر؟

أفكر في الأمر يا شيخ، أفكر في الأمر.

كان الشـيخ سيد أكثر مني إيمانًا وأشد قربًا من الله، يقرأ القرآن كل مسـاء، ويصلي بانتظام ويحضر قبل مواعيد الصلوات الخمس بنصف سـاعة يذهب جريًا وهو يفرز مفاتيح المسجد بين أصابعه، يؤذن ويؤمّ المصلين ويُشرف على صندوقي النذور والزكاة، ومقابل ذلك اكتسب لقبًا جديـدًا، خـادم المسـجد، كان يتقاضى عن هـذه الأعمـال أجرًا معقولًا يسـاعده على العيش، لحيته طليقة وملبسـه ثابت طوال العام، جلابية بيضاء أسفلها صندل وأعلاها سِواك.

هل كنتُ أبحث عن شخص حتى أقلده؟

طالمـا قضيتُ الليالي في المسـجد، حتى أصبحتُ نسـخة مصغرة من الشـيخ سـيد، غزا الشـيب لحيتي بشكل لافت لا يتناسـب أبدًا مع سِـني، عشـر سـنوات على الأقل أُضيفتْ فوق عُمري الفعلي، سألت شـيخًا مُسنًّا من رواد المسـجد عن هذا الأمر، أخذ ينظر إليّ من أسفل إلـى أعلى ويدور حولـي كأنه يعاين بقرة، ثم قال، هذه لحية أوشـكت أن تمـوت، أما أنت فما زلت شـابًّا، ورغم أن الرجل كان يمزح، فإنني نظـرت إلى نفسـي وكأننـي صرتُ بالفعل عـدة أجـزاء، كل قطعة مني تؤدي غرضًا منفصلًا.

لـم أجـد مَـن أتحـدث إليـه بسـهولة، راودتنـي بعـض الأمنيـات التـي لا يمكننـي إذاعتها أمام أحد، أريـد أن يعود بي الزمـن قرونًا إلى الوراء، أجلس على ظهر دابتي وأُشـهر سيفي لأواجه أعداءً واضحين، يجاهرون بالكُفر والضلال المبين، وبذلك، يحق للمؤمنين من أمثالي أن يقطعوا رءوسهم دون ذرة ندم.

فرضـت علـيَّ العزلـة الدينية شـيئين متضاربيـن، كنتُ أشـعر أنني أتحرك في مساحة ضيقة جدًّا ومحدودة من التعاملات مع الناس، وفي الوقت نفسه أحلم أن ينبت لي جناحان وأطير فلا يوقفني أي شيء.

قضيت في المسـجد كل أشهر الشتاء وبشائر الربيع، اعتدت خلال تلـك الفترة على حيـاة القناعات الكبيرة، فالحيـاة والموت هما وجها العملـة وقُضي الأمر، لم تعـد لديَّ رغبة في التفكيـر، هل نحن صباح الخميس أو مساء الأحد، سالت كل الفواصل بين الأشياء والأحداث، حتى الذنب الذي كنت أشعر بأنني اقترفته ذات يوم، تبدَّل برغبة طاغية في عزلة هادئة ومرهفة.

أصبحـتُ أعيش أيامًـا طويلة بلا جيران، الشـيخ سـيد والمصلون فقط، لم أعد أبحث عن العمل في أي شـيء، أهملتُ لحيتي فوصلت أطرافهـا إلـى آخر قفصـي الصـدري، كنت أشـاهد العالـم الخارجي بأحداثـه وألوانه وناسـه من نافـذة المسـجد العلوية كأننـي أقف فوق كوكـب صغير مُعقَّم، أتابع دفع الناس بعضهـم بعضًـا، وأتندَّر من بعيد علـى فسـاد الأرض، وبدأت أرى حبيبي رسـول الله فـي المنام كثيرًا،

للحق، كنتُ أرى هيئة هُلامية لكائن يأتي ومعه هالة واسعة من ضوء، من يكون إذن لو لم يكن الرحمة للعالمين؟

بعض أعمال جمعتني بالشيخ سيد، كتنظيف مكن الخياطة السنجر المرصوص في الدور الثالث من مبنى المسجد، مشغل لتعليم الفتيات اليتيمات لتعليمهن التفصيل وشُغل التريكو وتشطيب الأوفر. في ذلك الوقت كنت أطهو لي وللشيخ ما تيسر من الطعام على الوابور البريموس، أو عمل الشاي على السخان الكهربي، جذبتني هذه المهنة الرقيقة، التفصيل، كنت أستغل اندماج الشيخ سيد وهو يعلم الصغيرات وأتعلم معهن، عندما يغلق المشغل أبوابه بعد صلاة العصر كنت أفتحه بالليل، أجرب كل المكن، تشابك الخيوط في مكنة الأوفر، ورف السكينة لتنظيف الخيوط الزائدة، تداخل أكثر من لون في حصيرة مكنة التريكو، كيف يمكن التعايش جنبًا إلى جنب مع كل هذه الألوان؟ كان هذا هو سؤالي الذي دفعني للمزيد من التعلم، ليالٍ طويلة متواصلة وأنا أجرب عمليًا ما تعلمته من الشيخ، قضيت الربيع كله في المشغل، وقُرب بشائر الصيف، أصبح يمكن للشيخ سيد أن يعتمد عليَّ مُعلمًا للفتيات الصغيرات في مشغل الأيتام بديلًا عنه.

لم أعد أحتاج للخارج في شيء، بل الأكثر من ذلك، لا أود أن تخطو قدمي خارج المسجد، أصبح بيتي الذي أتمنى أن أقضي فيه ما تبقى من عمري، وأُبعث منه إلى السماوات العُلا. وعندما يأتيني مروان القديم الهارب من مصيره، أُبعده قدر استطاعتي عن هذا المكان الذي لا يليق إلا بالملائكة، وبترتيب خارج عن إرادتي، لم أعد أرغب

نهائيًا في العودة إلى البيت، حتى الولد سالم، كان يكبر دون أن أدري، أنضجته أمه بعيدًا عني، كان يروح ويجيء بمنتهى الإزعاج، يصرخ حين أريد أن أنام، ولا يأتيه النعاس إلا في فرشتي التي تتغير رائحتها يومًا بعد يوم، تتحمله أمه، ولها الحق، فهي وحدها، أمه.

وذات صلاة فجر، وضع الشيخ سيد يده فوق كتفي في أُبوَّة صادقة وقال:

"الآن جاء دورك يا مروان لتلقي خطبة الجمعة".

"أنا يا شيخ؟"

"نعم. لقد جهزت لك ورقة جمعت فيها كل الآيات التي تدفع الناس لكُره اليهود، خُذ يا مروان، فهذا زمن الجهاد يا ولدي".

جلستُ في ركن المسجد وفتحت الراديو، كنتُ أشغل نفسي بسماع الأخبار من هنا وهناك بين مواقيت الصلاة.

عقد المجلس الوطني الفلسطيني مؤتمره بالقاهرة، ودام أربعة أيام، وتم انتخاب ياسر عرفات رئيسًا للجنة التنفيذية بالمجلس، وفي ختام الاجتماع الأول للمجلس أصدر رئيسه الجديد نداء، تضمن دعوة الجماهير الفلسطينية والعربية كافة إلى مزيد من العطاء المالي للمجلس، وذلك لتسهيل العمل والإقامة والتنقل لأبناء فلسطين.

اجتمعت بأديس أبابا اللجنة الاقتصادية لإفريقيا، والتابعة لهيئة الأمم، وقد شمل جدول الأعمال المشاكل الاقتصادية المتعلقة بالتنمية الاقتصادية في إفريقيا.

اشـتركت الهيئات النسـائية العربيـة في اعتصام مفتـوح تضامنًا مع المـرأة الفلسـطينية فـي الأراضـي المحتلة، وقـد تجمعت النسـاء من مصـر في جامع عمر مكرم بجاردن سـيتي وكنيسـة مارجرجس بمصر الجديدة.

"يا عم سيد".

جاءني الشيخ يسعى وهو يحمل في يده مصحفًا صغيرًا.

"أيهما أقرب لنا، كنيسة مارجرجس أم مسجد عمر مكرم؟"

"ولماذا تسأل يا مروان؟"

"أريد أن أرى وجوه النساء اللاتي وقفن للتضامن مع أمي".

بدا على ملامحه غموض كلامي، فقرفص قبالتي ووضع يديه فوق ركبتيَّ.

"تـرددتُ كثيرًا في أن أسـألك هذا السـؤال، تبـدو يا ولدي كأنك تحمـل فـوق ظهرك هموم الدنيا، فما هي حكايتك؟ إن شـئت فاحكِ، وإن لم تشأ فلن يُغضبني صمتك".

وكأنني كنت على شفا حفرة أريد الوقوع فيها، أنتظر أن يسألني أي مخلوق سؤالًا يسمح لي بالكلام، بدأت في استدعاء الحكاية من أول الخيط، لا أعرف كيف انسابت بهذا الترتيب، من الألف إلى الياء.

القاهرة 1973

17

تقلَّب سالم في فرشته.

"قُم يا ولد لتصلي الجمعة مع بابا مروان".

لم أتقبل ذلك اللقب، لم أشعر به، كلما فشلتْ مريم في تأديبه كانت تهدده "سأقول لبابا" حتى وهي تدربه على الصوم المبكر، تسعة أيام مرت من رمضان، كل يوم تجبره على الامتناع عن الشراب والطعام حتى أذان الظهر، لقب "بابا" لم يكن مُريحًا، فأنا لم أفلح في إنجاب الولد طوال ست سنوات، تغلبتُ على مشاعري الحقيقية أمام مريم، أمسكتُ بذراع الولد، كان هامدًا، سالم كسول ولا يحب أن يتحرك من مكانه، رفعته من منامته فغسلتُ وجهه وغيرتُ له ثيابه.

ناولتني الطاقية البيضاء، لم تنسَ أن تقول لي:

"اللون الأبيض في شعرك ولحيتك طغى على اللون الأسود".

ثم تأملتْ وجهي أكثر من اللازم فأرادتْ أن تضيف:

"لكنه زادك وقارًا".

لم أردّ، فكثيرًا ما كانت تحاول إصلاح الأمر فتزيده سوءًا.

سحبت الولد في يدي وخرجت إلى الطريق الأسفلتي، تراودني هوايتي التي أدمنتها عبر السنوات، بيوز حذائي أقذف الحصى لأبعد مسافة ممكنة، وكما يُضيء الشيء من الداخل، رأيت أبي وهو في الريعان ينظر إليّ ويوجه كلامه لأمي، الولد اسم الله عليه، قَويَ ساعده ويمكنه حمل نيشان، يطول عمرك يا أبا مروان حتى تراه قائد فرقة، لماذا يا مروان توسع خطوتك للأمام دائمًا أثناء السير؟ أشعر دائمًا يا أمي أنني نسيت شيئًا يجب عليَّ أن أفعله، يا ولدي بدري عليك هذا الكلام، وكأن يد الرحمن سوتك أكبر من عمر الثماني سنوات، يا ولد، نعم يا أبي، أمك تقول عنك كلامًا يخزى منه الصبيان، فلماذا لا تعبط فيها وتبوسها بعدما تمنتْ لك أن تصبح قائد فرقة، سيعطونك التحية العسكرية مثل مونتجمري، استعداد، سلاح، اضرب، وأرمي بجسدي فقط في حضن أمي، كأنني مقطوع اليدين، تبوسني ولا أرد لها القبلة، الولد ينكسف يا يحيى، لا تُثقل عليه بكلماتك الكبيرة.

انحرفتُ قليلًا عن الشارع الرئيسي، قصدت المسجد الكبير تخريمًا إلى ميدان العباسية، الطريق ينحني كثعبان فيُفضي بي إلى وحدة عسكرية، يحرسها جنديان وينتصب أمام بوابتها تمثال لمقاتل حجري يحمل السلاح، وهناك، عند منعطف الطريق رأيتُ امرأة في ثوب ريفي طويل، تحمل فوق رأسها بقجة، وتدق الأرض بالطريقة نفسها التي كانت أمي تسير بها في المُخيم، لا ينقصها إلا أن تنادي، يا مروان، نعم يمّا، أصبحنا نشتري زيت الزيتون بالكيلو بعد أن كنا نزنه

بالجـرَّة، لـم أكن أعرف يا ولدي سـوى بعض البيوت وطريق السـوق في جسـر الزرقا، ولا أسمع سوى أصوات مَن أعرفهم بالفعل، أما بعد أن اشـترى أبوك السـيد فيلبس أصبحتُ أرى الخراب يملأ كل العالم، وأسـمع صوت لندن وموسـكو وبرليـن وطوكيو والقاهـرة، أصبحتْ أخبار العالم كلها تدور وكأنها على بُعد خمسة أمتار من باب الدار.

بدأ الضجيج يتحول إلى همس، صارت المرأة في محاذاتنا، أسمعه بوضـوح، حفيف ثوبها الطويل المطرز بخطوط حمراء، أنظر إليها من خلـف شـجرة كافور، وفجأة أناديهـا "يمّا. يمّا" توقفـت المرأة لحظة، أدارت بصرهـا باتجـاه المُعسـكر الـذي يقـف أمامه جنديـان ومقاتل حجري يحمل السـلاح، ظللت أراقبها في صمت، عندما التفتُّ رأيت جسـد أمي نبتت فيه ملامح امرأة أخـرى، بعد مرور لحظة، ولحظتين، وثـلاث، عادت المرأة تشـق طريقهـا كما كانت، عـاودتُ النداء "يمّا. ردي علـيَّ، فصوتـك هـو اللغة الوحيدة التـي أفهمها" فوقفـت المرأة مـرة أخرى، ونظـرتْ حولها محتارة، تتأمل صـف الكافور الذي يلقي بظلال الغروب فوق رصيف المشـاة، وحين لم ترَ شـيئًا أنزلت الصرة عن رأسـها، عند أهـداب الثوب المطرَّز وضعتْهـا، أراحت كفيها على خاصرتيها، أخذتْ تُنقِّب بعينيها بين الشـجر وتتأمل السـيارات القليلة التـي تعبـر الطريـق، فقلت للمـرة الثالثة "يمّا. أنـا هُنا، أنا مـروان يمّا" التقطت المرأة مصدر الصوت، فتأملتني برهة، إلا أنها لـم ترَ شيئًا يلفت انتباهها، فانحنت ورفعتْ بقجتها فوق رأسـها واستدارت للطريق، ثم انعطفتْ في شارع جانبي واختفتْ.

هل تتشاجر حياتي مع الخيال؟

ابتعدتُ عن الشجرة، تركت يد سالم تفلت من يدي واحتضنتُ الهواء، تمامًا كما يتعانق مخلوقان في حُلم، وعندما لاحظتُ انتباه المارة لي عدت إلى المشي المنتظم، أقذف الحصى ببوز حذائي.

وصلتُ إلى مسجد خاتم المرسلين، كنت قد اعتدتُ منظر المرأة العجوز التي تجلس كالتمثال فوق حجر أمام الباب الكبير، يتعطَّف عليها المارة بما تيسر من قروش أو طعام وثياب، فتهز رأسها ممتنة دون كلام، فقد كانت خرساء.

عند دولاب وضع المداسات قابلني الشيخ سيد، قبّل سالم من خده ويده.

"لم تقُل لي إن لديك ابنًا من قبل".

حمله بين ذراعيه.

"هو ابن زوجتي يا شيخ".

أعطاه حفنة من الملبّس وذهب جريًا إلى الميكروفون، بعد أن أذَّن لصلاة الجمعة عاد إليَّ بملامح باشّة:

"هل تعلم مَن سيُلقي في المسجد خطبة الجمعة القادمة؟"

كان فرحًا فلم يستطع معي صبرًا حتى أفكر في رد.

"الشيخ عبد الحميد كشك".

ورغم نطقه بالاسم، لا أعرف سببًا لكل هذه الفرحة أيضًا.

عندمـا انتهينا مـن صلاة الجمعـة، وبعد الخطبة الوعظيـة القصيرة جذبني الشيخ سيد من ذراعي:

"الشيخ كشك لا يخاف في الله لومة لائم".

عدنـا إلى البيـت، كان حذائي يحتـاج إلى ترميم بـوزه لكثرة قذف الحصى في الطريق.

فـي صباح اليوم التالي كان الراديو يذيع أنباءً حربية خبرًا إثر خبر.. فصائل المقاومة في لبنان وسـوريا داخل قواعدها السـرية على حدود الأراضـي المحتلـة، في وضع متأهـب وحالة طـوارئ كاملة.. أجرى وزير الخارجية المصرية محادثة مع هنري كيسـنجر تناولت العلاقات بيـن البلدين.. هاجمت إسـرائيل جمهورية زائير بعـد قرار موبوتو عن قطـع العلاقـات معهـا، وقد قال أثنـاء الخطـاب الذي ألقـاه في الأمم المتحـدة، إن العلاقـات لن تعـود إلا بعد عودة أراضـي مصر والدول العربية التي احتلتها إسرائيل عام 1967.

انتقلت إلى جوار الراديو، ألصقتُ أذني به.

أبلغـتْ دول الخليـج شـركات البتـرول العربيـة أنها بصـدد زيادة أسـعارها بنسـبة الثلثين.. أعلن متحدث عسـكري إسـرائيلي أن فدائيًا عربيًا ألقى قنبلة قتلت نائب مدير البوليس، وأصابت عددًا من الضباط والجنود.

جاءت مريم تسـحب سـالم في يدها، جلسـت بجـواري وأرهفت السـمع.

يتردد في الصحف أن إسرائيل على وشك القيام بمغامرة عسكرية ضد الدول العربية، في محاولة يائسة للرد على العزلة السياسية الدولية التي تعاني منها مؤخرًا.. أنباء كذبتها إسرائيل عن حشود عسكرية سورية على طول جبهة الجولان.. أدلى رئيس الأركان الإسرائيلي ديفيد إليعازر بتصريح قال فيه، ينبغي على الدول العربية التي تحشد قواتها على خطوط وقف إطلاق النار أن تعرف شيئًا مهمًّا، أن لدى إسرائيل أيدٍ طويلة تستطيع الوصول إلى أعماق هذه الدول.. أشار محمد حسنين هيكل رئيس تحرير جريدة الأهرام صباح اليوم إلى أن الاستراتيجية الأمريكية في الشرق الأوسط هي ضمان للتفوق العسكري الإسرائيلي، حتى تصبح اليد الغليظة التي تهوي فوق أي رأس يريد أن يرتفع.

بعد ساعات من تلك الأنباء السياسية المكثفة، صدح أثير الراديو بأغانٍ عاطفية خفيفة، ثم بث مختارات من الأغاني الوطنية، بعد أذان العصر قُطعت الأغاني وأُذيعتْ نشرة أخبار على خلفية موسيقى عسكرية، ذهب فلان وجاء علان، الاتفاقيات المشتركة وحائط الصواريخ، الحرب والأرض والخطط المتبادلة، وفكرت مرة أخرى، لقد أصبح العالم كله مليئًا بالخطط.

قطع الراديو صوت الأغاني وأعلن أن الجيش المصري اشتبك مع العدو الإسرائيلي في منطقتي السخنة والزعفرانة، سرعان ما تلاحقت الأنباء عن حرب كبيرة تدور رحاها الآن، لم أصدق، مؤكد أنها كذبة، وتذكرت عصا الأحْوَل التي كانت تنقرنا ونحن نيام في إسطبل قرشي، عندما حاول إقناعنا بأن عبد الناصر كبس على اليهود.

تتابعت الأنباء من الراديو والتلفزيون وكلام الناس في الشارع، وأخذتُ من جديد أتذكر جبال بلدتي القديمة، عند مداخل ومخارج جسر الزرقا، المعابر التي لا يعرفها إلا أهلها الأصليون. ستقوم القوات المسلحة المصرية بتسريب الجنود في الطرق التي تستعصي على الماعز، المهابط والمصاعد الجبلية، سيجعلون كل فلسطيني يعود إلى بيته وقريته، يتنسم برائحة يود البحر ويستظل بأشجار السرو. ما فشل فيه عبد الناصر سيقوم به السادات، هذا ربي، هذا أكبر، أستغفر الله العظيم، يا ألله سامحني، سحبتُ المسبحة وفركتُ حباتها مئات المرات، سبحان الله والحمد لله والله أكبر.

عليَّ أن أقتنع بعُمر عشته عريضًا، وإن لم أستطع أن أجعله طويلًا.

هل سيُقدر لي أن أعيش انتصارات العرب، وهل للعرب انتصارات؟ نعم يا ولد، صوت الأستاذ سليم، لديَّ الآن عاطفة صادقة في رؤية ذلك، انتصار واحد أُملِّي به عيني قبل أن أموت، ماذا تقول يا ولد؟ أقول ما سمعت يا أبي، يا مروان بدري عليك الموت يا ولدي، أنا ميت يا أمي منذ تركت فلسطين، عُد يا مروان إلى حياتك، فقد عدت مرات كثيرة من قبل، هل نسيت؟ وأحاول تذكّر ما يُثبت صدق كلامها، فذات دحرجة كُرة في الملعب سقطتُ مغشيًّا عليَّ، حشروا قطعة من البسكويت في فمي، أمسكوني كلهم في وقت واحد، كفاي تنبشان الأرض بجنون، رشوا وجهي بالماء، وقالوا إنني حين صحوت قليلًا انطلقت أعدو فوق الصخور التي تحيط بالمدرسة، وقال الأستاذ سليم، إنني كنت أبتسم بعناد رجولي لا يتناسب مع عمري، وقال أيضًا،

إن شَدَّة صدري وأنا أحاول النهوض، لم تكن تتناسب مع تلك الساق التي تشبه خيطًا من القنب، وفي المستشفى قالوا لي، اذهب إلى الدور الأعلى، أنت مقيد بالدرجة الثالثة وهذه عنابر الدرجة الأولى، عندما تمددت على سرير الدرجة الثالثة خرج كلام من أحد الأفواه، هذا الولد يشكو نقصًا في السُّكر، وكانت شفتي تنزف، لا أدري، هل بسبب البسكويت الذي دُفع إلى حلقي، أم أني كنت أبذل جهدًا مسعورًا فقط لأعدو فوق الصخور، واكتشفوا قصورًا في ضربات القلب، الخفقان يضطرب ويهدأ، وأغيب عن الوعي فأرى شقائق النعمان وزهورًا برية تهزها الريح، وغزلانًا وضباعًا وصيَّادًا ينتظر الوقت المناسب لينقض على الفريسة، وأطفالًا يمشون جماعات كأسراب الطيور ويقذفون بالحجارة، يضرب النيون الأزرق في عيني، وقبل أن أتأمل سقف الغرفة المضيء تمتد يد أمي بالمسخَّن، لا أستطيع البلع، وعاد الأستاذ سليم يقول، كنت تجري يا مروان وكأنك على موعد مع شيء مهم. لستُ أدري، هل كانت هذه الواقعة هي بداية ارتباطي بموعد حان الآن بالفعل؟

خلاص، تذكرتُ يا أمي أنني عُدتُ مرات كثيرة من قبل، يوم أن كنت أسير معكِ، عندما كانت البرودة تجمد الهواء والأمطار تدلقها السماء بالسطل، التحفنا ببطن سور قريب من البيت، غطيتني بإزارك عندما سمعنا صوت مطر آخر مصاحبًا للبرق، سحابة من دخان البارود فوق رأس السور، وعصافير في حجم راحة اليد تسقط في الوحل، وسمعتُ شتائم وأقدامًا كبيرة تدق همَّار المطر الذي يملأ الشوارع،

قلتِ لي بعدها إنني فقدت الحس والحركة لمدة نصف ساعة، حتى أخذتِ تعددي وتولولي على مَن تسبب في وصولي لتلك الحالة، مُتّ في تلك الدقائق ثم بُعثت على صراخكِ، لستُ أدري، كل ما أذكره، كأن قارًا مغليًا صُب فوق رأسي، سَرتْ قشعريرة ساخنة منبعها أذناي، لم أكن قبل تلك اللحظة أعرف، كيف لإنسان أن يبذل كل هذا الجهد ليحتفظ بحياته؟ التمسك بالحياة عمل شاق، كيف يناضل طفل بكل ما لديه من طاقة كي يصير مثل الآخرين، يخرج من الحياة ثم يُجرِّب، هل سيستطيع الدخول مرة أخرى أم لا؟ ربما استطعت في هذه السن أن أعرف كيف أتعذب وأنا أقاوم الموت، لكني لا أعرف لماذا أتعذب كي أحب الحياة؟

تنفتح شفتاي وتنغلقان بلا صوت، قاد أبو الخيزران سيارته الكبيرة حين هبط الليل، متجهًا إلى خارج المدينة النائمة، الأضواء الشاحبة ترتعش على طول الطريق، وكان يعرف أن هذه الأعمدة التي تنسحب أمام شباك سيارته سوف تنتهي بعد قليل، حينما يغرق في البُعد عن المدينة، وسوف يعم الظلام، فالليلة لا قمر فيها، وأطراف الصحراء ستكون صامتة كالموت، انحرف أبو الخيزران بسيارته عن طريق الأسفلت، ومضى يتدرج في طريق رملي إلى داخل الصحراء، لقد قرّ قراره منذ الظهيرة على أن يدفننا واحدًا واحدًا، في ثلاثة قبور.

ثلاثة قبور، ونحن كنا ثلاثة.

مرتْ محطات حياتي كشريط السينما، ليس فيها شيء متوقع.

هـل كان علـيَّ أن أعترف بيني وبين نفسـي بأنني بـركان صغير من حصى وغبار ودخـان، لكن لم يُقدر لـه أبدًا أن ينشـط ويلتهب ويرى الناس قدراته؟

بتُّ أكره كل المقولات الجاهزة، الأرض يُرحل عنها لكنها لا ترحل، معذرة يا أستاذ سليم، فأرض فلسطين رحلت وكأن البحر ابتلعها كما ابتلع قيسارية قديمًا، لكن البحر الجديد اسمه المستوطنات.

أنباء الحرب الدائرة في سيناء وحدود السويس والإسماعيلية لم تتوقف طوال عشرين يومًا.

ذات صباح، وفيما أستعد لسحب طاقيتي البيضاء والذهاب إلى مقري الجديد، مسجد خاتم المرسلين، أمسكتني مريم من ذراعي.

"ألا تكفي كل هذه السنوات من الاختباء في المسجد، هل تريد أن تصبح درويشًا؟"

نزعت كوعي من يدها.

"سأصلح مع الله ما فسد بيني وبين البشر".

عندما أصبحتُ قرب باب الخروج سمعتها تصرخ:

"مروان، لقد عاد أبي".

تسمَّرت ولم أرد.

"هل تسمعني؟"

استغرقتُ برهة حتى أستوعب ما قالته.

"ماما أمل تكلمت من تليفون أدهم البقال، قالت ثلاث كلمات: لقد عاد أبوكِ، في البداية لم أصدق، كيف ومتى وأين حدث ذلك؟ لاحقتها بالأسئلة حتى قالت، بعد ساعتين سنأتي لزيارتكم".

حبكتُ الطاقية الشبيكة فوق رأسي استعدادًا للصلاة.

"عم منصور يا مريم، يعود، هل يُعقل هذا؟ أقصد أن هذا نبأ عظيم".

"ربنا كبير يا مروان".

بدت الشقة غريبة فجأة في عيني، زالت فواصل السنوات الست ولم أستطع تجميعها في رأسي، استدرتُ ومددتُ يدي بالطاقية إلى الشماعة الخشبية مرة أخرى.

"وهل سألتيها يا مريم عن صحته، كيف أصبح حاله وأين قضى كل هذه السنوات؟"

همّتْ برفع جسدها.

"قالت إنه بخير، وإنهما سيستقلان تاكسيًا من بولاق حالًا".

لم يصادفني موقف شبيه بالمعجزات منذ أن جاءت عمتي هاربة في زورق، كانت من الدفعة الأخيرة التي رحلوها من قيسارية إلى جسر الزرقا، البلدة الصغيرة التي نزحنا إليها تحترق تحت شهب القصف في عام 1956، والضجيج الملتهب يتساقط في كل مكان، وأنا في الثامنة أمسك بتلابيب أبي، نطوف فوق موج داكن يتوه فيه

الصـراخ والدعاء، لماذا لم تأتِ عمتي يا أبي؟ امتلأ الزورق يا مروان، وجارٍ حشـرها في واحد آخر، صرفتُ الليل كله أُحدق في ملامح أبي وأقول في نفسي، لماذا يحدث لنا كل هذا، هل نحن بدع عن كل خلق اللـه، لماذا نعاني من أجل أشياء يحصـل عليها الناس بسـهولة؟ كان الفراغ أسـود بـلا نهاية، والمجاديف تدق سـطح المـوج، تدق، تدق، وجسـر الزرقا يغطس كالشـعلة في الميـاه، وقبل هزيـع الليل المُحاق ظهر الزورق الذي يحمل عمتي البدينة، كانت فرحتي عارمة بوصولها سـالمة، ليس فقط لأنهـا عمتي، بل لأنها نجتْ مـن مخاطر البحر بعد كل هـذا القصف، فرحتُ بوصولها لأن الحياة رغم كل شـيء لا تزال ممكنة.

ليس بوسع أحد التخلص من الذكريات حتى لو أراد ذلك، الأشياء التـي تركت أماكنها الحقيقية تتضح أكثر في ذاكرتي، التمع ضوء فجأة في رأسـي، وكأن كل هذه السـنوات لم تمر، تجلـت الصحراء النائمة في عقلي تحت كثبان مسـطحة، عندما كدتُ أن أفقد حياتي في العالم المليء بالرمال، كنت سـأهلك وتغطس سـيرتي في بئر المنسيين، عاد الدم ينساب في عروقي مرة أخرى، ومضيتُ أقاوم أفكار رأسي الثقيل المفعم بذكريات لم تعد تُعمِّر الجيوب، فتحت عيني واستنشقت نفسًا عميقًـا، حاولت أن أقف وأصلب عودي كما كنت منذ دقائق، إلا أنني لم أسـتطع، فأخذت أنظر إلـى مريم، محاولًا أن أقول شـيئًا، وبادلتني النظر دون كلام.

سيستقبل عم منصور السنوات الست الفائتة كما الحكايات الخيالية التي يرويها المقاتلون الليليون.

من الشباك الذي يطل على المستشفى الإيطالي، أخذت الشمس تتسلق السماء ببطء ووقار، والنهار يُطوى، وأنا أتابع كل التغيرات بترقب، كنت أفعل ذلك دون معرفة السبب، على ماذا تنوي يا بن يحيى سعيد، وكيف ستعالج هذه الثغرة التي ثقبتْ قصتك؟ في الكوابيس المُهلكة كنت تعرف بأنها كوابيس ليست من الواقع في شيء، تضرب بقدميك وتجدف بذراعيك وتنطح برأسك، ماذا سيحدث إن متّ في الكابوس؟ لا شيء غير أنك ستضيف إلى الحكاية الصباحية خاتمة تجذب سامعك أكثر "ولقد متّ في نهاية المنام" ثم تذهب بعد ذلك لتمارس حياتك وكأن شيئًا لم يكن، أما في هذه الثغرة فلا بد أن تتعامل بما يناسب تجميل صورتك في واقع وجدت نفسك فجأة أحد أبطاله، كنتَ تنوي أشياء كثيرة في الماضي، لكنك لم تستطع فعلها، وربما لن تستطيع.

جلستُ بجوار مريم وفرشتُ كفي أمامها.

"سنفعل ما بوسعنا لاستيعاب تواجد عم منصور بيننا مرة أخرى، بكل ما طرأ عليه من تغيرات، بجميع أسئلته المحرجة أو الجارحة، بأوامره في النهار وصراخه في الليل".

سحبت أصابعها من يدي.

"ومَن الذي قال لك يا مروان إن أبي سيعود بأوامر في النهار وصراخ في الليل؟"

أمسكتُ كفها مرة أخرى.

"أتوقع فقط يا مريم".

"توقعاتك غريبة يا مروان".

لم أزد شيئًا في حديثي إليها، كان رأسي يُقلب المعاني وعيني تتابع الصور المُتخيلة، أود لو أنني فرشتُ كفي أمامها لأقول لها الحقيقة، إن لدينا ضيفًا قادمًا من عمق الذاكرة، بعنا بيته يا مريم وقبضنا الثمن، لم نستطع منع بيته من أن ينصهر ويصبح رمادًا.

تُرى، ما الذي يدور في رأسك وأنت في الطريق الآن يا عم منصور؟ شفتاي فقط تتحركان، تتمتمان لكني لم أُخرج حرفًا، وعاد ضجيج العالم يتدافع إلى أذنيَّ من جديد.

تحتفظ الذاكرة مُرغمة بِصور الأشخاص والأماكن كما سجلتها آخر مرة، ولا علاقة لها بما حدث من تغيرات بعيدة عن خزانتها، لم يكن هناك بديل يا عم منصور، ما حدث كان لا بد أن يحدث، فقد خططت لزواجي من ابنتك دون أن تعترف صراحة بذلك، وها أنا قد تزوجتها، اتصلنا كثيرًا من تليفون الأطرش بالحاج سليم الكويتي لنطمئن عليك، لكن دون جدوى، أما عن البيت، فقد أحاطتنا بسببه كل المصائب، عندما أحرقوه كادت مريم أن تذوب في النار، فكرنا في بيعه، وقد ساعدتنا في ذلك امرأة تُكِنُّ لك حبًا قديمًا، ماما أمل،

لم نجد أفضل منها لتخليص عملية البيع، وبالفعل، بأعلى سعر باعته، وقـد ادخرنـا ما تبقى مـن الثمن في البنـك، هي نقودك وليـس لنا فيها مليـم، أما نصيب مريـم فيمكنك أن تعتبره هذه الشـقة التي نعيش فيها الآن.

انتظرتُ أن أعرف حكاية شـخص آخر هرب من مصيره المكتوب سلفًا.

فـي الموعد المتفق عليه رن الجرس، رأت ماما أمل الباب مفتوحًا فدخلـت أولًا، كان عـم منصـور يقـف بالخارج، وسُـمِعَ صوت عصا ترتطـم بالبلاط، الصـوت حاد ومنتظم، دخل عم منصـور وقد تغيَّرتْ هيئتـه تمامًا، تضاعف وزنه وطالت لحيته، كان يسـند تحت إبطه مثلثًا خشـبيًّا، له مخدة صغيرة من أعلى ورِجل كرسـي من أسفل، لم تستطع مريم أن تحضنه، اعتصم بذراع ماما أمل عندما أراد الجلوس.

"حمدًا لله على السلامة يا أبي".

يهـز رأسـه ولا يتكلـم، وتقـول مامـا أمـل، مـع الأحبة تُنسـى كل الأوجـاع، أمـا أنا، فلم أجد مـا أقوله، خرج مني الـكلام دون تركيز أو معنى:

"عم منصور، عم منصور".

طبقـات من شـحم أسـود حـول عينيـه كادت تُغلقهما، تسـلل من النافـذة خيط ضوء، فتح عم منصور فمه وحاول أن يصرخ بكل عزمه، لـم تُخرج أحبالـه الصوتية أي صوت، ملأ رئتيه بالهواء لكن الكلام لم

يصعـد من حنجرته إلى فمه، فعاد إلى التنفـس المنتظم، ثم حاول مرة أخرى ولم يحصل إلا على النتيجة نفسها، تأملتْ مريم بطن أبيها الذي ينفخ الهواء كالقربة، هل هي مسـألة وقت وسيعود كل شيء إلى سابق عهده؟

وقف الهارب الجديد من مصيره سـاندًا على عكازه، ومن الجانب الآخر ممسـكًا بذراع ماما أمل، خرج صوته كأنه اسـتَعارهُ من شـخص آخر، عريضًا ومتحشرجًا.

"لولا قيام الحرب لمُتّ هناك".

وقبـل أن يـرد أحد منّـا عليه، أشـار بكفه فـي وجوهنـا أن نصمت جميعًا، فقد جاء الوقت لنستمع إليه لا لنتكلم.

"هكذا يا أولاد مضت الحكاية..."

18

عندمـا عبـرتُ الجبل فاحـت رائحة اليـود وهواء البحـر، عصفت الرمال وغطت المسـاحة التي كنتُ أسيرُ فيها، مُلئتْ عيني بحفنة غبار دقيـق، رأيـتُ ثلاثة رجـال قطعوا الطريق، كنـتُ منكفئًا علـى المِقود، جرونـي من ياقتي خارج السـيارة، فيما ألصـق أحدهم وجهي بصخرة في منتصف الطريق، لم يكن يعرف سِـوى كلمة واحدة ظل يصرخ بها "فاكن. فاكن" أخذ يرددها بعصبية بين لحظة وأخرى، فتّشوا السيارة بدقة، لم يعثروا إلا على كيس تمر وزجاجة مولوتوف ومحفظة جلدية، أخـذوا المحفظـة ورموا كيس التمـر فتبعثرتْ حباته فـوق الرمال، أما زجاجـة المولوتوف فانتزعـوا فتيلها وأفرغوها مـن بترولها، عمَّ ظلام كبير ولـم أرَ سيارتي مرة أخرى.

بعـد أن أفقنـا أوقفونـا في طوابيـر طويلة، ثـم وزعوا علينـا أعمالاً سريعة لا علاقة لها بما نُجيده أو نجهله.

"نعـم يـا روحـي، مـا لـك يـا حبيبـي، ألا تـسـتطيع أن تعمـل بالزراعة؟"

"أنا لست فلاحًا يا سيدي".

"أنـت تكذب، كل العجائز لا يقولون الصـدق، في بلدكم الكبير الـكل فلاحـون، الجميـع يصلحـون للعمـل فـي الزراعة، لمـاذا إذن تكذب؟"

يتركني ويمضي لغيري.

عبؤونـا في صناديق السـيارات وقوفًا كما تُشـحن الخيول، أو نيامًا كما تُشحن زكائب الشعير.

"كل واحد منكم لديه عمل لن نحدد مدته، بل هو الذي سيحددها، فعندما ينهي ما سـنطلبه منه على أكمل وجه، سـنقوم بإطلاق سراحه، لـن نعاملكم معاملة الأسـرى أو العبيد، بل معاملـة المهنيين أصحاب الحِرف".

هرولتُ إلى الرجل الذي يتحدث في الميكروفون.

"ولكنني لا أفهم إلا في قيادة السيارات، لقد تم توقيفي أثناء قيادة سـيارة الحاج سـليم الكويتـي منذ يومين، وأنا لا أسـتوعب شـيئًا مما يحدث، و..."

أنزل الرجل الميكروفون عن وجهه.

"نحن لا نعرف حُجاجًا، فقط نعرف العمل أو الدفن هنا".

يدب موضع قدمه.

"وأنت الذي تختار لا نحن، فبإمكاننا أن نُربي بجسد ميت واحد ألفًا منكم دون أن نحمل همًّا".

بخبـرة الطريـق عرفـتُ أن تلك المنطقة التـي اسـتوقفونا فيها تتبع مصر، كنت قد سـمعت منهم أخبارًا عن الحرب، لم أعرف المسـاحة التي تم الاستحواذ عليها في الخطة الجديدة، ولا أعرف لمَن تتبع هذه

الأرض بعـد التقسـيم بين الغالـب والمغلوب، لكنني سـمعت الرجل صاحب الملابس الحربية يقول لزميله.

"أنت لا تعرف معنى أن تسـقط مصر بهذه السـهولة، فذلك يشابه أن تجد نفسك فجأة في فراش مارلين مونرو".

"وهل سقطت مصر كلها؟"

يتأكد زميله.

"يا سـعادة السـيرن، لو لـم يكن موشـيه ديان رؤوفًـا بالمصريين لتوجهنا بطائراتنا إلى قلب القاهرة".

ولـم أصدق ما يقولون، من المؤكد أننا فقط مخطوفون وأن كل هذا الكلام لم يحدث.

سـاقونا منـذ اليـوم الأول، وضعوا أكثـر من مئة رجـل في صومعة لتخزين المواد الغذائية، تربسـوا عليهـم الباب من الخارج، بعد يومين اكتشـفوا أن طبيعـة الأرض مُجلمـدة لا تصلـح للزراعـة، فجلـوا عن المكان واختاروا سـهولًا هشـة يمكن حفر الآبار فيها بسهولة، ونقلوا معهم الصومعة بمؤنها.

فـي الأسـبوع الأول كانـت مهمتي غرف الماء بالسـطل مـن البئر، أدوره ببكرة طوال النهار وشطرًا من الليل، في الأسبوع الثاني أصبحت مهمتي تقطيع الشجر بالبلطة، ثم جعلونا نمشي مسيرة ساعتين لنصطاد من الخليج سـمك الأنقليس، بعد شـهرين قال لي رجل داكن السُّمرة شديد النحافة، والذي لا تليق عليه الملابس العسكرية.

"هل تعرف لماذا أنت هُنا؟"

كنت أغرف الماء بدقيّة صغيرة من سطل وأعبئها في إناء كبير للمطبخ المتنقل.

"لا، لا أعرف".

"لأننا وجدناك صدفة في طريقنا، لكن عندما عرفنا أنك مصري أصبحتَ أكثر إغراءً للقبض عليك".

ثم ظل يضحك دون سبب.

في مساء ذلك اليوم استوقفت أحد ضباط المعسكر وقلت له:

"أريد أن أذهب إلى القائد، أريد فقط أن أغير عملي".

ينظر إليّ الضابط بلا اهتمام.

"وكيل الضابط هو المسؤول عن الشكاوى وليس القائد".

"طيب، أريد أن أقابل وكيل الضابط".

"للأسف، ليس هُنا، ذهب ليستلم خطة عملكم، وسيأتي غدًا".

أمسكتُ بذراع الرجل وتعلقت فيه.

"أرجوك، الأمر مهم".

جذب الضابط ذراعه وأكمل المسير دون أن يلتفت إليّ مرة أخرى.

فـي هزيع الليـل الأخير تصادف وجود رجل أقـل رتبة، كان وجهه مكسوًّا بزغب أشقر.

"هل هناك عمل نقوم به أفضل من هذا؟"

لوى الأشقر بوزه ولم ينظر إلى وجهي.

"عمل، هل تعتقد بأنك في مصنع حديد؟ أنت أسير حرب".

كان يبدو من امتعاضه وصوته الآمر أننا سنُقيم معهم حتى نموت.

ومرَّ بيت النار في رأسي كثيرًا، آه لو أحضرته معي!

تمددت فوق الرمال الساخنة وأخذت أعبث في الحبيبات الصفراء، أصنـع خطوطًـا وأرتب كلامًا وأرسـم صورًا، هل سـينقلوننا إلى قلب إسـرائيل؟ نعمـل عندهم خدمًا مـدى الحياة، لقد قطعـوا الطريق على الجميـع بالهرب، مَـن يُرد منكم أن يهرب فليتفضل، مع ألف سـلامة، سلسـلة الجبال التي تحيط بسـيناء من جهة، والبحر الأحمر من الجهة الأخـرى، ونحـن في المنتصـف تمامًا، كانوا يذيعـون علينا كل صباح بياناتهم المرعبة.

"مَـن أراد أن يذهـب إلـى الجبال فعليه أن يمشـي فـي هذا القيظ ثلاثة أيام، سـيذوب من تلقاء نفسـه لو لم تبدأ السِّـباع بالتهامه وتُكمل عليه الجوارح".

قلت في نفسـي، لن تجد أمامك إلا السـماء والرمال يا منصور، لن تجد أمامك إلا الرضا بما أنت فيه.

في الصباح سألت عن وكيل الضابط وذهبت إليه متوجسًا، فكرتُ في كل الاحتمالات الممكنة، عندما وقفت أمامه قلت له:

"أعرف أنكم ربحتم الحرب، ولم يعد يحق لنا الكلام الكثير عن أنفسنا، لكن إن كان ولا بد من العمل، فقد كنت سائقًا يا سيدي".

قبل أن أتلقى إجابة من وكيل الضابط الذي يُطعم قطته زور دجاجة مسلوقة، تذكرت اليوم الذي أنذرونا فيه.

"التمرد هنا له عقابه الخاص".

فـي السـاحة الكبيرة سـاقوا رجـلًا نحيفًا مقيـد اليديـن والقدمين، وضعـوه على محفـة مصنوعة من خشـب وقش، ربطوه وأشـعلوا فيه النـار، لم يقاوم الرجـل اللهب، كأنه يمثل دور جثـة في طقس هندي. قفزت القطة فوق كتف وكيل الضابط عندما رد.

"هل تريد أن تعمل سائقًا؟"

"لو ينفع ذلك".

أشار لي بيده فخرجتُ وأنا لا أعرف هل وافق الرجل على طلبي أم رفضه، وهل ستسـير الأمور كما كانت أم أن ذلك الطلب يُعتبر تجاوزًا يستوجب العِقاب؟

كنتُ أعرف أن لليهود جواسيسهم الذين يتكلمون باللهجة الشامية والسـودانية والبدوية، ولذلـك لم أأتمن أحدًا على أسـراري، كان كل همـي أن تنتهـي هـذه الورطـة وأعود سـائقًا أطـوي الطـرق البرية في

الصحراء بين القاهرة والكويت، أكثر ما كان يشغلني هي تلك القرارات التي لا تحتاج من هؤلاء الضباط الجالسين في الخيام سِوى جرّة قلم، ولكنها تحتاج من الأفراد هدة حيل لأسابيع وربما أشهر طويلة، كذلك القـرار الذي اتخذوه بحفر قناة فـي أرض صخرية، لو أن هذه الأوراق خُتِمتْ كان لزامًا على الجميع أن يدقوا معاولهم في الأرض حتى يطق منها الشرر.

حاولتُ ألا تلتقي أعيننا أثناء حكيه، فقد كان يرسم المشاهد وكأنه يراها.

تقطيع الأشـجار بهذا العدد الكبير كان وراءه شـيء، فمن الواضح أنهم يسعون لإقامة تحصينات عسكرية على مستوى غير مسبوق، بقليل من التركيز قلت لنفسي، كلما زادت التحصينات تضاءلت معها فرص النجاة، اعتقدت لعدة أيام أن الذين اتُّخِذوا أسرى في هذا المُعسكر لا يزيدون بأي حال على ستين أو سبعين رجلًا، بعد أيام قليلة تضاعفت الأعـداد بشـكل غريـب، آلاف الناس، مـن مدنيين وعسـكريين، كبار وصغار، تلفظهم شـاحنات وتذهب، بعد سـاعات قليلة تأتي بوافدين جـدد، وخلال أسبوع أصبح معسـكر الصحراء يضـج بالعمل في كل شيء كخلية نمل لا تهدأ ليل نهار.

اقترب مني الضابط داكن البشـرة، كان الجنود ينادونه بـ "السـيرن" قال:

"هل ما زلت عند رأيك ولن تعدل عنه؟"

"أي رأي يا سعادة السيرن؟"

"أن تعمل سائقًا في هذه الصحراء".

كنتُ أعمق حفرة بالمجرفة.

"مهنتي وأفهم فيها جيدًا، ومؤكد أن نسبة العطاء ستكون أكبر".

"كم عمرك؟"

"خمسون سنة".

"هل تعرف إن حاولت الهرب فماذا سيكون مصيرك؟"

"أنا لا أهرب، لديَّ عمل أنهيه ثم تطلقون سراحي كما أذعتم في اليوم الأول، ألم تقُل ذلك منذ ثلاثة أسابيع يا سعادة السيرن؟"

أشار بإصبعه لجندي يقف بعيدًا فجاء جريًا.

"أعطوه رينو جديدة، وجربوه لمسافة مئة ميل".

بعد ساعات كنت أفتح الباب وأصعد السلم وأجلس في كابينة الشاحنة، بينما الجميع يسندون كيعانهم فوق مجارفهم، جمهر السيرن شعبه الصغير بنداء واحد عبر الميكروفون، وأنا منشغل بتدوير المُحرك، قال لي السيرن، سأسجل اسمك في دفتري، ومنذ هذه اللحظة ستتبع سِرب الرينو التي تنقل معدات الحفر والتشييد.

نقلت بالرينو حديدًا وأسمنتًا ومواد غذائية، عرفت مع مرور الوقت أن المنطقة التابع لها هي مستعمرة جديدة اسمها "عوفيرا"، مَن يعطونني الأوامر كانت تسكن في أدمغتهم صحراء أخرى غير

التي أعرفها، وبشـر آخرون غير الذين أكلت وشربت معهم طوال فترة عملي مع الحاج سـليم الكويتي، فجعلوا يُحدثونني عن صحراء ليس فيها إلا غزلان وأمراء وجِمال، وماء البحر يحوي جنيات بشعور أطول من الأسـفلت ونباتات ماء تتكلم، أما الجبـال فمليئة بتوابيت لفراعين مُحنطين.

لـم أحـاول إغضاب أحـد، فخَيَالي منـذ أن احتجزونـي لم يتوقف عن رسـم صـور مُخيفة تنمو بداخلـي، لحظات ما قبل النوم مباشـرة، أتخيل غرف تعذيب تحت الأرض، وأشـعر بوخز ترتعش له أطرافي، وعندمـا أسـتيقظ أقول سـأطلب من السـيرن كتابة خطـاب لمريم، ثم أتراجع عندما أتخيلهم يسحبون مني الرينو، أو يغضبهم ذلك التصرف فيعيدونني إلى العمل مع الحفارين وقاطعي الأخشاب.

وذات سِـرب نقلـت الرينـو بعـض الذخيرة والسـلاح إلى سـاحة المُعسكر، ليلتها لم يغمض لي جفن، أخذت أضرب رأسي في الرمال حتى احمرَّت حفنة منها، في مَنْ ستفرقع هذه الذخيرة؟ سمعني شاب نحيـف كان نائمًـا بجـواري وأنا أقول ذلك الـكلام، فَرَدَّ بصـوتٍ فاحٍّ كالوشوشة:

"ليس على المُجبر ذنب يا شيخ".

لـم تمنعني تلك الجملة من قذف رأسـي في الأرض أكثر من مرة، ظللت أكرر هذا الفعل حتى أصابني الدوار ونمت.

مـع مرور الأيام والشـهور والتكرارات، أدركـتُ أن الحياة لا تعني إلا الحفـاظ علـى الجلد والعِظام وجزء كبير مـن العقل وجزء أقل من

الكرامة، وهذه الأشياء لا يحافظ أحد عليها غير صاحبها، فالرجُل هُنا أقل ثمنًا وأهمية من مجرفة، كل يوم كنتُ أرى الأشياء نفسها تحدث، ولأول مرة أشعر أن الأرض بالفعل كُرة، تدور وتُعيد الأحداث نفسها ولا شيء غير ذلك، فكلما انفتحت ثغرة في الطريق المسفلت جاءوا بالزفت ورقعوها، وكلما سقط عن الصف شخص ميت من فقر الدم أو قهر الشيخوخة، جاءوا بولد أعفى منه وألصقوه مكانه.

مع مرور الأشهر والسنوات بدأتْ حياة الضباط والعساكر تتسم ببعض الترف، تم شحن سيارات كاديلاك وباصات فولكسفاجن وخيول ودبابات وكلاب، وتتسم حياة عمال السخرة بالمزيد من المذلة والمرض، تزرع الأيادي المجانية بيّارات البرتقال وتحصد ثمارها، وفي المقابل يوزعون علينا الإعاشة فقط لكي نستطيع استكمال العمل.

كل صباح كنتُ أسأل نفسي سؤالًا ولا أعثر له على إجابة، هل اخترع هؤلاء الناس كل تلك المعامل والمصانع المحيطة في هذه الفترة الوجيزة، أم أنها كانت موجودة وهم لم يفعلوا شيئًا غير أنهم سطوا عليها؟

وذات غروب اصفرَّت فيه الجبال واتخذت الشمس لونًا برتقاليًا قاتمًا، كنتُ أُدخن سيجارة من اختراعي، تجميع لأعقاب عشرين سيجارة ملقاة تحت البيادات، وفيما كنت أسحب نفسًا عميقًا، وقبل أن تكتمل البضاعة في الصندوق، سمعتُ دويًا خرق أذني، وشممتُ رائحة فتائل ديناميت تحترق، ثم رأيتُ نفسي واقعًا على الأرض

بجوار الشاحنة الرينو، لستُ أدري ما الذي حدث بعد ذلك، أحسستُ برأسي محشوًّا بغمر من لهب، وفمي ملآن بطين ساخن، استيقظت من الدوي الحلزوني فلم أجد في جلبابي إلا ساقًا واحدة، في تلك الساعة تخيلتُ هذه الدنيا مثل ورقة كارتون، يلفها شخص غير مرئي ويضعها في جيبه الخلفي غير عابئ بشيء.

مدت مريم يدها بكوب مياه لأبيها، بلل منه شفتيه فقط وأكمل:

عندما تأكدت أن الساق التي رفرفت في السماء هي ساقي، سلمت أمري لله، وأخذتُ أفكر في عمل يناسب وضعي الجديد.

شدّ الشاب النحيف على ذراعي وقال، قدَّر ولطف يا شيخ، احمد الله على أنك لا تزال حيًا، لم أنطق بشيء، فبعد أن انصهر الجرح عند ركبتي في عقدة واحدة صلبة كالجلمود، زارني السيرن لا ليطمئن عليَّ، بل ليقول:

"أسِفنا لما حدث، فلم تعد تصلح لركوب الرينو، سنسلمك شيفروليه أصغر يمكنك أن تقودها بقدم واحدة وبنصف جهد الشاحنة".

عندما انصرف السيرن بموكبه العسكري، اقترب الشاب النحيف من فرشتي.

"اركب الشيفروليه يا شيخ ولا تخف، فلا لجان مرور هُنا تسحب منك الرُّخص".

ابتسمت بجانب فمي مجاملة لهذا المرافق المجاني.

"ما اسمك أيها الشاب؟"

"اسمي مروان".

"هل أنت فلسطيني".

"لا يا شيخ أنا مصري".

"مصري متأكد؟"

"نعم من الفيوم".

"وماذا كنت تعمل في الفيوم؟"

"كنت أبيع الحشيش".

كان يتكلم وكأنه يشرح فعلًا اعتياديًا:

"وهل هذه التجارة مسموحة في بلدكم؟"

"ما دمت تُرضي الذمم وتُطعم الأفواه بجزء من نصيبك سيتركونك تفعل ما تشاء".

لفَّ الفيومي سيجارته بإحكام، ثم قضم طرف الورقة وبللها بلسانه وألصقها، تأمل اللفافة لحظة وهي مبرومة في راحة يده النحيفة، ثم مدَّها في وجهي.

"ستجعلك هذه تنسى جميع الأسئلة، ستصبح كالإكسبريس في الإجابات فقط".

أخذتها وسألته.

"هل لم يجدوا معك الحشيشة عندما فتشوك؟"

سحب الفيومي نفسًا عميقًا ونفثه على مهل.

"لا، وجدوها وتركوها، وقال الضابط لا نريد منكم أكثر من ذلك، ألا تفيقوا أبدًا!"

أصبحتْ عزلتي شبه تامة، لا يربطني بعالمي القديم سوى التفكير فيه فقط، كأنه كان حلمًا أو خيالًا، عقلي ملفوف ومكبل بأسلاك شائكة، المعسكر في الليل قابض ومعتم، وفي النهار حلقات كبيرة من بشر يلفون كالطاحونة، ينقلون أتربة ويستفون حجارة، يحفرون قنوات ويردمون بِركًا، الطاحونة الكبيرة تزرع وتحصد، تقاتل وتُحصن، تُفجر القنابل وتصب الرصاص.

"هل ترى يا مروان أن ربنا أعطاني ما أستحق من جزاء، هل طارت ساقي في الهواء لأني نقلتُ الذخيرة لأعدائنا كي يضربوا بها أهلنا؟"

لمع وجه مروان من العرق كأنه مدهون بالطمي.

"لا يا شيخ، نحن لسنا مُرقَّمون بهذا الترتيب الصارم، نحن لسنا مثل الخشب والجلد والحجر، مجرد أشياء، وكل ما في الأمر..."

يهز رأسه الصغير ويلوي عنقه.

"إننا نفعل ما نعتقد أنه يحدث بإرداتنا، لكننا نكتشف أن كل شيء يحدث لنا لا علاقة له برغباتنا الحقيقية".

مضى على تلك الحادثة أربعة أشهر، كانت قيادة الشيفروليه الصغيرة بقدم واحدة أشق على نفسي من قيادة الشاحنة الكبيرة بقدمين، عند نزولي لحق بي الشاب الفيومي ذو البشرة الداكنة، ظل يشتغل بإخلاص بديلًا عن العكاز، حتى قطع لي ذات ليلة فرعًا من شجرة جوافة، نعَّمه بالبلطة وطلاه بالوحل حتى أصبح كجزء من ذراعي.

"شكرًا يا مروان".

في البداية ثبت كتفه بكتفي، ثم ابتعد عني تدريجيًّا ليعطيني فرصة الاعتماد على قدمي الجديدة.

لم تعد دقات الساعة تعني لي شيئًا، ولا تعاقب الليل والنهار والفصول، مرَّ عام وعامان وثلاثة وخمسة، لم تحدث وقائع كبيرة غير رفرفة ساقي في السماء ذات انفجار وأنا أشرب السيجارة الهجين.

كان هذا العالم جافًّا وخاليًا من أي مشاعر، أصبحت أفكر في مُتع صغيرة تعوض عالمي الحقيقي الذي اختفى في طرفة عين، وأصبح بإمكاني تسريب بعض السجائر الكاملة.

ذات مساء مُرهِق سقط الشاب الفيومي بمرض غريب تَركوه فاقد الوعي، كميت مهمل في ساحة معركة. ظل يرتعش في حُمى لمدة خمسة عشر يومًا، وكالعادة، دون أن يذيعوا الخبر، حفروا بالمجرفة في الرمال السهلة ودفنوه، ثم عاد السيرن بعد ساعة يتكلم عن العمل والمستقبل والحلم بغدٍ أفضل. لم يعُد لأي شيء طعم، اللهم إلا

المسافات التي أقطعها في الصحراء بالشيفروليه، كان يمكنني أن أفكر فـي ذكرياتـي التي لا يعرفها غيري، تتمدد حتى تصل إلى بولاق، ثم لا أجد في رأسـي سِـوى الأشـياء التي أعرفها جيدًا، لم أعد أريد العودة، ليس بسـبب اعتياد الحياة هنا، ولكن لأنني لم أجد في خيالي مسـاحة لتصـور ما يمكـن أن أفعلـه عندما أعـود، طويت أحلامـي كما يطوي الخاسـر راياتـه، ثم رحـت أنوح كالأرامل دون سـبب، أو بسـبب كل شيء دفعة واحدة.

فـي بداية فصل الخريف من العام 1973 بدأت المخيمات تنحسـر فـي المسـتعمرة، وتأخـذ مكانهـا مبـانٍ واضحـة المعالم لهـا بوابات وأرصفـة وصف أشـجار يمتد إلى الطريق الرئيسـي، لم يكن كل ذلك يعني لي شـيئًا، ما شغلني أكثر هو أسناني التي كانت تؤلمني قبل النوم فقـط، فأصبحـت تؤلمني طوال اليـوم، حتى أثناء النـوم، عندما ألمس موضـع الألم أو أتحسـس فكّي، كنتُ أتمنى أن أفقد أسـناني كلها، أو تقـوم القيامة وأرتاح من كل الأوجاع بصرخـة واحدة، أخذني من ألم أسـناني ذلك الخبر الذي أذاعوه على الجميع في مُكبر الصوت، هناك أنباء عن ترك هذا المكان خلال أيام، هاج بعض العمال في المستعمرة وصمـت البعض الآخر، وكنتُ من الصامتين، عدت أفكر في مشـكلة أسـناني مرة أخـرى، أو بالأدق، لم يُعطِ الألم المسـتمر فرصة للتفكير في شـيء آخر. حتى تسـربت أنباء غريبة ذات رحلة بالشـيفروليه، فلم تكن هذه المنطقة مسـتعمرة عوفيرا، ولكننا طيلة سـت سنوات ونحن في جزيرة شـدوان، أصبحـت الأنباء الصحيحة لا تعني شـيئًا ذا قيمة،

حتى ولو كانت أنباء غير معقولة، فالعالم الذي وقعتُ فيه هو منذ البداية خيالي ولا يمت للواقع بِصلة، يوم أن ألصقوا وجهي بالصخرة وسمعت صراخهم الجماعي "فاكن. فاكن".

كان الخريف يرتدي عباءة الصيف، حارًا لدرجة أن الجنود كانوا يرشّون العمال بالماء بسبب حالات الإغماء، وكنا نستشعر بالفعل أن ترك هذا المكان قد اقترب، فالمستعمرة أوشك العمل فيها على الانتهاء، القنوات المائية حُفرت والمباني تم طلاؤها باللون الطوبي الداكن، وممرات الهواء البارد داخل المباني تم تعليقها في الأسقف، لم يبقَ فقط إلا شق شريط أسفلتي محدود خلف الجبل لتمر منه السيارات بطريقة مُختصرة، وفي نهار حار كانت كل الأمور تمضي كالمعتاد، الخيول تجر الأخشاب والكراكات تحرث الطرق والأسفلت الأسود يفرش الممرات غير المنزرعة، وقبل أن أفتح باب الشيفروليه سمعتُ دويًا وفرقعات، هاج العمال وانقلبت الخيول على ظهورها ومالت المجنزرات بعد أن اشتعلت فيها النيران، جعلت حلاوة الروح البعض يجرون في كل الاتجاهات، منهم مَن كان يُلقي بنفسه في قلب النيران المشتعلة، وقعت براميل المازوت في القنوات فاشتعل سطحها، وكأن قشرة الكرة الأرضية كلها بدأت في الاحتراق، سقط طائر كبير من السماء في بئر مُشتعلة، ووقعت طائرة صغيرة وتحطمت فوق مبنى، المشهد كله كقيامة مُصغرة، وأنا أجري مع الذين يفرون، وأصرخ مع مَن يصرخون، لم أسمع غير أصوات خوف سائلة لمدة طويلة، ثم هدأ كل شيء، وجدتُ نفسي نائمًا فوق نقّالة

خشبية، أتـذوق طعم الرمل والدم، وأحس بيـدٍ تعبث في جيوبي، هل لديك تحقيق شـخصية؟ أنا مصري، اسـمي منصور أبو عدنان، أعمل سائقًا مع رجل كويتي وأسكن في بولاق.

لـم تكن الإصابة بالغة، لكنني وقعتُ على وجهي بسـبب الخوف، انطبـق فكـي وقضمـتُ طرف لسـاني، لمـدة طويلـة لم أعد أسـتطيع الـكلام، عندما وقفـتُ أمام بيتي بالعكاز الخشـب، تجمـع الناس من حولـي، وذاع الخبـر خلال دقائـق في بولاق، فرأيتُ يـدًا تمتد إليَّ من الخلف بكرسـي، ومن الأمام بكـوب ماء، ورأيتُ نفسـي وجهًا لوجه أمامها، تتكلم ولا أستطيع الرد عليها، ماما أمل.

19

كمَن يهيل التراب على جزء آخر من جسده، ميت سلفًا، أصبحتُ أنا، يغالبني شعور غريب ويتمكن منّي، لم أعد أقاوم الموت، بل أقاوم الحياة، أنت ما زلت صغيرًا يا ولد، عينان أمامهما الكثير لترياه، وقدمان لم تقطعا ثُلث الطريق بعد، وقلب يشعر بتدفق الدم عندما يحب أو يغضب أو يخاف، وهناك، ما زالت، ملايين المشاعر في انتظارك لتجربها، غضب وفرح، مفاجأة وخيبة، سعادة وشقاء وضحك، أسى وكُره وانتظار، شعرتُ وأنا أصعد السلم بأن الدم الذي يحترق فيّ لا قيمة له على الإطلاق، دم يليق بإنسان عجوز، هل اعتبرتْ روحي أن ترك الأرض جريمة وعقاب في الوقت نفسه فقررت الانتقام منّي، هل سيأتي اليوم الذي أعيش فيه حياتي أنا لا حياة شخص كان يُفترض أن يموت؟

من وقت لآخر تنتابني فرحة مؤقتة، أُصدق بالفعل أنني فزت بالحياة، وأن ذلك يُعد شيئًا جيدًا، لا يدركه إلا مَن فاتتهم مثل هذه الفرصة، وهل كل الناس ترى الأشياء بالحجم نفسه، بالطريقة نفسها؟ حتى الإدراك لا يعدو كونه مجرد كلمة، يفسرها كل شخص كيفما شاء، أي والله كيفما شاء.

كان خالي يسمي البُمب بارودة، والمسدس مدفعًا، ومسند القش "فوتيه"، فلماذا تريد يا مروان أن تسمي كل شيء باسمه؟

بعد عودة عم منصور المفاجئة، لم تعد الحياة كما كانت، جزء آخر اضطرب في الذاكرة، وأصبحتُ مرغمًا على ترميمه، تتوالى الأفكار

في الظلام، أسئلة لا تنتهي بعلامات استفهام، ولا يعقبها انتظار إجابات.

صارت نظرة عم منصور أكثر طيبة ورِقّة، لكن الطيب أخو الميت، هكذا قال لنا رفاقنا الذين كانوا يذهبون للعمل في إسرائيل، العربي الطيب هو العربي الميت.

في اليوم الأول كان عم منصور يركز ويطيل النظر كزغر الجوارح للفرائس، ودمعه يدفق سيالًا مثلما تتفجر الأرض بالنبع، لكن مع مرور الوقت وتعاقب الليل والنهار، اتسمت نظرته بوداعة الأطفال حديثي الولادة، حين ينزلون بزلط ربهم، ينظرون دهشة وسذاجة إلى العالم المحيط بهم.

بعد تلك الزيارة التي اصطحبته فيها لم تأتِ ماما أمل مرة أخرى، لكن سيرتها جاءتْ على لسان مريم.

"ما رأيك يا أبي في ماما أمل؟"

أخذت تضع شيئًا وهميًا في بنصرها، فابتسم أبوها.

"ما زالت حلوة وتحبك جدًا".

تتسع الابتسامة وتصير ضحكة بلا صوت.

كانت مريم تغلي الشاي، توصلت إلى قرار وهي تصبه، ألهمها الدفق البُنّي النازل من البراد إلى الكوب، شجعها على الكلام دفء البخار والقعدة مع أبيها بعد طول غياب.

"سأتولى أنا أمر خطبتها لك".

قالت ثم توالت قراراتها أثناء شُرب الشاي.

"سأذهب إليها، ستهرول إليَّ عندما تعرف سبب الزيارة، تأخذني بالأحضان لأنني فكرت في هذا الأمر من تلقاء نفسي، ستليق عليك يا أبي، وربما أنبتتْ لك ساقًا أخرى غير التي فقدتها في الحرب، وبعد كل هذا العمر، ستصبح اسمًا على مُسمى، ماما أمل".

جذبتْ صغيرها من ذراعه.

"سنتركُ معك سالم يا أبي، وأنت يا مروان تعالَ معي".

أصبح تفكيري بطيئًا ليتماشى مع رفضي لكل ما يحدث من حولي، لم تنتظر مريم أن تستمع إلى رأيي.

توقف بنا التاكسي أمام بيت ماما أمل، سألنا عنها فلم تكن موجودة، رأينا عبدًا ضخمًا واقفًا أمام البيت.

"ألا تعرف أين يمكن أن نجد ماما أمل؟"

لم يرد العبد، ولكن ذراعه أشارت إلى آخر الشارع، رفعتْ مريم عينيها فلمحتْها، كانت تتبختر في فستان أحمر تسري فيه عروق ذهبية.

"حرير وعطر، الله الله! كأنكِ تعرفين سبب مجيئي".

أقبلتْ عليها بالأحضان، صعدنا إلى الشقة، كانت مريم متأكدة من أنها درست الموضوع جيدًا.

"أبي يا ماما أمل".

حملقت فينا ولم ترد.

"دون لف أو دوران، أبحث له عن عروس".

دوى صوت ضحكة واسعة المدى.

"لا أرغب بالضحك يا مريم، قولي الحقيقة، هه، لا وقت لديَّ يا بنت منصور، قل لها شيئًا يا مروان".

تضحك وتضع أصابعها فوق فمها، يرن الصوت ولا أجد شيئًا يمكن أن أقوله.

تختفي كل التعبيرات الفَرِحة عن وجه مريم فجأة.

"وما الذي يُضحك في ذلك يا ماما أمل؟ أريد أن أُزوِّج أبي، وقلت من المؤكد، أنكِ تعرفين عروسًا مناسبة".

رسمت ماما أمل ابتسامة سريعة قبل أن تقول:

"هل تعرفين كم هو عُمر أبيكِ يا مريم؟"

"نعم، ستة وخمسون سنة، وما المانع؟ تزوج جدي في السبعين، أنجب ثلاثة أبناء ولم يمت إلا بعد أن زوَّج أكبرهم".

"كل الناس يا مريم يكبرون، عادي، ولكن..."

تأملتْها مريم جيدًا.

"لا تؤاخذيني، ليست السن وحدها، أبوكِ، يعني، لا يعمل، والعجز، والـ..."

"لا تُكملي، لا تُكملي".

طالما شككتُ في روايات مريم عن ماما أمل، يا مروان، هذه المرأة تحب أبي، تعشقه، كانت تستهل كلامها دائمًا بـ "قلت لمنصور" أو "قال منصور لي" هل حدث ذلك بالفعل، أم أنها كانت تتخيل؟

رأيتُ في عين مُضيفتنا شرودًا بعيدًا، كذلك الذي لمحته في نظرتها حين كانت تقلب الصور في الصندوق منذ سنوات، سمعتُ صوتها الداخلي الآن، كأنها تُكمل ما انقطع وتضغط ست سنوات مضت.

وخيَّم الصمت على الجميع، وحدي كنتُ أسمع ما تريد قوله دون أن يسمع أحد صوتها.

آه يا منصور، بعد أن أكلت الدنيا عظامك تذكرتني يا نور عيني؟ يجب أن تفعل أشياء مستحيلة حتى أرضى بك، تعود إلى الوراء ربع قرن، وتخصم منّي نصف عمري، وتُخفض من وزنك خمسين كيلو، وترجع إلى الخلف مئة ألف كيلو، كنت تقطعها في الصحراء وأنا هنا أنتظرك، منذ اللحظة ستنسى أيام عزك الفائتة، سأجعلك تستعد دائمًا لما هو أسوأ، منذ اللحظة ستتغير نظرتك للأمور كليًّا، تعالَ يا منصور، سأشتري لك العباءة والقفطان على حسابي، وأفتح لك تجارة منيفاتورة من نصيبي في ميراث أبي، ماذا سيقول الناس عنك يا روح قلبي؟ وماذا سيقول الناس عني أنا؟ تركتهم ينهشون سيرتي، أين منصوركِ يا حيلة؟

سوف يأتي يا أمي، ولم تأتِ يا بن الكلاف، العمر مثل السكين الحامية يا أمل، يسرق، وسرقني، الدنيا غير مضمونة يا أمل، لا تسلمي نفسك لوعود رجل، وسلمتُ نفسي لوعودكَ، ثم، وبلا أي مقدمات، العاقبة عندكم ولا يحلى الفرح والسرور إلا بحضوركم، المودة والجفاء، هل اجتمعا معًا في قلبك تجاه شخص واحد؟ أصبحا هنا، في صدري، يا مَن أضعت عمري كله وأنت تتنطع يمينًا ويسارًا، بخطوتك السريعة الواسعة ستأتي، ليس بوسعي سِوى أن أضحك عليك، كنت تتوقع أن تصبح أمل امرأة احتياط في جيبك، هه، ستربطها في حبل مثل دلاية الساعة، وكلما أكلك الشوق تهز الجرس، لا يا عيني، لن تستطيع اتخاذ أي قرار بعد اليوم، وهذا وعد مني بذلك يا منصور.

طوال طريق عودتنا ومريم تحدثني عن شيء واحد، كيف ستكذب على أبيها، ولماذا ساقتها قدماها إلى تلك الورطة؟

"آه يا بنت الكلب".

قالتها مريم وتلفتتْ حولها، لا تعرف هل سمعها أبوها أم لا.

كانت تنتابه حالة من التوهان عن المحيطين، يتوقف عن الكلام بالساعات ثم يعاود الحديث بشكل طبيعي، لم يسأل ابنته أين كانتْ، التفت إليها، ضم سبابته وإبهامه ومررهما على الهواء وقال:

"أريد العودة".

اقتربت مريم منه وأمسكت بذراعه.

"تعود إلى أين يا أبي؟"

قـام واستـلَّ عكازه مـن تحـت الكنبة، وقـف وقال بطريقـة أقرب للاعتراف:

"إلـى بيتي القديم، لم أكن أحتاج إليـه مثلما أحتاج اليوم، اذهبوا بي إلى بولاق يا مريم، ولو على حسابي".

يضرب تليفون أدهم البقال من بولاق.

"أبي حالته تسوء، ويريد أن يذهب إلى البيت".

تأتي ماما أمل بسـيارة نصف نقل، تجلس بجوار السـائق في فستان أزرق مشـدود، ويُشـحن الجميع في صندوق تفوح منـه رائحة عطنة، ضبَّ السـائق الباب وكأننا شـحنة بضاعة، مطَّ عـم منصور رقبته ونظر إلـى جانـب صندوق السيارة، كان لونهـا "نبيتي" وليسـت بيضاء مثل سـيارته القديمة، مدَّ سـاقيه في الصندوق ورفع مثلثه الخشـبي، أسـند عليـه كفيـه، عَقَدهما وأسـند فوقهما رأسـه، طوى لسـانه وتـرك أذنيه مفتوحتيـن على وسـعهما، ومن شـرود نظراته أحسـستُ كأن وجوهًا كثيرة بدأتْ تتشـكل في رأسه، قطعة صغيرة فوق قطعة صغيرة أخرى، متى أصبحت تفكر يا مروان في دواخل الآخرين، لماذا تحاول دائمًا أن تتلبس شخصياتهم وتنطق بألسـنتهم؟ الزمن يخدعك، وإلا لما كانت هـذه اللحظـات أطول من غيرها، وأنت مشـحون في صندوق متسـخ كما تُشـحن البهائـم، ولما كان يداخلـك كل هذا الزحـام من الأوهام والحقائـق، تتصيد الروائـح وتجمعها في ذاتك، تتمـدد في الصندوق

وتُجري أصابعك في لحيتك، الآن فقط يا مروان عرفتُ كيف تجري الأمور، ماذا عرفتِ يا أمي؟ عرفتُ أن شفيقة ابنة عرفان فَقَدَتْ قدمها في الغارة الأولى على جسر الزرقا، طارت مع القصف مثل قشَّة، لم أستطع كرهها بشكل كامل، قال أبوك إنه تزوجها لأنها وقفتْ تدافع عن حقلها وعن أبيها وسط الدخان ودوي القنابل، لكنه لم يقُل لي مَن الذي سيدافع عني عندما تقصفني الأيام؟ كان طموحه كله ألَّا يشعر بالخزي عندما سلبوه أرضه، أراد أن يعوضها بأي ثمن، حتى ولو كان سيلقي بنفسه في أحضان امرأة أخرى، أن يترك بيت الطين القريب من المخيمات، ويسكن في بيت من ثلاث غرف في طرف البلد، يروح ويجيء تحت سقف من أسمنت، دفعتْ شفيقة ابنة عرفان ثمنه من النقود التي جمعتها لها منظمة خيرية، لم أعد أستطيع كرهها براحتي يا مروان، فحتى الحرية في الكُره لها طعم مختلف، بعد أن عرفت تلك المعلومات، لم تعد شفيقة ندًّا لي، بل أصبحت تغوص معنا في المقلاة، لا أكرهها، ولا أحبها، هل تريد أن تعرف كيف تجري الأمور حقًّا؟ انسَ كل ما قلته لك والتفت إلى مستقبلك يا مروان.

كانت ماما أمل تجلس كالطاووس في الكابينة، هل يمكن أن تكون هي العاقلة الوحيدة بيننا؟ فيوم أن جئنا بالكارو من بولاق إلى العباسية لم أتخيلها أبدًا تلك المرأة المتفانية من أجل خدمات مجانية، أتابع نظراتها الحادة كلما دور البغل عنقه واهتزت الأجراس الفضية الصغيرة المشدودة على جسده، لكنني في النهاية كذّبت نفسي.

سحب عم منصور عكازه بصعوبة ووقف أمام البيت، رشق مثلثه الخشبي في الأرض ونظر عاليًا، خرج صوته متحشرجًا.

"أين عروق الكافور وفلوق النخل التي تحمل السقف، أين الباب والنخلة ومقعد الأسمنت، بل أين البيت نفسه؟"

"ألم تأتِ إلى هنا قبل ذلك يا عم منصور؟"

تقدم خطوتين ببطء.

"جئتُ يا مروان، لكني لم أكن أرى، لم أكن أرى".

تلاحقتْ أنفاسه ولهث.

"تسفلت الشارع وأصبح مكان البيت عمارة، وحتى الآن لم أفهم ما حدث، لم أفهم ما حدث".

ابتسمتْ ماما أمل وخَطَتْ أمام الجميع، تخطَّرت في مشيتها وهي تشق صفًّا من العمال لا يزالون ينهون أعمال التشطيبات، توقفت في أياديهم مجارف نقل الرمال وفُرشات دهان الواجهة، كان أحدهم يقف فوق سقالة ويُعلق ألواحًا زجاجية تعكس الشمس في أعين الجميع، أشخاص آخرون تجمعوا، منهم مَن صافح عم منصور ومنهم مَن اكتفى بالنظر إليه من بعيد.

بدا البيت لي صرحًا خياليًّا، لم أرسم في رأسي إلا البناية القديمة، أصبحتُ كمَن صحا من إغماءة طويلة، تبدل مقعد الأسمنت بثلاثة مقاعد فضية لها تاندة تنزل بمفصلات ألومنيوم، بدت كاستراحة أنيقة

للعابرين، ومكان الباب الخشبي بهو كبير مرصع بالصدف، أصبح البيت مبنًى شاهقًا، واجهاته زجاجية وزواياه معدنية لامعة، ابتسم عم منصور كما يمكن لمهزوم أن يبتسم، أدار عنقه باتجاه ماما أمل التي وقفتْ تخاطب شخصًا بالداخل ثم أشارت للجميع.

"يمكنكم الآن أن تتفضلوا".

دخلتُ مع صاحب البيت القديم، وتأخرتُ مريم خطوتين، لم يخطر بخيالها أن البيت سيصبح صرحًا بهذا الشكل، تضاءل كثيرًا مبلغ الثلاثة آلاف جنيه التي قبضناها منذ سنوات، كان البيت في هيئته الجديدة لا يُقدر بثمن.

فور دخولنا طاف عم منصور بعينه في البهو العالي الذي تتوسطه نجفة كريستال كبيرة.

"بيتي، مهما طمسوه بالسلالم والألوان فهو بيتي".

فغرت مريم فمها، اقتربتُ من عم منصور ليمكنني سماعه بوضوح.

"بيتي يا مروان، لماذا إذن كنتم تحبسونني في ذلك الجُحر الخانق؟"

لم أرد، كانت مريم تبحث لأبيها عن مكان يستريح فيه. الكراسي وثيرة تتوسطها منضدة بعجلات تتحرك بسهولة، قدم لنا عبد أسود صينية عليها مشروبات باردة.

وزعتْ ماما أمل الكؤوس واحتفظتْ لنفسها بواحدة، قال الخادم قبل أن ينصرف: "هل تأمرون بشيء آخر؟"

التفت إليه عم منصور.

"هل تعرف مَن نحن؟"

هز الجبلِ الأسود رأسه وبرقتْ عينه.

"أنتم أصحاب هذا البيت".

انتفض عم منصور في جلسته.

"هل سمعتم ما قاله هذا الرجل الطيب؟"

وترد ماما أمل.

"يقصد أنك صاحب البيت الأصلي يا منصور، قبل أن ينتقل عقد ملكيته إلى شخص آخر، ثم إنه، لا تؤاخذني، كان خرابة، ولم يكن يشبه أبدًا هذا البيت الحديث، كان أرضًا مهجورة بلا صاحب".

همَّ الخادم بمغادرة البهو، أدار عم منصور عنقه تجاهه.

"يا.. اقترب لحظة، كيف عرفت أنني صاحب هذا البيت؟"

وضع الخادم كفيه على بعضهما وأسندهما فوق بطنه المهيب.

"ليس هذا فحسب، بل لك عندي أمانة".

غاب عنَّا للحظات، ثم عاد وهو يحمل لفافة سوداء منقوشة بالأسمنت ومُلبَّدة بالأتربة.

"خُـذ يا شـيخ منصـور، هذه خبيئتـك التي وجدناهـا ونحن نقوم بهدم البيت القديم".

مدَّ عم منصور يده، استلم منه اللفافة.

"آه يا مروان، بيت النار كما هو".

أخذ يقلب المسدس بين كفيه، ثم وضعه في راحتي، ملمسه جلب إلى نفسي شجاعة لم تكن موجودة، تمنيت الانتقام من كل ما يزعجني فـي هـذه الحياة، هُيئ لي بأنه بديل عن مرتينة أبي، تدفق ذلك الشـعور في لحظة واحدة.

"أي خدمة أخرى أقوم بها يا شيخ؟"

صوت الخادم موجه إلى عم منصور.

"شكرًا، شكرًا".

ينصـرف الجبـل الأسـود ويقلب عم منصـور بيت النـار بين كفيه، بالكاد وصلتني تمتماته الضعيفة.

"لماذا أجلتُ العمل بك؟ كنت سـأرتاح لو أنني أنهيتُ بك حياة حفنة من الأشـخاص، ما الذي سيحدث إن حبسـوني، ألم يكن ذلك أفضل من الخدمة في عوفيرا؟"

صدريته لا تتسـع لمثل هذه اللفافة الصلبة الكبيرة، لكنه رغم ذلك حشرها عنوة، أصبح كامرأة بدينة بثدي واحد.

لم تتحدث ماما أمل كثيرًا، تريد فقط أن ترى نظرة الهزيمة في عين عـم منصـور، لم ترفـع عينها عنه، كانت تستمتع وهو يجلس جلسته الكسيحة تلك، هذا العالم الصغير التي فشـلتْ فـي أن يكون عالمها، بيتك ولا تستطيع أن تقيم فيه، قدمك ولا يمكنك المشي عليها.

انتفض عم منصور وهبَّ واقفًا، انزلقت قدمه الخشبية فوق البلاط الناعم، كاد يقع لولا أن لحقتُ به.

"هيَّا يا مريم، هيا يا مروان".

وقفت ماما أمل وجذبت فستانها الأزرق لأسفل.

"المالك الجديد للبيت على وشك الوصول".

"لا بـد أن أذهـب الآن يـا أمل، أحتاج إلى راحة طويلة، سنعاود المجيء قريبًا".

تضع يديها في وسطها وتقف أسفل النجفة الكبيرة.

"هذه زيارة قصيرة لا تُحسب طبعًا".

تركتهم يتحدثون وراودتني رغبة في الصعود إلى السطح، منامتي لليالٍ طويلة، حفر ذكراه في رأسـي فتمنيـت رؤيته مرة أخرى، لم ينتبه أحد إليَّ عندما طلعت السلالم، كانت الصورة قد تغيرت كليًّا عمَّا في رأسي، لم يعُد ثمة سطح، أصبح دورًا مُقسمًا إلى غرف كثيرة وجاهزة للسكن، رائحة البويا تملأ المكان، لكن لا يوجد نزلاء.

أثناء عودتي إلى البهو استوقفني صوت ماما أمل، كانت تتحدث إلى خادمها المهيب، رأيتها من أعمدة الدرابزين تُخرج من عبها لفافة جنيهات ملء كفها، تدسها في يده.

"أنت مُخلص جدًّا يا صالح، وقد أديت دورك بمنتهى الإتقان".

تحسس العبد النقود في راحة يده.

"ولكن ألن يُغضب هذا الكلام سيدي خلدون؟"

"يا غشيم، ما فعلناه سيجعل خلدون يطير من الفرح".

يدس صالح النقود في جيبه أولًا ثم يقول.

"لقد قلنا للشيخ منصور إن هذا البيت بيته يا ست، وسلمناه سلاحه، هل سيُعجب سيدي خلدون بذلك؟"

تغمض ماما أمل عينيها بفرحة غامرة.

"نعم سيعجبه، لا بد سيشعر منصور أنه كان مالكًا لهذا البيت، فتتغذى روح الندم بداخله، يأكل نفسه ويفكر كثيرًا كيف سيعيد ما أُخِذَ منه، يحسب الحسابات ولا يقترب النوم من جفونه، يشرد ويسرح ويهيم، وربما يذهب عقله مثلما يحدث مع المجانين، لا توجد متعة يا صالح في أن تصارع شخصًا ميتًا؟ لا بد أن تحافظ على أقل قَدْر من الإثارة، هل فهمت يا جبل اللحم؟ المهم إيهامه بأنه لا يزال قادرًا على المقاومة، في الوقت الذي تُدرك فيه تمامًا أنه في واقع الأمر، مجرد جثة لا قيمة لها، لكنك تستمتع باللعب معها لأن الروح لم تفارقها بعد".

توقف الكلام بينهما عندما لمحتني نازلًا بسرعة، هرولتُ قاصدًا باب الخروج حتى لا تستوقفني.

كان عم منصور منتظرًا بالخارج، يضرب العكاز في الأرض بقوة.

"كم هو الثمن الذي أعطوكم إياه؟"

ترد مريم وهي تحاول الإمساك بذراع أبيها.

"ثلاثة آلاف جنيه".

يجذب كوعه من قبضتها.

"ثلاثة آلاف، ها، لقد ضعنا بسبب هذه البيعة".

افترش الرصيف عند أول منعطف، نظر إلى ركبته الفاقدة للقدم وسرح قليلًا.

"نحن لم نزُر بيتنا لنقول لساكنيه الجدد اخرجوا لو سمحتم، ولكن لنرغمهم على الخروج".

20

بعد أشهر من رسم الخطط لاستعادة البيت طلب عم منصور مني شيئًا غريبًا، فاستفسرتُ منه.

"وفيم يفيد ذلك؟"

ردَّ القائد القديم قائلًا:

"أرحني واسمع الكلام".

أرحته واستعرتُ مطية مُعتبرة من إسطبل قُرشي كما أمرني، أجلسته فوقها قبل مربعين سكنيين من بيت بولاق، دخلتُ متقدمًا الفرس كالسائس، شد عم منصور اللجام أمام البيت فجمحت المطية وكاد يقع من فوقها، اجتمعنا كالعصابة في البهو مرة أخرى، أصبحتُ دائمًا أرى العالم كله مليئًا بالخطط.

كان خلدون كريمًا معنا إلى أقصى حد، مائدة عامرة وعبيد يُخدِّمون علينا برقَّة وأدب جمَّين، لا يكاد يفرغ أحدهم من طبق حتى يأتي غيره، ولا من كوب حتى يُستبدل في الحال بأفضل منه، وجعل خلدون يخطب فينا بعد الطعام.

"هل ترون يا ضيوفي، نحن أهل شئنا أم أبينا، كم أنا سعيد يا منصور لأننا عُدنا صديقين".

خدم ورجال لهم سحنة الكلاب الجائعة كانوا يقفون من خلفه، يشعل أحدهم إضاءة النجفة الكبيرة بألوان مختلفة، ويضبط خادم

آخر إضاءة خافتة تخرج من قلب فسقية رخامية صغيرة. يعود خلدون فيُكمل كلامه بوجه متورد وملامح مُشرقة:

"نحن عائلة واحدة، بيننا نسب ودم، فهذا الولد".

يشير إلى سالم الذي كان النعاس يجذب رأسه لأسفل.

"يشبه ابني أمير كثيرًا، أما أنا والشيخ منصور فقد كنا أصحابًا الروح بالروح، نشترك في التجارة ونتبادل السيارات عند السفر، هو لديه الماضي وأنا لديَّ المستقبل".

وضع ذراعه فوق كتف أمل.

"تزوجنا منذ أيام".

ثم يكمل وكأنه لم يقُل شيئًا مهمًا.

"أنا ومنصور لن يستغني أحدنا أبدًا عن الآخر، لكني لستُ أدري، ولا هو أيضًا، ما الذي حدث بعد ذلك، فهي الحياة ولن تتغير، تبدلت فقط بعض التفاصيل".

اقتربت منه أمل بشكل ملحوظ، طوّق عنقها بذراعه وضمها إلى صدره.

"ماتت زوجتي ولم أجد أفضل من أمل، هي زوجة رائعة، وهي أيضًا التي اشترت لي هذا البيت، قلت لها كثيرًا، يا أمل، يمكننا بسهولة أن نعبر النيل ونشتري بيتًا في الزمالك، لكنه النصيب، وأنا رضيت به".

قبّل كتفها وأطال في القُبلة، لا يفصل شفتيه عن جلدها إلا طبقة دانتيل زرقاء تُظهر أكثر ممَّا تُخفي.

تبدلت ملامح عم منصور، وأخذت الأسئلة تدور كالطاحونة في رأسي، سألتُ نفسي، لماذا نجلس هنا الآن؟ ست سنوات وهم يبنون الحيطان ويقيمون المتاريس والأعمدة الأسمنتية، يُدخلون الأثاث إلى البناية ويُرتبون التحف، أين كنا كل هذا الوقت؟ خفتتْ قيمة النقود التي بعنا بها البيت، كأنها صارت بعدما أردنا العودة بلا قيمة.

عدت أتابع ملامح عم منصور، كان شبح الكهولة يزيد التصاقًا بوجهه، ماذا يمكن للإنسان أن يفعل حتى يبقى صغيرًا للأبد؟ غيَّر أحد الخدم إضاءة النجفة، كانت المرة الأولى التي أرى فيها إضاءة سوداء، خيَّم الظلام على الجلسة، جعلتنا هذه الإضاءة الغريبة نبدو كأشباح.

نام الطفل بعد أن أسند رأسه على فخذي، وتضخم حجم عم منصور أكثر، مريم متكورة علي نفسها تنظر إلى أمل، أما خلدون فدار حول المائدة ببطء، عاد صوته يشق طريقه إلى آذاننا.

"هذا البيت يا ضيوفي كان مهجورًا، يشبه الصحراء، لكني أعدتُ اكتشافه من جديد، فعرفت أن موقعه فريد، ولو شهق قليلًا فسيرى النيل، ما أجمل أن ترى النيل من الدور العاشر وأنت تشم رائحة الفسيخ والحنة والعرقسوس، وتستمتع بسماع دوي الطبل في مولد السلطان!"

أمسـك بأطراف أصابـع أمل وجلس إلى جوارهـا، أخذ يقبل يدها أمامنا بطريقة مُبالغ فيها.

"لـولا أمـل يـا ضيوفـي الكرام، مـا كان لهـذه الخرابـة أن تصبح صرحًا".

قـام ووقف خلف عـم منصور، فلم يعـد باسـتطاعة أحدهما رؤية ملامح الآخر.

"هـل تعلم؟ كان أحد سـلاطين المماليك يبني مـكان هذا البيت قصـرًا، مـدَّ مـن تحتـه أنابيـب دقيقة لا تزيـد علـى قُطر إصبـع. ألف، ألفان، عشـرة آلاف، لا يمكن لأحد أن يعرف العدد الصحيح، سُـدت هذه الشرايين عبر مئات السنين، ولكنني اكتشفتها مرة أخرى، سلَّكتُ مجراهـا بدفع المياه السـاخنة القويـة لمحو أثر الزمن، فكسـحتُ من طريقهـا كل الأغبـرة والأتربـة القديمـة، وأصبـح هذا البيـت الجميل لا يحتاج إلى سـقاء، ولا إلى صنابير وسِـباكة، فالماء النقي الساكن في عمق النهر، سيتسرب إليه بيُسر من تحت أقدام العابرين".

لم يتمالك عم منصور نفسه عندما سمع هذا الكلام، ضرب يده في عبّه وأخرج بيت النار المُلقَّم بالرصاص.

"هذا الذي تتحدث عنه هو بيتي أنا يا خلدون".

تحرك العبيـد من أماكنهم عندما رأوا السـلاح يرتفع ويُصوَّب إلى النجفـة الكبيرة التي لا تزال مُضاءة بالأسـود، تقـدَّم الرجال الذين لهم سـحنة الكلاب خطوة واحدة للأمام، وزع خلدون على سـرب الخدم

والحراس الأوامر والشتائم، ثم تصنَّع الهدوء وأمرهم برفع الأطباق عن المائدة، وبصوت مهذب كأنه اعتذار قال:

"إن بيننا اتفاقية وعَقدًا، ومن المؤكد سيمنعك دمك النبيل من فعل أي شيء ضدي يا صديقي القديم، كُن عاقلًا، فلمَن توجه سلاحك، أنا لا أعرف عن أي بيت تتحدث، فقد هَدَمْتُ ما كنت تسميه بيتًا، تقريبًا اشتريته أرضًا فقط؟ نحن لا نستأهل رفع السلاح يا منصور، بل نستأهل أن نتعاون، فقد كنا أصدقاء، وبإمكاننا أن نظل هكذا".

يجلس الجميع ويعود بيت النار إلى العِب الذي خرج منه.

"اسمع يا منصور".

تهز ماما أمل يديها المثقلتين بالأساور الذهبية.

"أنت جار قديم، ولنا في الحياة عِشرة طويلة، مؤكد أنك لن تنساها، فهي لا تُنسى".

يدور عم منصور حول المائدة بعكازه، لا يُسمع إلا صوت ارتطام كعب العكاز بالبلاط.

"هيا يا أولاد، فقد حان الوقت للانصراف".

تقدم عكازه قبلنا إلى الباب، وعندما أصبحنا بالخارج وقف يتأمل الأرض، حتى لمح حجرًا، انحنى عليه وأخذ يقذف به فوق الرصيف، تفتت وأصبح قطعًا صغيرة، أمسك بواحدة وصوبها تجاه البيت بطول

ذراعه، لم يصل الحجر إلى الواجهة الزجاجية، جلس عم منصور على التلتوار.

"هل أعددتموني يومًا إثر يوم وعامًا إثر عام لهذه النتيجة؟"

لا أدري هل ساعدته في اعتلاء مطيته أم أنه امتطاها وحده؟ سحبتُ اللجام وسِرتُ أمامه، سمعتُ صوته وهو يرفع رأسه أكثر من اللازم وينظر إلى الأمام، لا يوجه كلامه لأحد.

"البيت لن يعود بسهولة، فذلك الأمر سيحتاج إلى حرب، حتى في الحروب، لا يوجد انتصار كامل، سنشتري منهم بالحيلة ما أخذوه منا بالعقد".

قال عم منصور شارحًا لي رأيه ذات مساء وهو يحيط بيده كوب شاي.

لم أكن أريد أن أدخل في مثل هذه النزاعات، خاصة وأنا أحد الذين تسببوا فيها، في تلك الليلة نمتُ وأنا أفكر في شيء واحد، لماذا لا تؤخذ الأمور على محمل الجد إلا عندما تحل مصيبة؟ عم منصور يعيش في بيت ورثه عن أبيه، لم أشعر في كلامه يومًا أنه يملك شيئًا ذا قيمة، لكن عندما بدأ هذا الشيء ينسحب من تحت قدميه ويكاد يفقده للأبد، انتبه وبدأ يخطط جديًا لعودة ما أُخِذ منه، نفسه التي كانت طيبة أصبحت تفكر في الألاعيب والحيل، هذا البيت الكبير كان فقيرًا، لم يرَ فيه أي إمكانية ليستحيل إلى بناية شاهقة كما أصبح الآن.

خرج عم منصور في الصباح وعاد قُرب الغروب، كان يحمل لفافة من الخيش، يرشقها تحت إبطه ويضغط عليها بكوعه، وضعها أمامه على المنضدة الصغيرة وظل يتأملها لمدة طويلة، كان يرى فيها ما لا نراه، فهو يعرف ما بداخلها، أما نحن فلا نرى إلا خيشًا بُنيًّا مهترئًا تتدلى منه الخيوط، فتحها ببطء لا أعرف إن كان مقصودًا أم لا، وما إن وصل إلى المخبوء حتى حملقت مريم كالتمثال.

"ما هذا يا أبي، بندقية؟"

حررها عم منصور من لفائفها، ثنى الماسورة ولقمها بالرصاص، ثم رفعها في وجهي.

"خُذ يا زوج ابنتي، فإبرام العقود لا يعني ألَّا تصبح معنا بندقية".

ظل رافعًا يده بالسلاح مدة طويلة.

"لماذا تتردد يا مروان؟"

نظر في عين مريم، ومريم نظرتْ في عيني، كنتُ مُجبرًا على مدِّ يدي وحَملها عن يده، لم ألمس مرتينة منذ أن كنتُ طفلًا في المخيم.

"يا مروان".

قال بصوت تعمَّد أن يكون غليظًا.

"خُذ السلاح بقوة، فهذا زمن الرجال".

تعلقتْ يـدي بالمرتينـة ولا أعرف مـاذا يجب علـيَّ أن أفعل بها؟ تنفَّـس عـم منصور بارتياح كأنـه تخلص من عبء ثقيـل، كنتُ أود أن أصرخ في وجهه، ماذا ترى فيَّ؟ أنا لسـت قاتلًا، لا أريد استخدام هذه الآلة حتى ولو لإرجاع حقي، فإذا كان الرصاص والموت هو السـبيل لعـودة ما أُخِذ مني فسـأتنازل عنـه، كيف أقول له إن نفسـي غير مُدربة علـى حـل النزاعات بالقـوة، أنا مخلوق سـلبي، تمامًا مثـل أبي، وكل ما يجلـد روحـي ويؤرق منامي هـو ذلك الجزء الـذي ورثته عن أمي، تلك الصفة الشجاعة الدخيلة على شخصيتي، ومن هذه الثغرة تحدث لـي كل المصائب، هـل تتخيل يا عم منصور؟ لقـد أصبحتْ مُكوناتي مثـل فطيرة كبيرة مملحـة، تخيلها العابر كعكة، فألقـى فوقها قليلًا من السُّـكر، وهذا هو الشـيء الذي يغرس اليأس في نفسي، أقسم لك، أنا أريد أن أكون شجاعًا، لكن الأمر ليس مرتبطًا برغبتي فقط.

سحبت يدي بما حمَّلني به وجلست، وضعت المرتينة على فخذي، لم أشـأ أن أُبيِّن له جهلي، فأنا لا أعـرف كيف تعمل، كل معلوماتي أن لهـا زنادًا وخزنـة تُلقَّم بالرصاص، أما كيف تدخـل إليها الرصاصات، أو ما هي الطريقة المُثلى لاسـتهداف الأعداء في مقْتلهم؟ فلا علم لي بذلك، ولا مقدرة.

لـم أتفـوه بكلمـة تُنقص من شـأني أمام زوجتـي وأبيهـا، قلتُ في نفسـي، كُـن عاقلًا، فصمتك بأي حال أفضل مـن أن تهتز صورتك في أعينهم أكثر ممَّا هي مهزوزة.

لم يحدث قط، أن كنتُ متباعدًا بتلك المسافة الشاسعة، بيني وبين نفسي.

بوز حذائي يعـرف طريق الحَصى، وقدماي تعرفان طريق الجامع، مـاذا ستفعل يـا مروان بعـد أن أصبحـت الحقيقـة مروعة؟ لِـمَ اللف والـدوران، فأنا، وحتى هذه اللحظة، لم أشـارك في فعل شـيء، لماذا لا أستطيع تحديد دوري في الحياة بشكل حاسم، هل أنا راغب في النجاة أم مستسلم للموت؟

شـعارات التمني لن تُرجع البيت، ذهبنا أكثر من مرة، طوال عامين ونحـن نذهب ونسـتدعي وسـطاء، لـم يقترحـوا سِـوى كلام لا يقدم ولا يؤخر وهم يشربون الجوزة حول الفسقية، حتى حضر إلى الجلسة رجـل عرفتـه للوهلة الأولـى، زاد وزنـه وابيضَّت لحيته كلهـا، الريس زكريـا، الرجـل الذي تركني فـي الصحراء بعد أن أطعمني شـوكولاتة بالويسكي، ورغم صورته السيئة التي أغلقتُ عليها خيالي منذ سنوات، فقد كان أكثر المفاوضين جدية، هو الوحيد الذي اقترح في الجلسة أن يشـتري عم منصور من خلدون شريحة من البيت الخلفي، والذي كان يخصصه مبيتًا لسـياراته، مسـتطيل من أرض لا ترى الشارع الرئيسي، بالغ خلدون في رفضه، فتمسـك الوسـيط باقتراحه حتى وافق المالك الجديد، فاعتبر عم منصور ذلك فوزًا كبيرًا.

لعب الريس زكريا دور المُصلح، وغدًا أو بعد غد سيفتح من أرباح الحروب تجارة منيفاتورة ويشـارك إخوة أمل، غدًا أو بعد غد سيُقسم بشرفه إن الأمور تمضي بشكل أفضل.

عـادت الأصوات تطن في رأسـي مثل خلية. أصبـح مطلوبًا منَّا أن نبيع شقة العباسية.

مرة أخرى عدتُ أبحث عن شخص يُدعى "الشنصار" لنبيع الشقة، استعدادًا للعودة إلى الشريحة الجديدة في البيت القديم.

وأنا، إنما أردتُ أن أنسلخ من كل هذه المقاومات.

يمَّا، لماذا كان أبي لينًا كالإسفنج وأنتِ جامدة كالصخر؟

وأنا نتاجكما، حائر بين التحجر والرخاوة.

لم أعُد أجيد سبك كذب جديد.

يمَّا، أريد عودة غير مشروطة إلى حضنك.

وليحدث ما يحدث.

يمَا. ردي عليَّ.

عـادت المرأة التـي تحمل صُرة الملابـس تسـير أمامـي، لكن هذه المـرة لم تكن تسـير فـي طريق ناءٍ، بـل رأيتها تخترق الزحام، جريتُ خلفهـا، أردت ألا تفلـت منِّي هذه المرَّة، أنا لسـت متخـاذلًا يمَا، فقط أريد لمسـكِ ولا أسـتطيع التجرؤ على ذلك، هل أصبحـتِ أنتِ أيضًا امرأة أخرى؟ أستحلفكِ بكل أولياء الأرض أن تردي عليَّ.

سرتُ بجوار سور طويل، الناس يرتطمون ببعضهم دون أن يصدروا صوتًـا، رأيت أجولة خيش ملقـاة فوق الثلوج، وبرميـلًا تدحرجه قدم

لا أرى صاحبهـا، وأكيـاس توابـل وعدسًـا وطحينًا، وغبار فـول تقلبه المجارف، الناس يبيعون ويشترون ولا شيء غير ذلك.

"يمّا. يمّا".

كابـوس يحجـز الصـوت، يصادره للداخـل بدلًا مـن خروجه إلى البراح، وأيادي الباعة تنشط في فعل كل شيء، الشيل والحط والسحب والجر، يسـتغرقون في العمل، لا أريد أن أسمعهم أو أقول لهم كلامًا، كنتُ على وشك الصراخ، لكنني تذكرتُ يوم أن وضعتُ كفي فوق فم أبي قيس.

"كُـن عاقـلًا، كُـن عاقـلًا، فذلـك علـى أي حـال أفضـل مـن أن تموت".

قبل أن أصل إلى المسـجد في قلب الميدان، وقفت ألتقط أنفاسـي وأتابع المرأة التي تحمل الصُّرة فوق رأسها، لماذا لم تلوحي لي يا أمي وتندفعي إليَّ بشـعرك الأشيب ووجهك الأسـمر؟ ستجديني أرتجف مثل طير ضعيف على وشـك أن يموت، سيزيد من قوتي خفقان قلبك فوق صدري، لا تغضبي بسـبب ما فعله أبي بزواجه من شـفيقة، فليس لـي ذنـب إلا السـكوت، وهذا ذنـب يُغتفـر، وإن كنتِ غاضبة بسـبب أننـي خرجـتُ ولم أعُد مثل زكريـا لا تغضبي، فهذا أيضًـا ذنب يُغتفر، توزعنـا بيـن أرجاء ما نسـميه مجـازًا الوطـن العربي، كنـت أموت في اليـوم الواحد أكثر من مرة، حتى أصبحتُ أشـبه بطيف، أعرف أن هذا القسم من القصة لن تصدقيه بأي حال، فليس لديكم بقال أطرش حتى

أكلمك في التليفون وأطمئن عليكِ وأسمع صوت حسن وسلمى، صرتُ لا أعرف يمّا، هل أنتِ التي في المخيم تربي إخوتي، أم أنكِ المرأة الغامضة التي تحمل فوق رأسها صُرَّة وتسير أمامي الآن في ميدان العباسية؟ أعرف، كثرة الكلام لا تعجبكِ عادة، لكن قصتي يا أمي بدأت هكذا منذ عشر سنوات، لقد أصبحنا في العام 1977، العمر مجرد رقم، هل تتخيلين؟ لست أدري كيف دبَّتْ فيَّ الروح بعد أن فارقتني، بل لم أكن متأكدًا هل فارقتني بالفعل أم أنها خفتت فقط حتى تخدع رفاق الطريق؟ لم أشعر بنفسي إلا وأنا أقف على قدميَّ، تركت الجثتين ونهضت، أمسكتُ رأسي من شدة الدوار، سرتُ في الصحراء دون إرادتي، وحتى تلك اللحظة، لم أشعر بأنني أعيش مثلما كنت، خسرتُ كل المعارك، حتى البيت الذي فتح لي أبوابه، ضاع مثلما ضاعت قيسارية عن طريق التجار والمتآمرين، لم يعد بوسعي تحديد موقعي من الحياة، تبدلت الأماكن قليلًا يا أمي وانحرفت مِنّي، تهتُ ولم يعد بإمكاني العودة مرة أخرى، انقضت بضع ساعات وأنا أبحث عن شيء لا أعرفه، مرَّت سنة تلو الأخرى ولم أجد هذا الشيء حتى الآن.

اختفت المرأة التي تحمل الصُّرَّة، وأنا، أصبحتُ أمام باب المسجد، رأيت العجوز الخرساء تجلس أمام الباب الكبير، رأسها منكب يمطر الفتات في عبها، بين ركبتيها طبق كبير وفي يدها ملعقة، تغرف منه وتدس في فمها، ما إن لمحتني حتى هدأت حركة الملعقة، ثم توقفتْ يدها تمامًا عندما تأملتني، ابتسمت وأشارت بذراعها إلى

الداخل، ابتسمت لها عندما رأيتُ رأسًا شديد البياض يطل من باب المسجد.

"لماذا غبت كل هذه المدة يا مروان؟"

الشيخ سيد، انحنى ظهره أكثر وابيضت بشرته.

"على العموم، لقد جئت في موعدك، ادخل".

كانت ساحة المسجد الصغيرة تضج برجال يحملون الدفوف، والثريات المُعلقة في قبة المسجد تضيء الوجوه العامرة بمحبة الحياة وذِكر الله، تفقدتُ ملامح المريدين، خلعتُ نعليَّ ودخلتُ. كانت ساحة الجامع مُقسمة إلى نصفين، نصف يتحلق فيه الرجال حول أسمطة طويلة، صوانٍ من لحم وأرز وخبز مفتت في المرق، وجوههم مُحمرة من أثر الطعام، أما النصف الثاني فالرجال يقفون فيه، ينشدون وتتمايل رءوسهم، يذكرون الله بأجساد عامرة بالشبع.

كان عم سيد يُخدِّم على رواد بيت الله، يرفع ما فرغ من صوانٍ ويأتي بغيرها، يضبط حامل الميكروفون أمام أطول الرجال ليصل صوته إلى العالمين، الله الله.. عرفتك والتيه في خاطري يروعني بالشقاء والعذاب.. الله الله.. فيا رب صُن قلبي عن نظرة تريد الضلال لنقي الثياب.. الله الله.. وا شوقاه وا شوقاه إلى رؤياك رسول الله. الله الله.

دخلتُ مع الداخلين في الموجة الجارفة، ثم جلستُ مع الجالسين في ركن قصي، وضع الشيخ سيد أمامي صينية عامرة، اليد التي

وضعتها ظلت ممسكة بها، فالوجه الذي ينتمي لليد عندما ارتفع عنها ثبت على حاله، والعين التي تنتمي للوجه توقفتْ حركتها، وعيني توقفت أيضًا.

"كُل يا مروان، كُل يا ولدي".

كان يقف خلف الرجل ذرية ضعاف من الصبيان، يساعدونه فيما خف حمله من أوانٍ فارغة، ويكنسون الأرز والفتات بمقشات صغيرة ملونة.

لم أستطع مدّ يدي في صحني، بعد أن انتهى الرجال من الطعام جاء دوري في الوقوف، لم يمكنني الاعتراض على ذلك، دخلت في الغيبوبة، ثم خرجتُ من الدائرة، ظللتُ أنشد معهم، نتمايل جميعًا مثل نخل تعصف به ريح، تبحث عيني عن عم سيد، لم أجد له أثرًا، ذاب مثل فص الملح.

شبكتُ مداسي في قدمي على عجل، اجتزت دورات المياه إلى طريق المئذنة، أصبح مجرد صعود الدرابزين الزلق مُجهدًا، هل صرت عجوزًا يا مروان؟

لمحت أواني كبيرة ملقاة وفي قعورها بقايا طعام، وطاولات الجائلين الذين حوّلوا غُرف المسجد إلى مخزن، كان خيالي مُفعمًا بلحم الضأن وأناشيد الذِّكر، وقفت أمام حوض كبير به آنية غير نظيفة، الشيخ سيد يعقد جلبابه ويشمر السروال الأبيض، كان قد انتهى من غسيل أغلبها.

"العمل من أجل الله يا ولدي هو أنقى أنواع العبادات".

فقاعات الصابون تغطي ذراعيه، يحك بظهر كفه لحيته البيضاء التي لم يمسسها موسي منذ بدء الخليقة.

كان السمن الزلق فوق الدَّرَج، يصنع طبقة سوداء تغطي مواضع الأقدام، الدرابزين متشقق والحيطان مبقورة.

ترامى إلى مسامعي صراخ يعلو بالتدريج كان آتيًا من الشباك الصغير، كان صوتًا مرعبًا، ابتسم الشيخ سيد وقال:

"لا تشغل بالك، إنها أم بلال. امرأة مسكينة خفَّ عقلها، فأصبحتْ تخاطب أشخاصًا غير موجودين".

سيل من الشتائم تدفق بصوتها الذي بدأت أميزه "حرام عليكم يا رمم، حرام عليكم يا كلاب، هل أراحكم صمته؟"

"سرقوا ذكرياتها المحفورة في رأسها، ألقى بها أولاد الحلال في حجرة صغيرة بجوار المسجد، فهي تعاني من المرض والزمن، اقتطعتُ لها جزءًا من صندوق الزكاة أخصصه لشراء الأدوية التي تحتاج إليها".

عاد ضجيج الأواني يغطي على صراخ أم بلال.

"لماذا لم تأتِ إلى المسجد طيلة هذه الأشهر يا مروان؟"

نظرتُ إليه وأنا قاطب الجبين، حاول الشيخ سيد التخفف من النبرة الوعظية العالية.

"بحثت عنك كثيرًا يا ولدي حتى دلني أولاد الحلال على مكانك، لكنـي لم أجـرؤ على دعوتك للعودة، ورغم ذلك فقـد جئتَ من تلقاء نفسك".

هل يجب أن تنتهي قصتك هكذا يا مروان، مساعدًا لخادم مسجد؟ ليـس ذلـك ما كان يجول في رأسـك عندما قاومت الدوار وتمسـكت بالصخرة أمام أبي الخيزران.

حاولـتُ مسـاعدته، كنـت أرصُّ مـا تطوله يـدي مـن أوانٍ، أُنظف الأطباق وأُلقي بالملاعق متسخة في الحوض.

"ستحتاج يا مروان في تلك الأيام الصعبة إلى عُزلة دينية مُرهفة، تُبعدك عن نزاعات الحياة التافهة، الزائلة".

كانـت الجلبة تزيد كلما ألقيت عشـوائيًا بالأوانـي، توقف احتكاك المعادن بعضها ببعض فجأة، مسـح الشيخ سيد كفيه بمنشفة مُعلقة في مسمار، وبقدمين ملطختين بالصابون وفضلات الطعام تقدم مني.

"لقـد تركت لهـم الدنيا كلها، لم يعد لديَّ أطماع تجعلني أنسـى واجبي تجاه ربي".

قال ثم أخذ ينقر بأظفاره على قعر أنجر ألومنيوم لا يزال متسخًا.

"يا ولدي، أنت تعيش دورًا آخر غير الذي يجب عليك أن تلعبه، هنـا تتلخـص مأسـاتك ولا شـيء غيـر ذلـك، لا يُفتـرَض أن تموت، وأيضًا لا يجب أن تعيش كأنك ميت".

. لم أرد فأكمل الشيخ دون توقف:

"عندما حكيت لي حكايتك كنتَ تعتبر أنها مأساة، تبتكر طرقًا غريبة لتعد نفسك دائمًا من الأموات، لكنك نسيت أن مالك المُلك قد وهبك حياة، فما بالك بمَن أُخِذت منه حياة".

ارتسمت على ملامحه طبقة من الحزن وأجهش في بكاء لا ينقطع، لم أعرف السبب إلا عندما بدأ يتكلم.

"فقدتُ ابني الوحيد في حرب 67، لم يعد لي غير الله، ولن أدع الفرصة تفوتني هذه المرة، وهبتُ نفسي لخدمة أحباء الله حتى يحين الأجل، كان يجب عليَّ أن أحافظ على ما تبقى من عقلي، سيُقال فيما بعد، إن ما حدث كان مستحيلا".

لم أفهم الكثير من ألغازه، فكَّ الشيخ سيد عقدة جلبابه، كان الرداء بالكاد يتجاوز ركبتيه، قلب إناءً كبيرًا ووضع فيه الأطباق الصغيرة، ثم بدأ يرص الآنية النظيفة في دولاب خشبي كبير.

حملت الأواني وصعدت بها معه إلى الأدوار الأعلى، رأيتُ صبيَّين صغيرين يتقدمان أمامه، بعد أن وضعت حمولتي من الحلل والصواني والأكواب التفتُّ إليه وفي يدي ملعقة أشير بها.

"أريد أن أعود إلى مسقط رأسي يا شيخ".

صعد السلالم أمامي إلى طريق المئذنة، بعض نسوة كن يتسربن فوق الدرَج، لا يظهر من وجوههن إلا العينان فقط، ينزلن السلالم بسرعة، يحملن فوق رءوسهن شنطًا بلاستيكية عليها ختم "الجمعية الشرعية".

وصل إلى حجرته المستطيلة التي يبيت فيها، سرير سفري بمرتبة صغيرة ملبدة بالغبار، شباك عالٍ تتسرب منه إضاءة آتية من ميدان العباسية، ورف واحد فوق السرير، يحمل نسخًا قديمة من كتب تراثية مكومة، تذكرة داود، ألفية ابن مالك، الأربعون النووية، رياض الصالحين. وفي جانب مترب تفسير الأحلام لابن سيرين.

"حرام عليكم، يا أولاد الكلب حرام".

لم يُعر الشيخ صوت أم بلال اهتمامًا، تعوده على ذلك جعلني وحدي الذي أسمعها.

"لقد تأخرنا كثيرًا في فهم جذور المسألة، البعد عن ديننا هو السبب في كل المصائب التي لحقت بنا".

ثم سحب المصحف من فوق أحد الأرفف، رفعه أمام عينيه كأنه سيقرأ منه، ثم قبّله ومسّ به ناصيته.

"هذا هو الحل لكل مشاكلنا يا ولدي. ولا حل سواه".

21

دربني الشيخ سـيد على قص البنطلون وتقفيله وتشطيبه في مشغل الأيتام، لكنه لم يدربني كيف أهرب من قبضة رجال الأمن.

داهموا المسـجد بمصفحة وسـيارة نقل وبوكس، لـم يبذلوا جهدًا كبيـرًا ليظفـروا بـي، فبعـد صـلاة الفجر كسـر الجنـود باب المشـغل الضعيف بأقدامهم، وتقدم أحدهم، كان مُلثمًا.

"مروان يحيى سعيد؟"

التفتُّ فلم أرَ درج السلم من الملابس السوداء.

"نحتاج إليك معنا قليلا".

ذهبتُ معهم دون أن أنبس.

أثنـاء نزولنا الـدرَج جابت عيني الميضـأة ودورات المياه بحثًا عن الشـيخ سـيد، ذاب مثل فص الملـح، عندما اقتربنا من باب المسـجد، ضربـتْ قدم جندي باب دورة مياه مُغلقة، مد يده فخرجتْ وفيها ذراع الشيخ سيد.

اقتادونا بعد أن عصبوا أعيننا بقماشـة سوداء، قذفوا بنا مثل سهمين فـي جوف شـاحنة كبيرة، لهاث الشـيخ لم يكن يصدر عـن رئتيه فقط، مسـام جسده كلها تلهث، وبدأتْ أسئلته المتلاحقة تُخيفني.

"هل نحن مقبوض علينا؟"

"مَن أنتم يا جماعة؟"

"أين ستذهبون بنا؟"

ثم صمت الصوت ولا أدري هل توقف صاحبه عن طرح الأسئلة أم أنه نام؟ بعد قليل استحال الكلام المقذوف عبر الهواء كله إلى تمتمات غامضة، وأنا، كأني أغطس في حوض زجاجي، أحسستُ كأن زيتًا يُسكب على جفوني، ولا أسمع في الجو إلا صوت الدعاء الصادر عن الشيخ، كان يرشو الظلام بالصوت ليُخفف من عتمته، قرابة ساعة والسيارة تترجرج بنا، لم أسمع خلالها إلا صوتي الذاتي، شُبِّه لي أنني سمعتُ هذه القصة في مكان آخر، انفصلتُ عن العالم وما يحدث فيه. رأيت أمي تسوي دفعة جديدة من الخبز، إن الرغيف هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن يُرى بالأصابع في الفرن، حين يصل الأمر للرغيف، فإن أحدًا لا يستطيع أن يُخطئ، لقد أصبحتُ ضريرًا مثل الفرَّان الأعمى، أنا الآن جالسٌ على كرسي، لكني لا أبيع خبزًا، بل أنتظر شخصًا سيحقق معي في شيء لا علم لي به، "س، ج" أجب على قدر السؤال فقط ولا شيء غير ذلك.

ساقونا دافعين إيانا من الخلف، تعثرتُ في أشياء لا يمكن أن أتفاداها إلا عن طريق العين، نزلنا سلالم وعبرنا ممرات ونحن منحنون، أجلسونا على كراسٍ في مكان بارد دون أن يتحدث إلينا أحد، يد عفية جذبت القماط الأسود عن عيني، لم يتغير شيء، كل ما أراه كما هو، ظلام في ظلام، بعد قليل من التفتيح والتغميض اتضح لي مكان الشيخ سيد، بدا كما الظل على حائط، يجلس فوق كرسي خشبي كبير ويداه مربوطتان خلف ظهره، ولكنه بسبب العُصابة السوداء لا يراني. رأيتُ ظلًّا آخر يقترب مع وقع خُطى، وسمعتُ صوتًا.

"اسمعني جيدًا يا شيخ، تبدو رجلًا طيبًا ولست من أرباب السوابق، ومن خلال سجلك لدينا عرفنا أن ماضيك كله مُشرِّف".

احتكت أرجل الكرسي بالبلاط عندما تململ الشيخ في جلسته واهتز.

"وما دمتم قد عرفتم كل ذلك عني فلماذا أنا هنا الآن؟"

"أنت مُتسرع حتى في طرح سؤالك، وهذا خطر عليك. وعلى البلد".

"وما علاقة تسرعي بتلك الأخطار؟"

أخرج المحقق من سير جلدي حول خصره مسدسًا، وضعه على منضدة أمامه وأخذ يلفه بسبابته، وضع طرف إصبعه في دائرة الزناد وأسرع من دوران المسدس، فأخذ يلف من تلقاء نفسه، ويصدر احتكاك الحديد بالخشب.

"لا بد أنك ستفهم ما أريد قوله، لا يوجد شخص عاقل يحارب على الدوام، لا بد من السلم، هل تفهمني، لقد حاربنا وانتصرنا".

رفع الشيخ سيد رأسه عاليًا حتى ظننته سيصدح بأغنية أو سيصيح، لكنه ظل صامتًا، ثم انطلق في الظلام كأن الكلام اقتحم رأسه دفعة واحدة.

"حاربنا وانتصرنا، ما علاقتي أنا بكل هذا؟"

كان مؤسفًا أن أرى يد المُحقق تهوي من ارتفاع كبير فوق وجه الشيخ.

"لقد كررت أكثر من مرة في خطبة الجمعة كلمة الأعداء وكنت تقصد إسرائيل، أليس كذلك؟!"

لا أعرف هل كان الشيخ يتلفت بحثًا عني أم بحثًا عن مخرج له من قبضة المحقق، هل هو يعلم الآن أن مترين فقط يفصلانا عن بعضنا بعضًا في حجرة مستطيلة ومُظلمة؟

نكس رأسه والتمع عرق قفاه في الضوء الشحيح الصادر من مواربة الباب.

"هذا لا يرضي الله ورسوله يا حضرة".

بلع الشيخ ريقه وتحركت حنجرته في عنقه.

"ثم إنني لا أعرف يا سعادة البيه ماذا تقصد بكلامك هذا، هم أعدائي، أليسوا أعداءك أنت أيضًا؟"

"أنت هنا لتُسأل لا لتَسأل.. اسمع. اسمع يا شيخ، عظيم، أنت صريح، وهذا النوع من الرجال مُريح بالنسبة لي، كانوا، هُم كانوا أعداءً، وقريبًا ستوقع مصر معهم معاهدة، وأنت تشجع الناس في خُطبك على كره اليهود وهم الآن سيصبحون..."

لم يُكمل الجملة، ابتعد عنّا وأخذ يلف حول كرسي الشيخ ويطرقع أصابعه.

"سيصبحون أصدقاء".

لطعـة دم مسـتديرة ظهـرت علـى جانب فم الشـيخ، لعقهـا بطرف لسانه.

"مَن هُم الذين ستعقد معهم مصر معاهدة سلام يا سعادة البيه؟"

رفع رأسه لأعلى أكثر من اللازم.

"لقـد فقدتُ ابني الوحيد فـي 67، فقدتُ بلال في الحرب، وليس بوسعي أن أفعل ما تطلبون، حتى لو شنقتموني، فالأصدقاء معروفون، والأعداء معروفون، لماذا تريدون أن تخلطوا الأوراق يا سـعادة البيه؟ هذا الأمر لا يتشابه علينا".

أجهش الشـيخ بالبـكاء، فلم يسـتطع المحقق إكمال الـكلام معه، دخـل رجلان وحملا الكرسـي بمَن عليـه وخرجا، لم يعـد غيري في الغرفة مع المُحقق.

وقبـل أن يتكلـم الرجـل اسـتعنتُ بكائناتـي التـي تجعلنـي أجتاز المصاعـب، لـم يخضع أبـي ولا مرة وهـو منتصـر، كان يخضع خوفًا من البطش، خوفًا من السـلاح، خوفًا مـن الموت، لديك مرتينة مُلقمة بالرصاص يا أبي فلا تخف، ويرد عليّ، وماذا سـتفعل مرتينة لم تطلق غيـر رصاصة واحـدة، هل تعلم يا مـروان بأن لديهم مدافـع تدك قرية كل يـوم، أعِـدُكَ، لو انتصرت يومًا، سـأقتلع زور قائد الدبابة من عنقه، وسألقي بكل مصفحاته الحربية في البحر، وكيف أتعرف على الأعداء يـا أبـي؟ الأعداء دائمًـا هم الأقويـاء يا مـروان، ولمـاذا لا ينصرنا الله

عليهم يـا أبي بالإيمان؟ يا ولدي، الدعاء علـى الأعداء مطلوب، لكن أريدك أن تتذكر شـيئًا، عندما حبسـوا جدك سنوات في معسكراتهم لم يكـن ملحـدًا، بل كان يذكر اللـه ويعرف الدعاء، يحمل دفترًا يحسـب فيـه مرتبات المحتاجين، كل جـدودك كانوا تقاة مخلصين، من أولئك البشـر الذين إن نبتت لهم أجنحة مثل الملائكة لكان ذلك أمرًا طبيعيًا، هـل تتصور مصير هؤلاء المؤمنين كيف كان؟ دُفنوا جميعًا في التراب مع مسابحهم ودفاتر توزيع الصدقات على المحتاجين.

"سنطلق سراحكما بعد قليل، لكن لي عندك طلب يا فلسطيني".

لم أرد، فأكمل.

"أن تُقنـع شـيخك بأننا لا نعيش وحدنـا، نحن ننفذ ما تمليه علينا القيـادة العليـا للدولـة، وأقنعه أيضًـا بأنه لو أتى بالشـيخ عبـد الحميد كشـك في المسـجد سيشـرفنا هُنا مـرة كل أسـبوع على الأقـل، ومن المحتمل أن تُشرفنا معه".

سمعته يطلق اللعنات في سِرِّه، ربما كان يسبني، بصوت هادئ بين الغضب والرجاء قلت:

"ولكني لم أتلقَّ حتى الآن أي أسئلة، أليس هذا تحقيقًا معي؟"

تحولت غمغماته إلى كلمات مفهومة:

"لماذا لا تمدوا أيديكم للسلام؟"

"لماذا لم تساعدونا على دق جدران الخزان؟"

خرجت الجملة من جوفي وعبرتْ حنجرتي وسمعها المحقق، يبدو من تجاوزه سؤالي أنه لم يستوعبه، شرب من كوب ماء حتى تبلل وجهه، وقف خلف الكرسي الذي أجلس فوقه مُقيدًا، أشعر بأن نقط ماء تغطس في فروة رأسي:

" لا تخف يا مروان، فتصريح خروجك في الطريق، لكن هل تعلم؟ لو كان الأمر بيدي، لأشعلت النار في كل معارض يقف أمام الإرادة العليا للدولة، ولكن حظكم جيد، فقد خلق الله أشخاصًا حالمين مثلكم، وضعوا عقبة كبيرة أمامنا وأسموها القانون".

فكَّ قيدي بنفسه، ما أرعبني لم تكن كلماته الغريبة، ولكن طمأنينته التي كان ينطق بها الكلمات، كأن هذه الأفعال ستقربه أكثر من الله.

خرجت من مبنى مباحث أمن الدولة وأنا أبحث عن الشيخ سيد، أريد التأكد من أنهم أطلقوا سراحه بالفعل، كنت أشعر بذلك الإحساس المكتوم الذي يسبق الكلمات، كصفعات قذف الخُبز فوق بلاط الفرن، أو طقطقة عُشبة في بطن الأرض لا تعرف هل تنمو أم ستدهسها قدم عابرة.

كانت شمس الظهيرة متعامدة فوق رأسي، ولا أشعر بقدمي، انعزلتُ عن الطريق والناس وأصبحتُ خارج عالمهم تمامًا، لم أشعر إلا وأنا أضرب بقدمي الآن بابًا متداعيًا، فانفتح المصراعان على صاحب الشوارب الجالس، مُحاطًا بدخان النرجيلة ورائحة القهوة، لماذا لا تريد أن تزوجني صفية يا عمي، يهز خرطوم النرجيلة كأنه يهش شيئًا غير مرئي، يبتسم صاحب الشوارب في وجهي، كما يسخر

شـخص كبير مـن طفل يلهـو، ثم تدرَّجت ابتسـامته إلـى ضحكة أكثر سخرية، ألم أقل لك يا مروان؟ أبوك يعرف، اذهب إليه في بيت شفيقة واسـأله، هذه حكاية معروفة، مروان أخو صفية، وصفية أخت مروان، هـل تقصـد أن أم صفية أرضعتني، أم أن أمي أرضعـتْ صفيَّة؟ انتفض صاحب الشوارب فاهتزت النرجيلة ومالت على الأرض، هذه حكاية معروفـة، وهـذا كل مـا عندي، ثم بـرم شـاربيه الواصلين حتـى أذنيه، غـدًا سـتُزف صفية على ابـن العرفاني، ليس معقولًا مـا تقوله يا عمي، أنـا أحب صفيـة، وهي تبادلني الحب، ولم أسـمع من قبل عن مسـألة الرضاعـة هـذه، عـدل الرجل مـن وضعية عباءتـه فوق كتفيـه، اقترب منـي ووضـع ذراعه فوق كتفـي، يا ولـدي الحُب كلام فـارغ، القرش يأتي أولًا ثم يلحق به كل شـيء على مهل، وأخذ يُنغّم شـيئًا غير مرئي بين إبهامه وسـبابته، وقد أخبرني أبوك أنك نويت السـفر إلى الكويت مثـل أخيـك زكريا، هـذا عين العقل يـا مـروان، أي إن أمامك صحراء وسـفرًا وسنين طويلة في الغربة، وبعدها، يووه، سيتغير الكلام وتكون الدنيا أصبحتْ غير الدنيا، تمشَّـى بي قليلًا باتجاه باب الخروج، الأيام تُغيـر العفريت، أنـا أتكلم من أجل مصلحتك، أنت ابني يا ولد، وأبوك كان صاحبي، تَشـاركنا معًا فـي قتل الإنجليـز، وكان كل منَّا يعود آخر النهـار وفـي جيبه ثلاث قبعات فقدتْ رءوسـها، أنا أريـد لك الخير يا مـروان، اذهـب يا حبيبـي وغُص في المقـلاة مثلما فعل أخـوك زكريا ومعظم شـباب جسـر الزرقا، أفلتُّ فجأة من تحت ذراعه وهربتُ إلى عُمق البيت، ارتميتُ بكل جسـدي فوق بـاب غُرفة صفية، فانفتح عن آخـره، وثبـت الجميع علـى وضعهم كتماثيـل الشـمع، صفية تجلس

عارية في مغطس نحاسي كبير، يُخبئ الماء نصفها الأسفل ويلمع صدرها وشعرها من بصيص النور الذي دخل مع فتح الباب، شهقت حبيبتي وانزلقت أكثر في المغطس، وضعت ذراعيها متصالبتين على صدرها، كان شعرها ملتصقًا بوجهها، أعطاه البلل والضوء الضعيف لمعة معدنية، كأنها صارت مطلية بماء الذهب، لا أذكر، هل شهقت صفية ثم صرخت امرأة كانت تقف بجوارها؟ أم أن ما حدث هو العكس، لكن ما أذكره جيدًا أن صاحب الشوارب شدني من قفاي وظل يروح ويجيء بجسدي النحيف، جرَّني من أمام باب غرفة ابنته، تحملتك كثيرًا يا بن الكلب، لم أكن صاحبًا لأبيك في أي يوم، فأنا لا أصاحب شخصًا يترك زوجته وأولاده من أجل المال، وليس لديَّ بنات للزواج، ظللت أروح وأجيء في قبضته كالخرقة، آه يا صفية لو تعلمين ما شعرت به في تلك اللحظة، منذ طُرِدتُ من بيتكم، بدأ اللعاب يتجمع في فمي، أحلم باليوم الذي سأتمكن فيه من البصق على العالم كله، فقد تعمَّد أبوكِ إهانتي، تجمَّع عليَّ بعض الأوباش وضربوني بالعصي لأنني رأيتُ ما بوسع عيني أن تراه من جسدك، ضربوني لأن صاحب الشوارب أمرهم بذلك، ضربوني لأنني قلت له أنت تكذب، فلو كنَّا أخوين بالفعل لما اهتزتْ لك شعرة، لماذا هرعت تجري وتتعثر عندما فتح أخ الباب على أخته ورآها عارية؟ هه، أنت تكذب، ضربة انتقام من قبضة غريبة، تكذب، ضربة أخرى من القبضة نفسها، تكذب، ضربة أخرى من قبضة أخرى، وعندما لم أعد أرى شيئًا، حملتني أيادٍ مجتمعة وألقت بي خلف سور بيتنا، ومع أول شعرة من استرداد وعيي، نويت أن أدخر من مصروفي وأشتري

مرتينة، أو أسرقها، فالمسروقة ستكون مُلقَّمة بالبارود وجاهزة في أي لحظة غضب، تعرقتْ رقبتي وفقدت الوعي مرة أخرى قبل أن أعرف من أين سأسرق المرتينة، وبعد إفاقة ثانية فكرت بشكل أكثر هدوءًا، وقلت لنفسي، كانت فكرة السفر ضربًا من المحال، ثم أصبح السفر مجازًا، أتكلم عنه مع كل مَن هب ودب، مثلما يتحدث الشباب عن كل شيء، لكنه الآن يا صفية أصبح أمرًا مُلحًّا، بل واجب التنفيذ فورًا، سأسافر لأثبت للجميع أنني لستُ أقل من أحد، سأسافر وليحدث ما يحدث.

كان الرئيس السادات يخطب على الهواء مباشرة في الكنيست، تجمع رواد المقاهي حول التلفزيونات، وكالعادة، اختلفوا قبل أن تبدأ المباراة السياسية الحامية. لم يشغلني عن متابعة ذلك الحدث معهم إلا رغبتي في البحث عن الشيخ سيد، فقد أصبحت المقاومة بعد تلك الزيارة مجرد فكرة سخيفة.

عندما وصلتُ إلى الخرساء أصبحتُ مثلها، تاه الكلام عن لساني، لم أكن أجيد لغة الإشارة، لكنها عرفت أنني أريد الوصول إلى الشيخ سيد، أشارت إلى شارع جانبي، بعد المسجد بشارعين، سِرتُ باتجاه إشارتها حتى استقرتْ قدمي أمام دكان صغير، كان الشيخ يجلس على كرسي، وجهه إلى الباب الصغير وظهره إلى الشارع.

"لقد أخرجوني يا شيخ سيد".

التفت دون أن يتكلم.

كان يجلس تحت لافتة باهتة مكتوب عليها "ترزي إفرنجي" لكن لا يوجد شيء بالداخل سوى بعض كراكيب قديمة تغطيها الأتربة، من زوايا الدكان تنبعث رائحة كريهة، مزيج من أغبرة طائرة وفضلات فئران، لا يوجد بالداخل مكان صالح للجلوس، تتدلى شباك العناكب من الأركان، ووسخ سميك يغطي البلاط، فوق الأرضية بصمات غائرة لحذاء الشيخ سيد، دخلتُ حمامة ولطمت رأسي ثم طارت إلى الخارج، أثار رفيف جناحيها مزيدًا من الأغبرة، خرجتُ ووقفتُ بجوار الشيخ، عيني التي اعتادت الظلام بالداخل انزعجتْ من الضوء الشديد بالخارج.

أرخى الشيخ سيد كتفيه عندما لامستهما كفي.

"هل هذا دكانك؟"

هزَّ رأسه بالإيجاب ولم يتكلم.

"وهل كنت ترزيًّا منذ زمن بعيد؟"

"قبل أن تولد. كنتُ أُعده له".

حاولت أن أنظر إلى ملامحه فكان ينكس وجهه لأسفل أكثر وأكثر.

"مَن هو الذي كنت تُعد له الدكان يا شيخ؟"

قام وأمسك في الباب الصاج، طلع فوق الكرسي وأخذ يمسح بيده اللافتة ويزيل عنها الغبار. كان هناك شيء غير عادي في حركات

جسـده، تشنج ورعدة، سكن جسـده فجأة. كانت شفتاه فقط تتحركان لكن الكلام يتكسر قبل أن يخرج.

"هذا هو".

نظرت إلى أعلى فرأيت الجملة كاملة "بلال ترزي إفرنجي".

"هل بلال هو ابنك؟"

كانت المسـألة الأكيدة في عدم رده، أن الأشـياء صارت في رأسـه أكثر تعقيدًا، أعدتُ عليه السـؤال، فهز رأسه والتفت بالكرسي، أصبح وجهه إلى الشارع وظهره إلى باب الدكان.

"هل تتصور يا مروان، بلال يذوب في الصحراء مثل فص الملح ولا يعثرون عليـه، قالوا إنه مفقود، لا أعرف معنى لهذه الكلمة، ذهب ولـم يعُد حتـى الآن، فذهب عقل أمه ولم يعد حتى الآن، هل ترى، لم أسـتطع تركها في منزلنا البعيد، جئت بها إلى أقرب مكان من الدكان، غرفة ملاصقة للمسـجد، وقـد اتخذت قرارًا أردتُ منها أن تسـاعدني عليـه، أن أخـدم في بيتٍ من بيوت الله، حتى هذه لم يتركوها لي، وفي نهاية الأمر يريد الرئيس أن يصافح مَن أخفوا الولد".

تعلق نظري باتجاه المسجد.

"هل هي أم بلال التي...؟"

أومأ.

ثم أخذ يهز ذراعه في رعشة واضحة:

"صناديق الجنود الذين ماتوا في المعارك، كنتُ أراها في التلفزيون، ودعوتُ الله ألا أرى بلال في صندوق أبدًا، فاستجاب الله لدعائي، ولم أرَه أبدًا".

ارتجفتُ قليلًا، لست أدري إن كنت خائفًا أم قلقًا، لم أود أن أستغرق في الحديث معه، وكنوع من المواساة، دخلت أتفقد الدكان، وحينما التفت إليه مرة أخرى، بدأت كتفاه تهتزان دون صوت، هرولتُ إليه وقلت له هامسًا.

"من المؤكد أنه في مكان أفضل".

وعندما لم يرد، خيم صمت قبل أن يهزأ الشيخ بابتسامة ارتفع لها ركن واحد من فمه.

"انتظرت أن تحدث معجزة ويعود، لكن لم تقع أي معجزة، لم يعد هناك أي باب للعودة، قلت في نفسي، ربما لم تكن صافي النيّة، ثم قلت إن التجارة مع الله هي الرابحة، العملة الرائجة دائمًا وأبدًا هي الإيمان".

لم يكن في كلامه ما يستدعي أي ضحك، لكنه رغم ذلك كان يضحك بصوتٍ عالٍ، مثل قرقرة قربة ماء، وقف وكنتُ جالسًا، أحسستُ بكفه القوية تخبط كتفي.

"ولكن هل تعرف، رغم كل شيء، سأعود كما كنت، سأفتح الدكان، فالزبائن يعرفونني من العباسية وحتى الموسكي، لا تقل

لي شيئًا، فأنا أعرف ذلك، أعرف، شيئان يأخذان الأبناء، الزوجة أو الحرب، تخيل معي أنه تزوج، هل كنتُ، كنتُ ماذا، هل كنتُ سأذهب إلى سيناء لزيارته؟ أغربل رمال الصحراء وأنا أنادي عليه، يا بلال، يا ولد عُد إلى أمك يا كلب فقد أخذت معك عقلها وتركت أباك كيسًا من الجلد محشوًّا بالعِظام، كنتُ أحسب أن المعجزات تتدلى من السماء مثلما يتدلى خطاف، لكني يا ولدي اكتشفت شيئًا، أن ذلك الخطاف الوهمي نُعلق عليه أعمارنا كما نعلق القمصان".

واكتشفت أن الشيخ سيد خسر ابنه من أجل - تقريبًا - لا شيء، وأنا أشبهه، لا أستطيع المشاركة في عودة بيت بولاق، ولا الاستمرار في بيت الله، حتى ولو شكليًا، تنقلتُ في سيارات كثيرة عبر الصحراء، أحرق الزمن كالبنزين، لكني لا أشتعل، الذكريات وحدها تشتعل، تنفجر التفاصيل كالفقاعات، رغوة تلو رغوة تحمل رائحة بلدتي، أصبحت الأصوات من حولي كلها فجأة تردد كلمة واحدة، سلام، سلام، سلام، ولستُ أفهم طبيعة ذلك السلام، هل سينسحب الرجل صاحب الملابس الحربية بمدرعاته؟ هل سيحمل عتاده العسكري ويُرينا عرض قفاه وهو متجه ليركب البحر بلا عودة، هل سيطرد إسحاق شامير من رأسه قريتي التي تتوج الساحل وتلامس البحر؟ يمّا، أنا لا أرفض السلام في مجمله، ولكني لا أفهمه، يمّا، الفلسطينيون بالخارج يؤيدون السلام مع إسرائيل، مانشيت في جريدة الأهرام، حتى ولو قالوا ذلك بالفعل يا أم زكريا، فأنا لا علاقة لي بمَن يقولون بون جور ماما ويأكلون البيتي فور ويختارون بين ثلاثين ألف نوع من الأجبان.

لـم تكـن تلك هـي المرة الأخيـرة التـي سـحبوني فيها إلـى غرفة التحقيـق، لـم يقبضوا علينا معًـا مرة أخرى، أدركـوا أن ذلك كان خطأ كبيرًا، فانفردوا بكل واحد منا على حدة، حتى يظل كلانا سـيفًا مسلطًا علـى رقبة الآخر، تفوقت علـى الخيل في النوم واقفًـا، أصبحت على اسـتعداد لأن أنقـل لهـم كل أخبار الشـيخ عندما يسـتدعونني للتحقيق مجددًا، حتى ولو سيسـألونني عن مقاسـات ملابسه الداخلية، أو عدد شعيرات لحيته، ورغم أنهم لم يسألوني فإنني فقدت احترامي لنفسي، أصبحـت أكـره الجـدران، وأطيل من الجلـوس في الطرقـات العامة، تحول التسـكع إلى متعة لا حدود لهـا، أتقبل الصدقات بنفس راضية، تسير قدمي من تلقاء نفسها، فلم يعد لها وطن.

لأول مـرة أحـاول الانسـلاخ مـن الشـيخ سـيد، أتمنـى أن أتركـه وأمضـي، بالكاد صرتُ أتحمل نفسـي، حتى ذلك فأنـا غير متأكد منه، حديـث الرجل الذي يرممه من هنا وهناك ليس له غير معنى واحد، أن قبر الطين مأوى الخاسرين مهما تفلسفنا، وأن الحياة فرصة نادرة ولن تتكرر، وإذا اقتنعتُ بهذا الكلام فلا بد أن أهرب، الغريب لا يعرف أنه غريـب، والأعمـى لا يصدق أنه أعمى، يمكنهـم أن يروا ذلك فقط في تصرفات الآخرين.

شُـبِّه لـي أنني تركت الشـارع الذي رأيـتُ فيه امرأة تصـرخ وامرأة أخـرى خرسـاء، ابتعدتُ عن صوت مـؤذن ورجل يجلـس أمام دكان مهجور، نفضتُ من رأسـي صورًا أخرى بعيدة، شخص قوي ونحيف

يُمكنه أن يقوس نفسه فلا يسبب ذلك أي إزعاج لعموده الفقري، وشخص آخر بدين ترك ابنه وزوجته ليموت في الصحراء، وشاب أكبر مني قليلًا تمدد بجواره دون أن يعترض.

قال لي الرجل الذي رمم الحذاء في المرة الأخيرة، لو قذفتَ به فلنكات قطار فلن يتأثر.

22

تركت الشارع والشوارع المُحيطة، عشتُ أيامًا وشهورًا بلا مكان أعود إليه، صاحبتُ القطط والكلاب، كنتُ أسير معها أينما ذهبتُ، وأحط رحالي أينما حلَّتْ، أصبحنا قبيلة، مثلما يُكوِّن الرمل جزيرة، لم أعد أولي اهتمامًا للأحداث من حولي، أنسى الكلام الجديد فور أن أسمعه.

يوقفني عسكري يعلق في رقبته صفارة مثل عقلة القصب ويسألني:

"ألا تعرف يا أخ، حظر التجول بدأ منذ ساعات؟"

يتركني أعبر الشارع عندما أشير للكلاب فتتبعني، ثم يقابلني شرطي آخر، يناديه العسكري بحضرة الأمين.

"ألا تعرف أننا في حالة طوارئ؟"

وأفكر قليلًا.

"يا رجل، كل هذا الرعب من أجل كامب ديفيد؟ إنها اتفاقية سلام، بيس يا مان".

يتركني أمين الشرطة أكمل التقدم فقد همت قطة بخمش وجهه لما رأته يقترب مني أكثر من اللازم.

لم يعد همي هو العودة، فرب هُنا هو رب هناك، بعد أكثر من اثني عشر عامًا وددت لو أوجّه رسالة إلى أبي الخيزران، بعد اثني

عشر عامًا أؤكد أنه أيقونة العالم العربي بلا منازع، يظهر بشخصية الرجل الشريف، وفي الوقت نفسه يحترف التهريب، ينام بين أحضان الراقصات ويدعي أنه شارك في حرب 48 وفقد كل شيء يوم أن طيَّرته القنبلة، وعندما يدخل في ملابسه الرسمية تتوالى فوق رءوسنا نصائحه، لماذا لم تدقوا الجدران، هه، لماذا لم تتكلموا؟ أنت أيقونة يا أبا الخيزران لأننا نتبادل دورك هذا فيما بيننا، فجميعنا نسعى لأداء شخصيتك على المسرح، ندخل بقِناعك حفلتنا التنكرية الكبيرة.

تتبعني الكلاب أينما ذهبتُ، والقطط تقفز فوق كتفي، تلبد من البرد في شالي الفلسطيني، تخمش ملابسي كلها وتُخرج منها فِتل النسيج. يعتقد مَنْ يراني أنني درويش، خلا مخه من ارتباطات الكلام التي تصنع المعاني وتجلب الأفكار، كل ما في الأمر أنني سئمت صورة الفلسطيني كما يراها باحث فولكلوري رومانسي، فلا يمكن تحويل حقول القتل اليومي إلى حدائق إلا في فيلم محبوك يصنعه المنتصر.

من بين كل التواريخ أصبح للرقم 67 شكله الرهيب، حتى ولو كان تاريخ الإنتاج على علبة مربى، فقد أصبح في دوائر دماغي تاريخًا لانتهاء صلاحية أشياء كثيرة أخرى، صوت عبد الناصر وهو يخطب يوم 9 يونيو، ثم صوت السادات في اليوم السادس عشر من حرب رمضان، قال إنه مستعد للسلام مع إسرائيل، ثم زيارته إلى عُقر دارهم، ثم بعض البرامج الفكاهية التي قارنتْ بجديَّة بين هبوط أول قدم لإنسان فوق سطح القمر، وبين ملامسة أول قدم لرئيس عربي أرض تل أبيب.

كان الناس من حولي يتكفلون بما كنت أفكر فيه طوال السنوات الضائعة، فمنهم مَن يلقي ببالطو قديم في وجهي، أو رغيف مُعمر بلحم صابح، بطانية خشنة، أو بنطلون ضاق على صاحبه، كانت الأغراض والأطعمة تقفز إلى قاربي مثل السمك الطائر، أكثر ما عبأتُ به زكيبتي التي أحملها فوق ظهري كان الشال الفلسطيني، كل مَن يعرفون أنني فلسطيني يلقون فوق كتفي بالشال الشهير، أصبحتُ مُتخمًا به، تمامًا مثلما يقدم شخص وردًا لميت، كأن هذه الحياة كانت في الأصل حلمًا في رأس طفل، لا تكتمل إلا إلى نقصان، ونقصانها يغري دائمًا بالسعي من جديد نحو الكمال.

كل رغيف يصل إلى كرتونتي أمزقه إربًا وأضعه في كيس، أجعله فتاتًا، فلم يعد الرغيف كاملًا كما كان يتوهم الأستاذ سليم.

تخليت عن اسمي الحقيقي، فقد كان يأتيني أحيانًا على هيئة كوابيس.

جُبتُ شوارع القاهرة حتى أطرافها، وصلتُ إلى منطقة نائية اسمها المرج، لا أدري كم لبثتُ فيها، يومًا أو بعض يوم، دسَّ أحدهم في يدي نتيجة ورقية ذات صباح، قالت النتيجة إنني لبثتُ في هذه المنطقة قرابة عامين، بالقرب من فيللا قديمة وغامضة أنزلتُ أغراضي، لم يطلب مني أحد الرحيل مجددًا، وأصبح لزامًا عليَّ أن أخصص ملابس ثابتة لا تتغير للسنة كلها، فاخترت الشتوي عندما تذكرت مقوله لأبي ذات محاولة للفرار "كل إشي يحوش البرد يحوش الشرد". صرتُ

أتبع إحساسي لا الكلمات التي تُدلق بالسطل فوق رأسي كل صباح، أعطاني أحدهم ذات غروب كرتونة كبيرة كالقارب، تبقت من هوجة كسَّر فيها الناس الدكاكين وأخرجوا بضاعتها إلى الشارع، صنع أحدهم لي شبشبًا من جلد، وعملت لي إحداهن جرابًا من مشمع أضع فيه زجاجة ماء ورغيفًا، أصبحتُ لا أحتاج شيئًا آخر، فقد حيزت لي الدنيا بما فيها داخل هذه الكرتونة المسروقة.

القاهرة1981

نفض أبي ثيابه من الغبار وترك مقعد الأسمنت أمام الدكان، كان صوت عبد الحليم يصدح في الراديو.

"موال عاشق بقيت موال، وقصتي بتنقال للناس وللعاشقين".

الرجل السمين لا يقوى على النهوض، كانت ما تزال تفوح منه رائحة جلد محترق وجبن عفن، سأل الشيخ مروان الذي كان في طريقه للداخل.

"وهل لا تزال أمك على قيد الحياة؟"

توقفت خطى الشيخ والتفت إلى الخلف.

"لا أعرف".

"ألم ترد إليك أي أخبار؟"

اجتاز الباب الزجاجي ووقف خلف البنك الخشبي يعاين قماشة ويفحصها جيدًا ثم قال:

"لا، لم ترد أي أخبار".

وقف أبي وجهًا لوجه أمام الشيخ.

"رغم أنك هنا الآن، أراك وأستطيع بسهولة لمس ثيابك، فإني لا أعرف حتى تلك اللحظة إن كنت حقيقة أم خيالا".

أكمل الشيخ مروان رشق دبابيس صغيرة في لوحة الباترون، ابتسم والتمعتْ عيناه بالدمع.

"أنا نَفسي لا أعرف".

طوى الرجل السمين جلد الماعز الذي كان يفترشه تحت مقعدته الكبيرة ودخل، بحث عن مكان بجوار أبي ليجلس فيه، كنت أراه دائمًا في وضع الجلوس.

عندما أبصرتُ وجه ضيفنا رأيته يبتسم ابتسامة واسعة، وقفتُ أتأمله دون أن أتكلم، فترك ما في يده واقترب مني.

"قضيت معكم عشرة أيام في الدكان، أكلنا وشربنا وحكينا، هل تأذن لي بالانصراف يا أبا عبد الله؟"

هبَّ الرجل السمين، أخذ يتحسس رأسه ليضبط طاقيته أو ليتأكد من وجودها.

"تمشي؟ لا يجب أن تمشي".

"سوف أذهب إلى مكان جديد لا يعرف حكايتي، فلم أعد أملك سوى الحكايات، حتى عودتي إلى جسر الزرقا أصبحتْ ضربًا من خيال، لن يعرفني الأولاد الذين يلعبون في الطرقات، لن يعرفني

أحد من الأجيال الجديدة، ولو عدتُ إلى قريتي سأسأل عن كل شيء، تمامًا مثل شخص نسيه فوج سياحي ورحل".

أيام طويلة وحكايات الشيخ مروان لا تنقطع داخل جدران الدكان، سأله أبي بجدية:

"وما الذي سيعود عليك من تكرار قصتك على مسامع أشخاص مختلفين؟"

كان الشيخ قد بدأ بالفعل في جمع أغراضه، خلع طاقيتي عن رأسه وأعادها إلى رأسي، بحث عن مسبحته ومداسه.

"ليس للإنسان إلا ما سعى، لن تثقب الثروة سقف الدكان وتمطر الدنانير فوق رءوس رجال يأنسون بالجدران، أُحب البراح ورؤية الناس في الشوارع والأسواق يروحون ويجيئون، وأرى الآن أن وقت الرحيل قد حان".

أزاح الرجل السمين دفتر المقاسات وكراسة الطلبيات جانبًا، أسند كوعيه إلى البنك الخشبي الكبير.

"وما المانع من أن تتوقف عن الترحال وتعتبر أننا محطة الوصول؟"

ندت ابتسامة صافية عن الشيخ وقال:

"والله أنا لا أخشى إلا الوصول".

كان أبي منشغلًا في سَنِّ المقص بطرف إبرة، توقفت يده ورفع رأسه في مواجهة الضيف.

"أنا رجل عملي، والآن، أعرض عليك أن تعمل معي بدوام كامل، وبالأجر الذي تحدده، وأريدك أن تطمئن، لن أختبرك، فالأيام العشرة الفائتة أثبتتْ أنك شخص لديك ضمير في عملك ولا تحتاج إلى مراقبة".

فرد الشيخ أمامه لوحة بيضاء، وأخذ يرسم عليها خطوطًا بالقلم، ثم أمسك المقص وحدد به بعض علامات مستقيمة.

"تعلمت منك قص الجلابيب والعباءات، وعلَّمني الشيخ سيد إتقان رسم باترون للبنطلون الشارلستون، وكما نفعتني في شيء، سأرد إليك بضاعتك".

بعد دقائق أصبح في يد الشيخ مروان باترونًا واضح المعالم، كأنه ظل من سَحَاب لبنطلون أبيض سيرتديه عبد الحليم حافظ عندما يطلع في التلفزيون.

رفع يده عاليًا بالباترون.

"أحلم بيوم لا نقص فيه ملابسنا بمساعدة الباترون".

" ألا تحب العمل معي؟"

"لم تعد ملابسنا تناسبنا".

قال الشيخ ثم ابتسم وأكمل:

"علمتني يا أبا عبد الله في عشـرة أيام فقط أشـياء مهمة، أن لكل شـخص مقاسـه، ليس فقط فيما يلبسه، بل أيضًا فيما يُصدقه أو يُكذبه، هـذه مهنة عظيمة لأنهـا تختصر الحيـاة، فكل منَّا لديه لونـه المُفضل، حجـم قيطانه ووسـع قبَّته ومقـاس ذيله، البراح الذي يـود أن يرفل فيه خياله دائمًا أكبر من موطئ قدميه".

كـرر أبي السـؤال على مسـامع الضيـف الذي وقـف خلف زجاج الدكان يتابع المارة في الشارع.

"الا تحب أن تعمل معي؟"

"أحـب العمـل، لكني أحـب الحكايات أكثر، فهـي تصلح أحيانًا لترميـم الكرامـة ولو بأثر رجعي، أحـاول الانتصار بالقـول في معارك خسرتها بالفعل في نسختها الأصلية".

عاد الشيخ للكلام الذي لا أفهمه، كنتُ أشعر أن ما يقوله مهم وهو كلمـات منفصلـة، أمـا عندما أحـاول لضمه في جُمل يقـف مخي عن التفسير ويضيع المعنى في محاولات الفهم.

لم يمل أبي من الإلحاح:

"لو وافقت على العمل معي، فإنني لديَّ خطة جديدة للدكان".

قوَّس الشيخ حاجبيه.

"العالـم كله أصبح مليئًا بالخطـط، هذه الجملة تُعيدني إلى حقبة بعيدة لا أستطيع نسيانها".

توجّه نحوي وأسند يده فوق كتفي.

"هل ترى يا أبا عبد الله؟"

يتنبه أبي وينتظر تكملة الكلام.

"لقد علمتني من تأويل الملابس شيئًا، المقص عندما يفصل القبة عن السيالات والأكمام! كانت القماشة واحدة، نسيجًا قويًا، يمكن لرجل أن يتعلق به ويتسلق الجدران كالعنكبوت، كل سنتيمتر منه يحتوي على عشرين عُقدة، وهذا المقص الصغير، رغم صِغر حجمه، وبساطة صناعته، وخسة معدنه، فإنه قادر على تقسيم الثوب إلى قطع، ثم تقسيم القِطع إلى قطع أصغر، ثم يحكم على شراذم القصاصات بالرمي في سلة المهملات".

ملامح أبي اتخذتْ هي الأخرى وضع الاندهاش، والرجل السمين يلف رأسه باتجاه مَن جاء دوره في الكلام، لم يكن يشغل نفسه كثيرًا بفهم الحديث.

كان الراديو يذيع يوميًا أخبارًا عن مجلس الشعب وأشياء كثيرة أخرى لا أفهمها، حتى مد ضيفنا يده إلى الراديو ليعلي الصوت، ثم خطب فينا:

"هُس، هُس، أنصتوا جيدًا، فهذا هو أول لقاء رسمي مع الرئيس الجديد، ذلك الرجل الذي لا يعرفه أحد بالقدر الكافي".

كان أبي قد أعطاني نصيبي من العمل هذا الصباح، فردتُ قماش الكشمير فوق البنك الخشبي في رصات متساوية وقمتُ بتركيب

مـا تبقـى مـن أزرار الأمس، وقـف الرجل السـمين إلى جـواري، كان يسـاعدنا في حمل الأقمشة، يعمل لنا دور شاي ويشرب معنا، أو يأتي ليسـتمع إلـى أم كلثوم فـي الراديو، هذا ما كان يقول إنه سـبب تواجده معنا لسـاعات طويلة خـلال اليوم، أما الحقيقة، أنه يأتي فقط ليسـتمع إلى حكايات الشيخ مروان.

كان الجميـع منصتيـن إلـى الراديـو، ينظـرون إليـه كأنهم سـيرون ملامـح المتحدثين، وسـمعتُ صوتًا لم تألفه أذني يجيب عن سـؤال: هل ستسير على نهج جمال عبد الناصر أم أنور السادات؟ فَرَد بصوت بالغ الحماسة والحيوية:

"My name is Hosni Mubark"

طقَّ سؤال في رأسي، وجهته لأبي هذه المرة:

"لقد سمعت في الراديو بالأمس كلمة لم أفهم معناها".

توقفت يده عن لف الأقمشة المقصوصة وربطها بالدوبارة:

"هذا الراديو خطر على مَن هم في مثل سنك يا عبد الله".

"مـا معنـى تـرزي القوانيـن يـا أبـي، ولمـاذا دخلـت مهنتنـا إلى الراديو؟"

لم يرد أبي، وفتح الرجل السـمين فمه كشُـرَّاعة، أما الشـيخ مروان فابتسـم ولوح بيـده، كانت خطوة واحـدة فقط تبعدني عنـه، رفع يديه مجتمعتيـن وصافح نفســه في الهـواء، ثم خرج وترك الـدكان دون أن

ينظر خلفه، كانت شمس الخريف تودع اليوم، خافتة وتعطي ملابس الشيخ مروان لونًا برتقاليًا، يظهر طرف لحيته البيضاء المدببة من الخلف عندما يحرك رأسه، ينحني على كرتونته التي لا تزال متماسكة الزوايا فوق الرصيف، يرفعها فوق كتفه بالمتعلقات البسيطة ويسير أمامنا بخطوات منتظمة.

عاد صوت عبد الحليم حافظ يزداد رنينًا من خلفنا.

"موال عاشق بقيت موال وقصتي بتنقال للناس وللعاشقين".

سحب الرجل السمين بساط جلد الماعز الذي كان يفترشه فوق مقعد الأسمنت، وأبي، وقف يحمل مقصًا أمام الدكان كأنه يتابع شيئًا خارجًا عن إرادته، وأنا، أريد الذهاب مع الشيخ مروان وترك هذا الدكان إلى الأبد.

في البعيد لمحتُ بيتًا كبيرًا وسط الحقول، كان أبي يُسميه "فيللا" يقف على بابه الحديدي جنديان يحملان السلاح، إضاءة البيت دائمًا خافتة ويلفه صمت، قال أبي ذات مرَّة، إنه مقر إقامة شخص مرموق اسمه نجيب، كان رئيسًا لمصر وأبي في مثل عُمري، لم يمدني بمعلومات أخرى.

عندما انتبهتُ من سرحاني واتخذت القرار بأن أتبع الشيخ مروان حتى نهاية الشارع، كان الضيف الغريب قد اختفى في زحام الناس وغبش الغروب.

رجال غسان كنفاني

هذه رواية اقتناص؛ فهي تقتنص روح كاتب، وترتدي عباءته الشفيفة، بل وتستحضر بعض شخصيَّاته لتُعيد توظيفها من خلال شخصية «مروان» الفلسطيني الشارد، الذي يهجر وطنه من أجل أن يأتي بالمال الوفير ليفوز بحبيبته «صفية»، فتبدأ رحلة تيه التي يضل خلالها طريقه، فبدلًا من الذهاب إلى الكويت، يجد نفسه في طريقه إلى الأردن، ومنها إلى مصر، حيث يدخل متاهة جديدة من متاهاته المتتالية، يمر خلالها بسراديب «مريم» الحزينة، مستحضرًا طوال رحلته تجسُّدات أُمِّه التي تتهادى أمامه، وتتكثَّف في روحه، بينما يزداد انغماسًا في تيهه الأبدي!



عمرو العادلي. ماجستير في علم اجتماع الأدب من جامعة عين شمس. صدر له خمس مجموعات قصصية. منها: "حكاية يوسف إدريس" 2012، و"عالم فرانشي" 2016. كما صدر له ست روايات منها: "كتالوج شندلر" 2013، "الزيارة" 2014، "رحلة العائلة غير المقدسة" 2015، "اسمي فاطمة" 2017، "قبل المساء" 2019، ورواية واحدة للأطفال "المصباح والزجاجة" وقد ترشحت للقائمة الطويلة بجائزة الشيخ زايد 2017 كما حاز على جائزة ساويرس فرع كبار الأدباء عن مجموعة "حكاية يوسف إدريس" 2015، وجائزة الدولة التشجيعية عن رواية "الزيارة" 2015، وجائزة اتحاد كتاب مصر عن رواية "رحلة العائلة غير المقدسة" 2017. وترشحت رواية اسمي فاطمة للقائمة الطويلة بجائزة الشيخ زايد 2019.